رواية

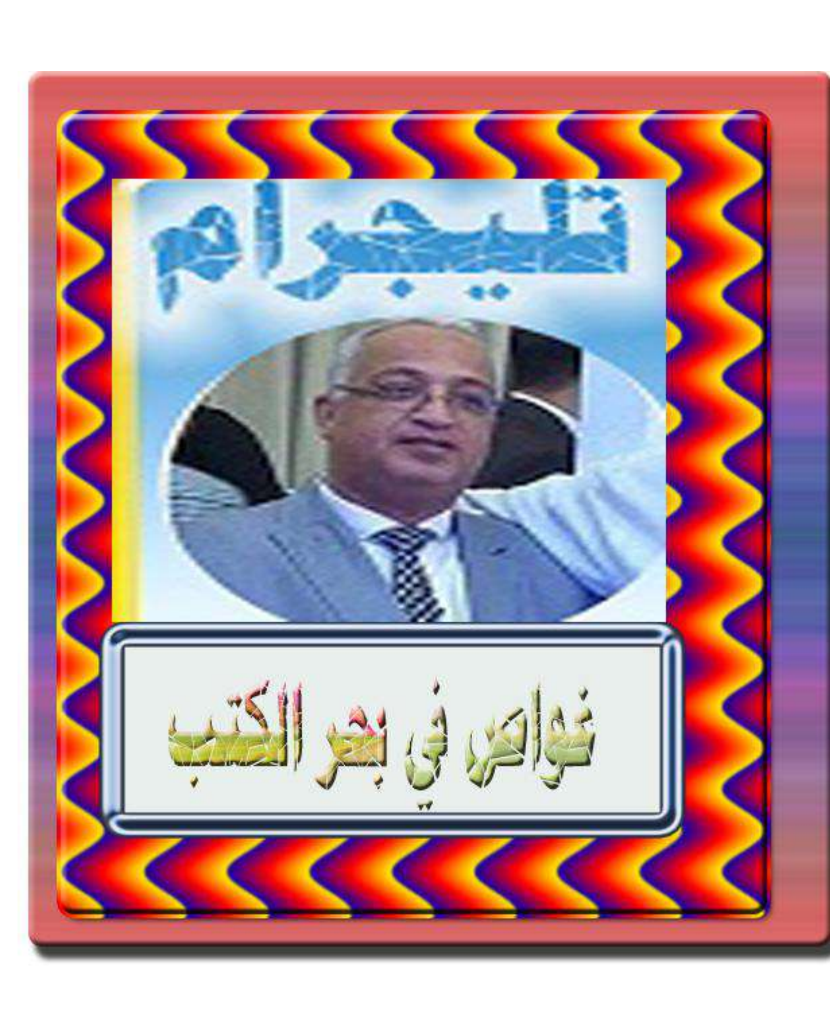
مكتبة

صوفي ماكنتوش

التذكرة الزرقاء

ترجمة: علي عبد الأمير صالح




تليجرام
غواص في بحر الكتب



اسم المؤلف: صوفي ماكنتوش

عنوان الكتاب: التذكرة الزرقاء

ترجمة: علي عبد الأمير صالح

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2023

Author: **Sophie Mackintosh**

Title: **Blue Ticket**

Translated by: **Ali AbdulAmir Saleh**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq- Baghdad- Abu Nawas-neigh, 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 — + 964 (0) 780 808 0800 — + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 — + 961 706 15017 — + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 — + 963 11 232 2275 — + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

صوفي ماكنتوش

التذكرة الزرقاء

ترجمة : علي عبد الأمير صالح



اليانصيب




تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الفصل الأول

بدأ الأمر بتوزيع الحظ، أجسامُنا كراتٌ من الدبابيس في داخل آلة[1]. كان عام تداخل أعمار المراهقة، لمّا تبدأ الفتيات بالضَعف ويُصبحن طويلات القامة.

***

لمّا مضيتُ لزيارة طبيبتي في العيادة، جزء الجدار الذي قاست به طول قاماتنا مُنقّط في كلّ مكان، كما لو أن تلك النقاط هي بيوض ذباب. طول قامتي ضائع هناك مع بقية القامات. باستقامة أكثر، باستقامة أكثر، قالت الطبيبة. طرقت على مفاصل أصابعي بمسطرة. انظري إلى الأعلى! ماذا تُشاهدين؟

***

فقط الغبار المتجمع على ورق جدران سقفكِ، دكتورة، لم أقل ذلك. وضعت علامات على جسدي. قضمتُ برفق الجلد المحيط بحافات أظافري[2]. لفت شرائح من الشاش حول إبهاميّ النيئين. كفي عن مضغ نفسكِ، قالت لي، ودوّنت شيئاً ما ربما هو «فشلٌ في التنشئة».

***

1- هنا إشارة إلى لعبة الكرة والدبابيس pinball machine، وهي أداة تسلية تُتخذ للمقامرة أحياناً تُدفع فيها كرةٌ فوق سطح منحدر وسط دبابيس وأهداف-م.

2- قضمتُ برفق الجلد المحيط بحافات أظافري I nibbled at the edges of my skin: بعضهم يعزو هذه العادة إلى اضطراب الوسواس القهري. ويمكن تفسيرها على أنها محاولة للتخلص من الوساوس. غالباً ما يؤدي قضم الجلد المحيط بالأظافر إلى النزف وتغير اللون المحيط به بمرور الوقت. وغالباً ما يكون سبب ذلك وجود مُتلازمة جلدية وبخاصة في الجلد المحيط بالأظافر. تسمى هذه الحالة بالإنكليزية dermatophagia-م.

أبي اشترى لي كلباً رمادياً نحيلاً وقوياً حين بلغتُ سن الحادية عشرة، لتلبية رغبتي. اركض بنحو أسرع! صحتُ عليه لمّا لم يكن بوسعه أن يُجاريني. كان هذا حباً.

***

ضوء هادئ، العناكب تندفع من أنسجتها الفضية في داخل إطار نافذتي. هناك خارجاً، في موضع ما، كان المصير. أنا والكلب كنا نركض معاً إليه. أحببتُ أن أدفن وجهي في فروه الفلفلي، مع أنني أعتقد أني كنتُ مُصابة بالحساسية. من المحتمل أنّ الحب قد سبّب لي المرض منذ البداية.

الفصل الثاني

اشربن كثيراً من الحليب إن كنتن تُردن أن تُسرّعن نموكن، أخبرتنا الفتياتُ العارفات في غرفة الحمام، بين الدروس، فيما كنا ندلكُ البلسم[1] بشفاهنا المتشققة. لم يحدث لهن ذلك بعدُ إلّا أنهن كُنّ قادرات على اكتشاف الأشياء. تناولنَ الدهون والزيوت، قُلن. فتحنا جميع الحنفيات وبعدها غادرنا لحضور دروسنا.

***

على العشاء تناولتُ ملءَ ملعقة من الزبد وتناولتُه بعناية. راقبني أبي ولم يقل شيئاً. تناولت ملء ملعقة أخرى. لحستُ الملعقة.

***

«كوني دقيقةً في رغبتكِ»، شعارٌ مكتوب على جدار العيادة. لا بد أنني قرأتُه خمسمائة مرة على مدى ذلك العام وحده. كانت رِجلاي تتأرجحان إلى الأمام والخلف على الكرسي البلاستيكي البرتقالي في حجرة الانتظار.

***

الفتيات غادرن واحدة إثر الأخرى في أثناء الفصل الدراسي. ما من حفلات وداع، وما من إشعارات. ولمّا جاء دوري، قلّما بقي هنالك أحد. كنتُ أنا وفتاتان أخريان والصبيان الذين في سني في حجرة الصف، ندفع أقلامنا الرصاص على الورق فيما كنا نضرب ونطرح ونحفظ عن ظهر قلب تحت درب الشمس.

***

1- البلسم balm: مرهم عطري-م.

لم أشعر بإخلاص كبير تجاه مفهوم حرية الإرادة. في سن الرابعة عشرة كنتُ أنتظر المستقبل على مدى شهور. جلستُ طوالَ ساعات على قرميدات حمّام أبي الصفراء وركبتاي مسحوبتان عالياً إلى صدري، كما لو أنه باستطاعتي أن أجبر جسمي على المضي إلى الأمام بقوة أفكاري. لم يكن باستطاعتي أن أبتهج بأيّ شيء، باستثناء أنّ كلّ حَدَث كان يُقرّبني من سن البلوغ، أفقه الواضح والمشرق. بدا كما لو أنه يتعين علينا أن نسبح عبر الوحل كي نصل إلى هناك، أشبه بمصب أمامنا قبل أن نصل إلى البحر[1]. «اجتازي هذا»، كتبتُ على ظهر دفتري المدرسي. تعويذة خاصة. أحسستُ أني متقدّمة للغاية كي أُحقق سلاماً كهذا مع ذاتي. لم أكن أعرف شيئاً، وهذا واضح.

***

هذا كلّه قلتُه للطبيبة جَيّ، وهي امرأة شاحبة مُسرِعة، مالكة الحائط المُعلَّم. أدمغتنا النامية كانت مخزونة في أشرطة تسجيل في خزانة الأضابير العائدة لها، التي تُحدِث انقضاضاً نفسياً على عدد لا محدود من الفتيات المراهقات اللاتي ينتظرن دورهن في التمحيص.

***

ماذا كان يفعل دماغكِ مؤخراً؟ تعوّدت أن تسألني، وأقول لها الشيء نفسه كلّ مرة، وهو أنه لم يكن يفعل شيئاً على الإطلاق، وكانت هذه أيضاً هي الحقيقة عادةً. نمتُ نوماً عميقاً ومشيتُ في الغابة مع بندقية أبي بعد المدرسة، أبحث عن الأجسام المرتعشة للأرانب، مع أنني لم أطلق النار عليها لمّا كنتُ وحيدة. أصبحتُ عاطفية فيما يتصل بأكواز الصنوبر والشعر، وسبحتُ المراحل الموصوفة لي في مركز الترفيه مع الفتيات الأخريات

1- أشبه بحاجز – مَصب أمامنا قبل أن نصل إلى البحر: في النص الإنكليزي an estuary barrier to us before reaching the ocean: سألنا الكاتبة عن معنى ذلك، فأفادتنا في رسالتها الإلكترونية المؤرخة في التاسع من أيلول/ سبتمبر 2022، أنّها تقصد أنّ ذلك أشبه بحاجز أو مرفأ قبل الوصول إلى البحر. وتقصد هنا: أشبه بمَصب قبل أن نصل إلى مرحلة البلوغ. وللعلم، تستعمل الكاتبة كثيراً من المجازات اللفظية في عملها الروائي الذي بين أيدينا، وتتجلّى اللغة الشعرية في عملها الروائي هذا وعملها السابق (العلاج بالمياه)، الصادر عن (دار المدى، 2022)، بترجمتنا–م.

اللواتي في سني، ماشيةً صوب البيت على طول الطريق الريفي الرمادي الذي تحفه الأرض المعشوشبة.

***

وفيما كان العام يتقدّم تدريجياً وباطراد، علاماتٌ حُمر طويلة حبّرت[1] فخذيّ، بنحو غامض. الجلد يتمدد، قالت الطبيبة. ستكونين طويلة القامة. في حينها لم أُصدّقها. في الأيام البطيئة، صلّيتُ كي يحلّ وقت نزيفي. صلّيتُ للطبيعة كي تجعل ذلك يحدث، للعشب الندي والسماء. العلبة المعدنية الصغيرة المُدلاّة العائدة لأمي[2] كانت تنتظرني في دُرج جوارب أبي. لم تكن العلبة مُغلقة، بل فارغة. كانت أمي مدفونة في المقبرة الرمادية خارج البلدة. تذكرتها ربما كانت مدفونة معها. لم أسأل عن ذلك.

***

اصطحبني أبي إلى أحد المطاعم. كانت تلك أولَ مرة أؤدي فيها دوراً من أدوار سن البلوغ، ولم أقم بذلك بشكل حسن. لفات خبز فارغة، مشقوقة؛ أكلتُ ثلاثاً منها بسرعة شديدة. شاهدتُ حبات الفطر الحزينة في معكرونة (الكاربونارا) كالقواقع، ومن ثم لم يكن باستطاعتي أن آكلها. قلب رقيق، سمّاني أبي في ذلك الحين. كان غاضباً بعض الشيء. كان بحوزتنا نبيذ وشربتُ مقداراً كبيراً كافياً من المياه الغازية كي يُغطي الكأس، إنما ليس أكثر من ذلك. هذه المياه الغازية جعلت لساني يبدو نابضاً بالحيوية. أراني أبي كيف أشرب جرعات كبيرة من النبيذ وماذا تقول لك النقاط المَدّية التي يبلغها أو ينخفض إلى ما دونها. على غرار قراءة أوراق الشاي، قال لي. حدّقتُ في النبيذ ورأيتُ المستقبل. إنه يعيش في قاع الزجاجة.

***

1- يُحبّر welt: يُحدِث حَباراً على جسم الإنسان. والحَبار هو أثر الضرب في جسم المضروب-م.

2- وردت في النص الإنكليزي الأصل كلمة locket، وهذه الكلمة تعني علبة معدنية نفيسة صغيرة تحتوي على تذكار كرسم شخص أو خصلة شعر يُدلّيها المرء من قلادة أو سلسلة. سنختصرها في ترجمتنا بـ «علبة معدنية صغيرة»- م.

لمّا نفد النبيذ كلّه رفع القنينة الفارغة وحملها إلى عينه كالتلسكوب. أترين؟ ضحك، إلّا أنني لم أسأله ماذا كان يحمل المستقبل.

***

كانت تُريدكِ أن تختاري تذكرة زرقاء، قال لي فيما كنا ننتظر الفاتورة، إلّا أنه لم يتوسّع في الأمر. لم أشأ أن أبدو غبية وأسأل، لذا بدلاً من ذلك أومأتُ برأسي كوني فهمت. كنتُ أحاول فقط أن أخلد إلى النوم، تالياً، بحيث إنني أدركتُ ماذا كان يُحاول أن يُخبرني بشأن أمي.

***

كان في مقتبل العمر كي يُصبح أباً. في نهايات الأسابيع، كان أصدقاؤه يأتون إلى البيت ويشربون البيرة ويُراقبونني. لعبوا الورق إنما ليست المباريات التي كنتُ أدركها. واحد اثنان، واحد اثنان، كانوا ينشدون فيما كانوا يرمون الورق إلى الأسفل. زجاجة بيرة أخرى. استلقيتُ على بطني في العتمة في الردهة، حيث لم يكن بوسعهم أن يُشاهدوني. كنتُ أُريد أن أشاهدهم ولا يُشاهدوني. كان ذلك شيئاً جوهرياً بالنسبة لرغبتي. لن يتسنى لكَ أن تفهم ذلك وأنتَ في سن الرابعة عشرة. غير أنني أستطيع أن أفهمه الآن.

***

في صالة السينما، في وقت لاحق من تلك السنة، انزلقت أناملي هنا وهناك في داخل دلو يحتوي على الفُشار. ثمة صبي يجلس بجواري. أحسستُ أنه يمد يده إليّ كما لو أنه يسبح. تحرّكت اليد إلى الأعلى والأسفل إلى أن وصلت جسمي. وجدت اليد كتفي، صدري. سمحت لها أن تستقر هناك، بسلام. انتهى الفيلم. اليد ارتفعت. غادر الصبي قبل أن أتمكن من النظر إليه.

***

في المدرسة، كان حمّام الفتيات فارغاً تقريباً، في تلك الآونة. ما من أحد يترك الحنفيات يتدفق منها الماء باستمرار.

***

ذات يوم أصبح الكلب الرمادي بديناً وحتى أبطأ. تبيّن أنه أنثى. كانت الكلبة مستلقية وأشياء صغيرة عمياء تخرج منها، وردية اللون وتطلق صوتاً كالثغاء، كالقلوب. فعل أبي شيئاً ما لها. وضعها في البرّية، أو وهبها منازل جديدة. اخترتُ أن أعتقد هذا.

***

إنها الكلبة التي فكرتُ فيها بعد مضي أعوام، لمّا خفضتُ بصري ناظرةً إلى بطني، وهو ذا. شيءٌ لا يُنكَر. أنا، أيضاً، سأكون بطيئة. سأرقد على الأرض. أرض باردة. صباح أزرق.

***

كان يتعين عليكِ أن تلمسيها، قالت الفتاة الأخيرة في المدرسة وهي تقف بعيداً عني. كان ينبغي لكِ أن تكوني أُمّ تلك المخلوقات الصغيرة. سوف تتعرّف إلى رائحتكِ، رائحتكِ فحسب. فتاةٌ حزينة، شاحبة ونحيفة، ذات عينين باهتتين ضعيفتين. لم أشأ أن أعتقد أني من طرازها، لكن هي ذي أنا. ها نحن أولاء. وضعت شطيرة، بحذر، في فمها. في حجرتي بالبيت تنشقتُ إبطيّ، لمجرد أن أرى. بدت الرائحة غير مُميّزة. بدت أشبه برائحة كريهة تعود لأيّ شخص آخر. إنها تعتقد أنّ جسمها ليس من النوع الذي يَلِد أيّ شيء[1].

1- يَلِد أيّ شيء: المقصود هنا أن يرعى أو يكون أمّاً لأيّ شيء، كما شرحت لنا الكاتبة-م.

الفصل الثالث

ذات يوم، أخيراً، كان هنالك بقعةٌ حمراء في سروالي الداخلي. في الدش غسلتُ جسمي بعناية، دمٌ غير مألوف يغلّف رجليّ نازلاً إلى الأسفل بكمية قليلة. كُتلة من مادة هُلامية داكنة سقطت مني. أحسستُ، بهدوء، أني قد أفارق الحياة. بدلاً من ذلك لبستُ الفستان الذي كان مُعلّقاً على باب حجرة نومي طوال العام الفائت؛ هو من الساتان الوردي، مُزيّن بالزهور البيض في الحاشية وتقويرة العنق، تنورة داخلية تحته مباشرةً مخدوشة عند رُكبتيّ. كنتُ أفوح بالرطوبة، بالحلاوة المتراكمة للعطر الرخيص الذي كنتُ أنثره انطلاقاً من الشعور بالواجب على بدني كلّ يوم. مضيتُ ودُرتُ قبالة أبي، الذي قبض على القلادة ذات العلبة المعدنية الصغيرة وأعطاني إياها. لا تلبسيها الآن، قال لي.

***

أخذنا سيارة أجرة لأنها كانت مناسبة خاصة، مع أنها مسافة طويلة؛ عبر الشكل الضخم لأقرب البلدات، عائدين إلى الضواحي، مروراً بالمنازل الخشبية الشبيهة بمنازلنا. كان سائق سيارة الأجرة يمتلك صندوق آيس كريم بلاستيكياً مزوداً بقلوب شوكولاتة ملفوفة بورق معدني. خُذا اثنين! أصرّ، ومن ثم أعاد الصندوق إلى مكانه تحت مقعده.

***

فتاةٌ حلوة، قال لأبي، الذي قال، «راقب الطريق»، باسماً من دون ابتسام، وبعدها ظلّ الاثنان صامتين طوال بقية الرحلة. كانت القلوب تحتوي على حبات كرز داكنة. طويتُ قطعتَي الورق المعدني في كُرة واحدة ودسستُها في الفجوة الكائنة بين مقعدي والباب.

***

كان مركز اليانصيب يشبه إلى حدّ كبير العيادة الطبية: طابقان من القرميد الباهت، وسقف مسطح. لمّا اتجهنا إلى الأعلى، كان البوليس السري[1] في الخارج يُدخّن سيجارة، إلّا أنه رماها في الطريق حين شاهدنا. تهانينا، قال لي. أرشَدنا إلى الداخل حيث كان ينتظر الآخرون.

***

كانت ألواح الأرضية من الخشب، مصقولة بطريقة مُكافِحة. أقدام لا حصر لها مشت على تلك الأرضية. جمعت انعكاسات من سائر الأضواء – أضواء كشافة من السقف، مصباح على المكتب حيث جلس رجلٌ ببزة داكنة على كرسي بلاستيكي برتقالي اللون، يُراقبنا، يلفُّ رِجلاً على رِجل. من المحتمل أن يكون طبيباً، إلّا أنه لا يرتدي معطفاً أبيض، ولا قفازين بلاستيكيين أبيضين. كانت هناك أربع فتيات أُخريات بفساتينهن جالسات بهيئة صفّ على مصطبة خشب، وثمة أزهار حقيقية وصناعية على السواء مُثبتة في صدورهن. هؤلاء لم يكنّ الفتيات اللائي من مدرستي. إحداهن ترتدي المخمل، واثنتان ترتديان التول، والأخيرة ترتدي الساتان على غراري. أحببتُ الفتاة التي تلبس الساتان. الجنس نفسه.

***

اصطففنا في رتل، ننتظر سحب تذاكرنا، بالطريقة ذاتها التي تأخذ فيها رقمكَ عند كاونتر الجزّار. الموسيقى الرائجة في تلك السنة كانت تُعزف من سمّاعات مُثبتة في السقف. الجاذبية وحدها تكفي. المراسم وحدها تكفي. ليس بالضرورة أن تكون شيئاً ذا أهمية بالغة، على أية حال.

***

نودي على اسمي أولاً. راقبوني فيما كنتُ أمشي على طول الغرفة، صوب الجهاز الموجود في داخل صندوقه المُغطى بعباءة. وضعتُ يدي في داخله. كنتُ خائفةً إلّا أنني مستعدةٌ لأن تُحسَم حياتي. أغمضتُ عينيّ

1- استعملت الكاتبة صوفي ماكنتوش في روايتها هذه كلمة emissary، ولمّا سألناها عمّا تقصده بالضبط أجابتنا في رسالتها الإلكترونية المُشار إليها آنفاً أنّ الـemissaries (بصيغة الجمع) هم نوعٌ من البوليس السري يُرسلُهم الأطباء–م.

وفكرتُ في أبي بزجاجة النبيذ على عينه. الجهاز صامت فيما كان يُطلِق قصاصةً من ورق صلب في يدي. كانت بلون الكوبالت العميق. تهانينا، قال لي الطبيب المُحتَمَل بالبذلة الداكنة.

***

الفتيات الأخريات حذون حذوي، كلّ واحدة منهن تأخذ تذكرتها من الجهاز على التعاقب. منزل ممتلئ تقريباً! هتف في النهاية، وهو يقرأ قطعة ورق بصقها الجهاز إلى الخارج. تجمعنا وقارنا التذاكر. كانت كلّها زرقاء اللون، باستثناء تذكرة واحدة، كانت بيضاء اللون. الفتاة ذات التذكرة البيضاء رافقها إلى حجرة منفصلة الطبيب ومبعوث سري آخر. راقبنا الثلاثة وهم يمشون عبر مدخل غير مُضاء. لمّا رجع الطبيب صفق بيديه مرتين. لقد تم استثناؤكن، قال بكَرَم رهيب.

***

عند المكتب، دوّن البوليس السري الذي كان عند الباب النتائج، كي يتواصل مع المنازل، مع العيادات الطبية، مع الأمكنة البعيدة والمهمة التي لم نكن نعرف عنها شيئاً. واحدة بعد الأخرى دُعينا إلى حجرة أخرى، حجرة مختلفة عن حجرة الفتاة التي سحبت التذكرة البيضاء. رقدتُ على سرير مُنحنٍ إلى الوراء مُزوّد بغطاء ورقي متغضن، وأخبرتني طبيبة مرتاحة، تقريباً، بالمعطف الأبيض المألوف، بأن أثني ركبتيّ إلى الأعلى. دفعت شيئاً ما في داخلي، سبّب لي وجعاً حاداً وزاحفاً. ما هذا؟ سألتُ، فردّت عليّ، «طبيبكِ سوف يشرح لكِ كلّ شيء حين تتمكنين من معرفة إلى أين أنتِ ذاهبة». قالت «حين تتمكنين» وليس «إذا تمكنتِ»، وكنتُ ممتنة لذلك. ورائي تركتُ وردة كبيرة من الدم على الورقة.

***

كان حمّام دار اليانصيب مكتظاً بالضوء الأصفر، أوردة عنقي النحيل تبرز من تحته. كنتُ دجاجةً منتوفة ذات ظلال عينين وُضعت بطريقة سيئة، غير أنّ العلبة المعدنية الصغيرة كانت حول حنجرتي الآن. كانت هنالك مرآة طويلة، منخفضة فوق المغسلة، كرسي من الغصون الصغيرة اللدنة في

الزاوية وحُجيرتا حمّام مطليتان بلون الخوخ. في المرآة شاهدتُ الفتيات الأخريات يتكئن على الحائط. أصابع أقدامنا ملوية. عيوننا مرفوعة إلى السقف، انتقلت إلى الباب حين أتت الفتاة ذات التذكرة البيضاء كي تلتحق بنا، وبعدها عادت إلى السقف. كان هنالك نَسَق زهرة ميتة في زاوية المغسلة، فجوات من واحة تظهر من خلال قرنفلات ورديّة. أتت الموسيقى إلى هنا أيضاً، السمّاعات في السقف أو تحت المغسلة.

***

في أول الأمر ظللتُ أنظر إلى الفتاة التي سحبت التذكرة البيضاء، الفتاة الأخرى بالساتان، مع أن فستانها بلون أزرق باهت ومتسخٌ في الحاشية حيث كان ينسحب على الأرض. عيناها حمراوان. كان يتملّكني دافع في أن آخذ ذراعها وأركض معها إلى مكانٍ ما، خارجاً إلى جهة الغابة حيث تعوّدتُ أن أُدخّن السجائر مع الفتيات الأخريات في الفرص بين الدروس، خلف السلك الشائك المُهشّم من المحيط الخارجي للمدرسة، ففي هذا المكان لا يستطيع المعلمون أن يُشاهدونا. غير أنني لم ألمسها؛ جعلتُ نفسي أتوقف عن النظر.

***

في داخل الحُجيرة أمضيتُ بعض الوقت وأنا أقرأ الأسماء والتواريخ المخربشة على الباب. بدبوس الأمان الذي يُمسك بباقة زهور عود الصليب[1] الصناعية التي تُزيّن الجزء العلوي من فستاني نقشتُ «كالا، تذكرة زرقاء»، وجهاً باسماً والتاريخ أسفل منه. نوبة الارتياح، ناعمة وطبيعية كالعضلة. لن يكون لديّ أولاد. وكنتُ سعيدة. أنا نفسي كنتُ طفلةً، منذ زمن ليس بالطويل جداً. لم أشأ أن أجعل أيّ كائن ضعيف آخر يختبر تلك التجربة العصيبة.

***

رجعتُ مع بقية الفتيات إلى حجرة اليانصيب، حيث كان آباؤنا يقفون في صف. كانت هنالك منضدة مزوّدة بغلايات شاي وقهوة، بسكويت وشطائر

1- عود الصليب أو الفاوانيا peony: نبات ذو زهرات كبيرة حمراء أو قرنفلية أو بيضاء-م.

خفيفة على أطباق من الخزف الصيني، وعلب من المناديل الورقية. الطبيب الذي أشرف على الشيء كلّه وقف أمام الآباء، كما لو أننا قاطعناهم وهم يخاطبون بعضهم بعضاً. ربما قاطعناهم فعلاً. ابتسمت الأمهات. الآباء بدوا كئيبين.

***

سلّم بوليس سري كلّ واحدةٍ منا قنينة ماء، فرجاراً وشطيرة مما على المنضدة، ملفوفة بمنديل مائدة. لم نشرع في التقاط حشوة الشطيرة. انتبهتُ إلى أنّ القنينة التي أُعطيت إلى فتاة التذكرة البيضاء كانت أكبر من قنانينا، واستلمت شطيرتين. حدث ذلك حالاً، تباعدت دروبنا، ما من زمنٍ كي نوفره.

***

اذهبن، قال لنا الطبيب. إلى المكان الذي تخترنه. ادخلن فيه. أيّ مكان باستثناء هذا الموضع هنا. تهانينا.

***

التقت عيناي بعينيْ أبي. كانت ثمة مدينة في ذهني. بادلني النظر وأومأ برأسه.

***

مشينا خارجاً إلى الليل البارد. البالغون والبالغات مكثوا في الضوء، من أجل القهوة والأطعمة المُنعِشة، كي يستخلصوا المعلومات من الطبيب. قد نرى آباءنا وأمهاتنا مجدداً، وقد لا نراهم. بعض الفتيات توقفن حالاً ما إن أصبحنا في الخارج. لم يكن يعرفن إلى أين يمضين. كن غضّات وحائرات كما الظباء التي شاهدتُها عند حافات الأشجار، في الغسق. الفتاة ذات التذكرة البيضاء، أيضاً، سارت مباشرة ودخلت الغابة، أضواء مشاعلنا ارتدت من الساتان إلى أن دخلت هي في العتمة. لم يكن بيننا اختلافٌ كبير.

***

وضعتُ الفرجار في راحة يدي. شمال أم جنوب، شرق أم غرب. اضطراب الإبرة، الضوء المتشظي للقمر على غطائها الزجاجي. عرفتُ أنّ

باستطاعتي أن أفعل هذا؛ باستطاعتي أن أُظهر أني أستطيع القيام بشيء ما وراء البشرة الممزقة ورائحة عَفَن الحمّام والصبيان في الظلام، أتلمّس بحثاً عن شيء ما كنتُ أرغب بأن أعطيه إلّا أنني قلّما تمكنتُ من ذلك. حياتي هناك، أمامي. يتعين عليّ أن أهرع إليها، الآن الشكل قد سُبِك.

***

بعض الفتيات الأُخريات تعقبنني فيما كنتُ أنزل الامتداد الباهت من الطريق. استمعتُ إلى دثار أقدامهن خلفي، غير راغبة في أن أدعهن يقتربن مني أكثر. كانت إحداهن تبكي على أمها، إلّا أن أُمّها لن تأتي. لن يأتي أحد.

الفصل الرابع

هكذا تُصبح حياتكِ شيئاً ثابتاً، مكتوباً وغير قابل للتغيير. إنه شيء لا ينتمي إليّ فعلاً، وأن أتمنى أيّ شيء آخر هو مُغالَطة في أفضل الأحوال، وشيءٌ غادر في أسوأها.

***

تذكرة زرقاء: لا تُقللي من قيمة ارتياحِ اتخاذ قرار سُلِب منكِ.

***

تذكرة زرقاء: لا أمتلك ميزة أُمّ حنون. ارتأى شخصٌ ما أنّ هذه الميزة ليست لي. هذا الشخص يعرف أكثر مني.

***

تذكرة زرقاء: ثمة نقص في دماغي، جسدي، روحي، أو شيء آخر. ثمة عيب ينبغي لي ألا أغفله. ثمة دفء أفتقده.

***

تذكرة زرقاء: حياتي ثمينة بما يكفي مثلما هي عليه الآن فعلاً. من المفترض ألا أتعرّض للخطورة.

***

تذكرة زرقاء: بعضهم يسميها تضحية نبيلة، ويسميها آخرون رحمة.

***

إنها تعني شيئاً مختلفاً في كلّ مرة أفكر فيها.

***

كانت الأعوام مسعورة، وبعدها باتت أهدأ. كانت تتكتك بحتمية بندول الإيقاع، بعضها هاجع وبعضها الآخر ممتع. الأشياء يُمكن أن تحصل لامرأة بتذكرة زرقاء بطريقة قد لا تحصل فيها لامرأة بتذكرة بيضاء. روح المغامرة. بالممارسة، تبدو الحياة أقصر من ذلك الاتساع الذي تَعِد به. في الليل المظلم وقفتُ في مطبخي، أدخن سيجارة، أُراقب أضواء جيراني وهي تنطفئ في كلّ مرة. لم أعد أطلب من الرجال الذين في عمر أبي كي يضربوني على وجهي أو أن يمكثوا ثلاث ليال في كلّ مرة. عشتُ حياةً هادئة في أغلب الأحيان. لم تكن حوافزي جامحة على الدوام كما بدت عليه. في الوقت الحاضر عرفتُ بوجه عام أياً منها تلك التي بوسعها أن تُسعدني، وأياً منها تلك التي لن تسعدني.

***

في بعض الأحيان كنتُ أعي أنّ هنالك بعض الأمكنة لا يسعني المضي إليها. وأردتُ الذهاب إلى هناك. مَن الذي لا يرغب، لمّا يُقال له إنه شيءٌ مُستحيل؟ الأمومة هي الانحراف الأخير؛ بخلاف ذلك نُعرَف بكوننا حنونات ومحبوبات. إنها الشيء الوحيد المُقتصِر عليّ.

***

«أُريد». النقاء هو صفة الشعور الذي تفتقر إليه الأحاسيس الأخرى، البساطة، حتى حين بقي هذا الشعور هو الشيء الأكثر تعقيداً في العالَم.

***

في بعض الأحيان لا أزال أخرج باحثةً عن مشكلة ما. في بعض الأحيان أجلس في حانة في الناحية الثانية من المدينة وأطلب جرعةً بعد جرعة، مُحدّقةً إلى شخص ما إلى أن يُبادلني النظر، ومن ثم تبدأ الرقصة – غير أنيقة إلّا أنها زاخرةٌ بسحبها ودفعها. هذه الطقوس بدت مهمةً بالنسبة لي. جعلت من رغبتي غايةً، ساعدتني على أن أستشعر حواشيها وشقوقها. ومع ذلك شكلها تسرّب مني كالماء.

***

الاختيار وهم، قالت المرأة التي تُعيد صبغ شفتيها بأحمر الشفاه بجانبي

في مرآة حمّام عائد إلى حانة ذات مساء. ألم يحدث أن فكرتِ في مسألة كيف تكون الأشياء كلّها عقيمة بكلّ معنى الكلمة؟

***

في حقيقة الأمر لم أقل شيئاً. وحتى إنني الآن أملك كذلك وجهاً من نوعٍ ما حيث تعوّد الغرباء أن يتكلموا معي، متبجحين أو معترفين، كما لو أنني شخصٌ يعرفونه أصلاً. هذه المرأة كانت أجمل مني. كان لديها شعر كالريش حول فكها، فمٌ مطليّ بلون الدم الداكن. ربما كانت ثملة للغاية، وربما كانت شرطية سرية، عُهِد إليها بأن تُرينا كيف تكون صورة امرأة التذكرة الزرقاء، وكيف تبدو، كم سيكون المرء حراً إذا ما عانق كلياً الشيء الذي مُنح له. لم أكن متيقنة إذا ما كان البوليس السري يشتغلون بهذه الطريقة، إلّا أنه كانت لديّ شكوكي. كنتُ أُريد أن أُقبّلها على أية حال، لأني لا أزال أؤمن بالجمال، لأني وددتُ أن تنتقل إليّ عدوى وجهة نظرها الجيّدة، لأني أنا أيضاً مخمورة، لأني لم أكن مقتنعة.

***

كنتُ أشاهد هذا الصنف من النساء في الأمكنة كلّها كلّما بدأتُ أنظر. حسبتُ نفسي من بينهن، وبعدها في يوم من الأيام ظهرن مثل عميلات سرّيات في الخارج كي يبذرن كلمة الاستقلال، كلمة البحث عن اللذة[1] وكلمة الإنجاز. أليس هذا جيداً، قُلن من تحت ستائر مناطق التدخين في النادي الليلي، من المناضد التي جلسن إليها وحيدات، من السيارات وعربات القطار والأسرّة، بعضهن في بذلات أنيقة أو ملابس نظامية أخرى كي يُظهِرن أهميتهن. يقمن بأشياء مؤثرة وقضين أوقاتهن في مساعٍ مفيدة وكنتُ واحدة منهن، والتآزر بدا غالباً كما لو أني طير من سرب من الطيور المحببة إلى القلب تمرّ عبر الفضاء الحار للسماء، وهذا شيء جيد، ذلك هو الشيء، هو شيءٌ جيد للغاية، لكن الآن يوجد شيء يحصل لي، ووجدتُ أنّ لي سيطرة قليلة عليه.

***

1- البحث عن اللذة: في الإنكليزية كلمة واحدة pleasure – seeking–م.

لكن ما هو الخطأ في أن يكون المرء استكشافياً، برّرتُ لنفسي. أن أكون جسورة بكلّ معنى الكلمة في رغباتي. كنتُ أُريد المزيد دوماً، وحسبتُ أنه هذا شيء جيد داخلياً، بحيث إنكِ حتى حين لا تعرفين على وجه الدقة أين تأخذكِ رغبتكِ، مُسايرتها قد تكون مُنوِّرة. تكون تسلية، في أفضل الأحوال.

***

(هل تُريدين أن تكون نهايتكِ الموت؟ سألني أطبائي على مَرّ الأعوام.

***

ليس دوماً، قلتُ. ليس عادةً.)

في بعض الليالي حلمتُ أني حبيسة حجرة مظلمة من دون شبابيك أو أبواب، حجرة لا سبيل للخروج منها، وثمة وجع في وسط صدري، تحت النسيج والعظم، وجعٌ هو جزءٌ مني، مع أنني كنتُ أستاء منه وأخافه.

***

على الطريق طوال هذه الأعوام كلّها رأيتُ شيئاً لا أعتقد أنه من المفترض بي أن أراه. الفتاة ذات التذكرة البيضاء في مؤخرة سيارة تقودها شرطية سرية من مبنى اليانصيب. كانت قد خفضت نافذة السيارة، وقطعة من وجهها مضغوطة على الفجوة. بدت جامحة، إلّا أنني لا أحسب أنها سُرِقت. كانت مصوناً. فكرتُ في أن ألوّح للسيارة وأسأل ما إذا كان بوسعي الدخول فيها أيضاً. تساءلتُ ما إذا كنت أغفلتُ درساً حيوياً، وراقبتُ خطوط السيارة الصقيلة فيما كانت تنزل الطريق، إلى أن غابت عن الأنظار.

***

«لم يكن ذلك عادلاً». في بعض الأحيان أخرج من الحجرة المظلمة التي حلمتُ فيها بتلك الكلمات على شفتيّ، كما لو أنني قلتُها المرة تلو المرة. لم يكن ذلك عادلاً.

***

لمّا فكرتُ في أن أُحطّم حياتي كلياً، وهو الشيء الذي كنتُ أفكر فيه بنحو متزايد في معظم الأحيان، تساءلتُ ما إذا كانت توجد نساء بتذاكر

بيض يرغبن في أن يضرمن النار في حياتهن حتى الأرض أيضاً. كي يكنّ وحيدات وحُرّات، وكي يجدن السعادة في أن يكنّ نساءً بتذكرة زرقاء – لأنّ ثمة سعادة وموضع اعتزاز في ذلك؛ لا يزال بوسعي أن أرى ذلك الاعتزاز كما لو من مسافة ما، كما لو أنني تركتُه في مكانٍ ما، ضوؤه بعيدٌ عني الآن ولا يُمكن الوصول إليه.

***

في محلّها حلّت الرغبات الشديدة الغرابة بحيث لم يكن باستطاعتي إلّا أن أتخيّل أنها كانت في داخلي منذ أمد بعيد جداً، مثل كِسر أو شظايا قنبلة تنتظر أن تُدفَع إلى السطح. رغبات لم يسبق لي أن صادفتُها حتى. على غرار: الإحساس بحَمْل كائن يُشبه طفلاً صغيراً، أو الهمهمة بأغنية من دون كلمات. في السوبر ماركت حملتُ كالمهد كيس قنب يحتوي على السكر، وزنه ستة أرطال، وأعدته إلى مكانه في الحال.

***

أمضيتُ وقتاً طويلاً وأنا أفكر في الأيدي المتجعّدة للأطفال الرّضع، في الحليب الحار. أمعنتُ النظر في الفكرة المتعلقة بشخص يأتي إلى بيتكِ يومياً، في مفهوم أن تحتاجي الآخرين وأن يكون الآخرون بحاجة إليك. فتحتُ زجاجة نبيذ أحمر على غرار أبي، وفي النهاية وصلتُ إلى العلبة المعدنية الصغيرة المُدلاّة في رقبتي ورحتُ أنظر إلى الزرقة غير الملوّثة وأفكر: «تذكرة بيضاء». كنتُ أفكر أنّ خطأً ربما ارتكِب في مكان ما وفي الحقيقة الحياةُ التي انخرطتُ فيها هي الحياة الخاطئة. لم أسلك الطريق، أو بالأحرى الطريق مُغلَق دوني.

***

لم يكن بوسعي أن أُخبر الطبيب أ بما يتصل بأيّ واحد من هذه الأشياء. لم يكن في مقدوري أن أسأله مَن الذي يتسنى له أن يُقرر، مَن الذي كان وراء جهاز مركز اليانصيب طوال تلك الأعوام الفائتة، المغص الحاد لذلك النزيف الأول يلوي بطني كما لو أنه جورب رطب.

***

لم يكن بمستطاعي أن أسأل أيّ فرد. كان أشبه بمعركةٍ بيني وبين رغبتي: النزف لزج مثل قشرة حبة فاصوليا، أنا وهو وحدنا في الليل، ومع القمر الذي يشع إلى الأسفل، والطريق المرئي الوحيد هو الطريق الممنوع عليّ بكلّ معنى الكلمة.

***

ومع ذلك أردتُه، أردتُه، أردتُه.

المنزل

الفصل الأول

ثمانية عشر عاماً بعد اليانصيب. وقفتُ في حمّام بيتي، شاحبة كالحليب، أُقابل نظراتي في المرآة من دون تذلّل. على الأرضية في أسفل المغسلة كانت هنالك زجاجة فودكا من البرّاد، وقدح، وملقط وكمّاشة صغيرة. إسفين من الليمون على حافة الكأس. لم أكن أرتدي سوى ملابسي الداخلية، حمّالة صدر بيضاء قطنية وسروال قصير، ملتصق بي ومُبلل بالعرق. سكبتُ جرعةً أخرى، ووضعتُ فانيلّة مطوية في فمي كي أعض عليها. أحنيتُ جسمي، ووضعتُ يدي برقة في داخل نفسي[1]، وتهيأتُ. كنتُ مندهشة باستمرار عند الأمكنة التي يرغم فيها عقلُكِ جسدَكِ على الذهاب إليها. لم يكن يبدو شيئاً ممكناً بالضبط أن يستطيعا (أيّ الجسد والعقل) أن يعملا في تضاد كهذا، إلّا أنه في وقتها الدليلُ موجود في الأمكنة كلّها.

***

على مدى أسابيع كان هنالك إحساسٌ جديد وكئيب في داخلي. شبحٌ غريب، مُدمّر أورثني حالات صداع مُتكررة في صدغيّ، وحتى إنه كانت تزداد جرعته مع الصِبغات الإضافية التي وصفها الطبيب أ، النقط الثلاث الحلوة على الوريد الكائن تحت لساني، لم تفعل شيئاً. كانت نوعاً من رغبة لم تكن تبدو مختلفةً جداً عن الرغبات الأخرى في أول الأمر، لذا لم أرَ الأذى في تنميتها. تعوّدتُ على الرغبات التي كانت فطرية، إلّا أن هذه الرغبة مضت شوطاً أبعد نوعاً ما. لم أكن أعرف أني قادرة على توقٍ كهذا، أو حزنٍ كهذا. في الحمّام ويدي في داخل نفسي عرفتُ أني أستسلمُ لها، أتبعُها إلى

1- داخل نفسي inside myself: أيّ في داخل عضوها التناسلي الأنثوي-م.

الأجزاء المجهولة من ذاتي. سوف تأخذني إلى مكانٍ ما لا أستطيع الرجوع منه، وقد رحبتُ به، خائفة قليلاً إلّا أني مبتهجة في الأغلب، كما لو أنني أتأهب للغطس في مساحة مفتوحة من الماء.

أناملي مسّت برفق سلك ولحم نفسي. كان هنالك شعور بالخطأ الجوهري، مثل صدمة كهربائية، وأدركتُ أني بحاجة إلى الملقط. آ أرجوك آ أرجوك، قلتُ بشكلٍ صامت، متوسّلة إلى شيء لا أؤمن به. كانت الفانيلة لزقة ببصاقي. محاولةٌ ثالثة، هذه المرة مع الكلاّبة النحيفة التي استعملتُها بشكل رئيس من أجل الوظائف المنزلية الصغيرة. مغسلة مهشمة، مزلاج رخو. كنتُ أعتني بنفسي. كنتُ في موقع ما. في داخلي، شيءٌ ما تفكك وقد سحبتُه. انزلقت يدي. جررتُ السلك وكان قصيراً للغاية، عظم ترقوة طير. ولمّا رميتُه على الأرض انبثقت منه قطرات دم على الآجرات البيض[1]. مزيد من الفودكا، انسكب من الزجاجة إلى الفم، معدتي تُزبد. شيءٌ سهل، شيءٌ سهل، قلتُ لجسمي، كما لو أنه حصان خائف. الأسوأ انتهى الآن.

1- في الجمل السابقة تسحب كالا جهاز منع الحمل (السلك) من داخل رحمها بواسطة ملقط، وخلال هذه العملية تنبثق قطرات دم. هذا الجهاز يُسمى بالإنكليزية IUD، اختصاراً لـ Intrauterine device، وعادةً ما يكون بشكل الحرف(T)، ويُصنع من البلاستك والنحاس. يُسمى غالباً coil أو copper coil، أي (اللولب) أو (اللولب النحاسي)، وهي التسمية الشائعة في بلادنا، وربما في بعض بلداننا العربية الشقيقة. وهذا الجهاز يحمي من الحمل مدةً تتراوح بين خمسة إلى عشرة أعوام-م.

الفصل الثاني

كنتُ قد زرتُ الطبيب أ طوال خمسة أعوام بحلول تلك اللحظة. وفي يوم من الأيام دخلتُ في أثناء أحد مواعيدي المألوفة كي أجده جالساً على الكرسي المائل كما لو أنه كان هناك على الدوام. ما من أحد باستطاعته أن يُخبرني بما جرى لطبيبي السابق. إلّا أن الطبيب أ هو طبيبي الثالث، وطبيبي المفضل، إذا ما قلتُ الحقيقة.

***

الطبيب هو نوعٌ من أُمّ، الطبيب أ أخبرني خلال جلستنا الأولى، وضحكتُ لأنّ ذلك شيءٌ مُضحك وحقيقي في آن. هذا هو نوع المريض الذي سأكونه، إنكَ تعرف هذا بالضبط، قلتُ له.

***

استمع إليّ الطبيب أ جيداً، إلّا أنه لم يكن خائفاً من التحدّث. في بعض الأحيان كنتُ أتمنى أن يكون خائفاً أكثر من التحدّث. إنه شيءٌ مفيد لك، قال لي. إنه شيءٌ نافع لك أن تسمعي الأشياء التي لا ترغبين بسماعها. ملأ قناني صغيرة (ڤيالات) بدمي لأغراض مُبهمة ولاحظ التقلّبات التي طرأت على وزني وضغط دمي. أومأ برأسه وأعطاني الوصفات مكتوبةً على ورقة صفراء كنتُ أحشرها تارةً وطوراً أُجعدها في كرة وأضغطها في حاويات حمّام العيادة الطبية، تحت المناديل الورقية المُستعملة، بحسب طبيعة الشعور الذي أحسه في ذلك اليوم. في بعض الأحيان أطلب حبوباً معينة إلّا أنه كان يرفض دوماً ويخاطبني قائلاً، «محاولة لطيفة! إن كنتِ تُريدين شيئاً ما عليكِ أن تسلكي طريقاً ملتوياً». كنتُ أختلق الأعراض، في محاولة مني لخداعه.

***

أوه، إنكِ تُريدين الحبوب الخضر، يقول لي، وهو يربت بقلمه الحبر على مفكرته بطريقةٍ أذهلتني. كانت له يدان جميلتان غاية الجمال، مع أنني حاولتُ ألّا أنتبه كم كانتا جميلتين. لم أشأ أن أتفحص تلك الأنواع من المشاعر كثيراً جداً، إلّا أنني كنتُ أتذكر لمّا يقترب مني أو يبدو مُلائماً ذلك أنّ بعض النساء يمارسن الجنس مع أطبائهن كي يحصلن على تقرير إيجابي، أو فقط لأنّ التحوّل[1] لم يعد بالإمكان مقاومته. التحوّل مُغرٍ، يتعين عليّ أن أعترف، مع أنني لم أنم مع طبيبي، وكنتُ فخورة بذلك.

***

في معظم الأحيان، أيضاً، لم أفكر كثيراً في الطبيب أ. كان فقط جزءاً من روتيني، مثل دورات سباق الصباح حول الحديقة في وسط منازلنا، بعناية نتتقد بقسوة العداءات الأكثر بطئاً. أنا والنساء الأخريات نلبس سراويل قصيرة متشابهة من النايلون، علبنا المعدنية الصغيرة المُدلاّة من أعناقنا ترتطم بالضبط في الأمكنة التي تخفي فيها أضلاعنا قلوبنا. «مرحباً»، نقول غالباً، غير أننا في أكثر الأحيان نبقى صامتات. كنا نُقيم خارج قلب المدينة، مُحاطين بطرق ذات عُقد. كان من الصعب أن ينام المرء بسبب حركة المرور لمّا انتقلتُ إلى هناك أوّلَ مرة، لكني الآن أحتاج إلى صوت حركة المرور تلك، النوافذ مفتوحة على وسعها للضوضاء البيضاء.

***

بعد كلّ عدو أمشي المسافة الطويلة بعض الشيء متجهة إلى المختبر الذي كنتُ أعمل فيه، معطف المختبر العائد لي في حقيبة ظهر من النايلون. كانت هنالك راحة في معرفة أني أنتقل صوب مكان ذي إمكانية تكهن تامة. وفيما أنا أمشي أدخن سيجارتين على وجه الدقة وأشرب القهوة من دورق سيراميك أبيض. أظافري معضوضة في الصميم ولم يكن بمقدوري أن أضع صبغ الأظافر بسبب عملي. كلّما مضيتُ في عمق المدينة يلتحق بي مزيدٌ من

1- التحوّل transference: وهو موقف ينقل فيه الشخص الذي يتلقى العلاج أفكاره وعواطفه التي كوّنها حيال فرد ما إلى فرد آخر، وبخاصة الشخص الذي يُحاول أن يُعالجه-م.

الناس، رجالاً ونساء يمشون أمامي أو خلفي، يدخنون سجائرهم ويشربون من دوارقهم. أتوقف خارج المختبر كي أسحق عُقب السيجارة الثانية في جدار حجري وأُعيد ربط شعري. الشريط المطاطي ملوي مرةً، مرتين. لا ينبغي لكِ أن تدخلي، بدأتُ أحدّثُ نفسي، بلطف، إلّا أنني بالطبع كنتُ أدخل على الدوام.

الفصل الثالث

في أيام الجُمع حين يكون كلّ عمل الأسبوع قد أُنجز، وتُغلَق المواد الكيماوية الخطيرة بإحكام، المُشرفون علينا يجلبون زجاجات نبيذ داكنة. نشرب معاً من أقداح بلاستيكية سميكة رخّمت الضوء، جالسات على مصاطب منظفة بالمسح ونهز أرجلنا. كان ذلك جزئي الأثير من اليوم، من الأسبوع. كنا ننتظره طوال مدة ما بعد الظهر. كان النبيذ مُغذياً كالحساء، داكناً وقوياً في أفواهنا، وكان بوسعي أن أحسّه مفيداً لي من الرشفة الأولى، يُحرّك الدواليب، يُنشط البرّية أو يُخمدها.

***

بدّلنا ثيابنا في الحمّام وارتدينا ثياب الخروج. كان ردائي المُحكم[1] قد انسل أصلاً. كانت تلك الملابس تنسل[2] على الدوام. كانت آجرات الحمّام خضراء قاتمة وحواشيها بيضاً، والأضواء ضعيفة. في صورنا المنعكسة، التي ارتدت إلينا من المرآة الطويلة، من المغسلة الفولاذ الضخمة، كنا ننتمي إلى الليل. النافذة الصغيرة في موضع مرتفع من الحائط سمحت بدخول قطعة من السماء حيث كانت بلون لازوردي، عميق.

***

انقضى الزمن الذي كنا فيه صبايا. الزمن الذي كنا فيه صبايا انتهى وصار ميتاً بالنسبة لنا جميعاً. لم نفتقده. في محلّه، يُمكن أن يحصل أيّ شيء. تخيّلنا

1- الرداء المُحكم tights: ثوب ضيق يلبسه الراقص أو البهلوان-م.
2- تنسل ladder: نقصد هنا ضرراً مفاجئاً يحدث في الجوارب أو الرداء المُحكم، بحيث يظهر فيها ثقب طويل رفيع-م.

جماعات تنتشر هنا وهناك في المدينة، أشخاصاً شاءت الأقدار أن نقابلهم منتظرين إيانا في بُرك ضوء الشارع، في أمكنة قلّما توقعنا أن نجدهم فيها. لو كنتِ ذات تذكرة زرقاء فحياتكِ بوسعها أن تتغيّر في أيّ وقت، بمستطاعكِ أن تجعليها تتغيّر في أيّ وقت، وكنا راضيات عن أنفسنا وقلقات بالتعاقب فيما يتصل بالاحتمالات التي تحتويها تلك الحرية.

***

بعد أن رتبنا شعرنا كلّ واحدة منا ساعدت الأخرى فيما يتصل بتبرّجنا، تقاسمنا أحمر شفاه فيما بيننا كما لو كان سيجارة ومن ثم تقاسمنا سجائر حقيقية فيما بيننا بعد ذلك، ماشيات نحو الحانات، وما زلنا نمرّر زجاجة النبيذ من يد إلى يد. أملتها إلى السماء وشربتُ بعمق. سال شيءٌ قليل من النبيذ على ذقني ومسحتُه بأصابعي. أحببتُ الطقس، طبقة الكحول الرقيقة جداً على شفتيّ، رائحة رشاش الشعر، كيف رفعت كلّ واحدة منا شعر الأخرى كي نرش العطر على الجلد الناعم في الموضع الذي يلتقي فيه العنق بالفك. وحتى إنني أحببتُ كيف أنني غالباً كنتُ أهوي أرضاً قبل وصولنا إلى الحانات، الحاجز الحجري للطريق يصعد إلى السماء، وصديقاتي يهرعن إليّ كي يسحبنني ويُعدنني إلى وضعي الطبيعي، ركبتي مسلوخة ربما، قصبتا ساقيّ أُصيبتا بكدمات دائمة. ما من حُكم. إعادتي إلى حالة الوقوف التي ينبغي أن أكون فيها.

***

كان هنالك رجل في الحانة الثالثة التي مضينا إليها، يحتسي البيرة من كأس غير مُعلّمة. كان أطول مني بأكثر من رأس وهذا هو الشيء الأول الذي لاحظتُه، والشيء الثاني هو كتفاه العريضتان والمنحنيتان قليلاً بالقماش الأسود، كتفا شخص لطيف، كما لو أنه يعي الحيّز الذي يشغله جسمه، جسم رجل ضخم، وما دام هو غير تبريري بسببه، لم يكن يمشي بطريقة غافلة في أرجاء العالَم. «هذا يفي بالغرض»، فكرتُ.

***

النساء الأخريات تناقص عددهن. أنا وهو شربنا كوكتيلات صغيرة، بلون

العسل أرسلت هالات من الدفء في عتمة البار. اسمه (ر) وكان يكبرني سناً، إنما لا يكبرني كثيراً جداً. دفع ثمن الكوكتيلات بتباه. ثمة لفة من الأوراق النقدية دُست في جيبه الخلفي، قميصه مقصور باللون بالأبيض. كان من الصعب ألا أتعلّق به. بعدها بوقت طويل، لمّا انتقلنا إلى طاولة في إحدى الزوايا، ولما أصبحنا ثملين، ثملين جداً، أريتُه التذكرة الزرقاء في علبتي المعدنية الصغيرة المُدلاّة في رقبتي، إنما على مدى ثانية واحدة ليس إلا. فتحتُها بطقطقة ومن ثم أغلقتُها، مثل فم جائع. بعض الرجال يُمكن التملّص منهم، إنما ليس هو. نقر قطعة صغيرة من مادة موضوعة تحت قدح البيرة[1] بين أصابعه. حسناً، قال. أُفضّلها هكذا.

تناولتُ ملء الفم من المشروب الذهبي كي يمنعني من قول أيّ شيء طائش. وضع يده على ركبتي وتركها هناك. برزت رغبةٌ في داخلي مع رفسة، نبضة قلب محذوفة. كلّ زميلاتي غادرن ولم أنتبه إلى ذلك حتى. خارج الحانة جمعني في ركن مُظلم وانهال عليّ. قبّلني بقوة في فمي ووضعتُ أصابعي عبر حلقات حزامه وجذبتُه إليّ على مدى ثانية، بضع ثوان، قبل أن أُبعده عني، كلتا راحتيّ على صدره، ومن ثم رحتُ أركض إلى محطة القطار في الشارع المغطى بالمطر، مبتهجة، جسمي مليء بالإحساس الكئيب، من دون أن ألتفت إلى الوراء، مع أنني أعرف أنه سوف ينظر إليّ.

***

كان الإحساس الكئيب في حينها شيئاً سائلاً، وامضاً، مثل بركة دم أو مثل الأوبال[2] الأسود. كان نوعاً من السعادة العارمة، وهذه هي أفضل صورة يُمكنني أن أفسره فيها. بكيتُ فيما كنتُ أنتظر قطاري، غير أني لم أكن حزينة.

***

في الطريق نحو البيت كان القطار مُنوّراً إلى حدّ كبير وكان ثمة شخص

1- في النص الإنكليزي الأصل beer mat: قطعة صغيرة من مادة تُوضع تحت قدح البيرة كي تحمي البار أو الطاولة التي تحته. وحتى في بيوتنا نستعمل هذه القطع تحت أكواب القهوة، مثلاً- م.

2- الأوبال opal: حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً-م.

آخر فيه، امرأة ذات شعر أحمر وتنورة طويلة، وبقعتا لون في أعلى عظام وجهها، نظرت في وجهي مباشرة وبعدها وقفت ومشت في عربة القطار كي تجلس في موضع آخر، وفكرتُ أنّ ضعفي ربما هو الذي جعلها تنفر مني، وأنها شعرت به في داخلي ولم ترغب بأيّ جزء منه. أو ربما أننا كنا مجرّد امرأتين ثملتين في قطار وأرادت أن تتركني وحدي.

***

لذا بدلاً من ذلك تبادلتُ النظر مع عينيّ في النافذة، الظلام التام فيما كنا نمر عبر أحد الأنفاق، وكان وجهي شاحباً ومسلولاً، وشعري مشوّشاً، ولما دخلتُ البيت مشيتُ مباشرةً إلى غرفة نومي واستلقيتُ على الفراش بكامل ملابسي، وفي فمي مذاقٌ غير واضح. وعرفتُ حق المعرفة أيّ نوع من النساء أنا، ولم أكن أريد أن أكون تلك المرأة بعد الآن -ليس ذلك النوع من النساء الذي تبتعد عنه في القطار، ولا من نوع النساء الذي يسمح بأن يُقبّله الغرباء، بفظاظة، حيث وُضعت الزجاجات الفارغة من الليل في صناديق- وفكرتُ مع نفسي «أرجوكِ»، فكرتُ «أرجوكِ، أرجوكِ، أرجوكِ»، كالتعويذة، إلى أن غلبني النوم.

الفصل الرابع

الذكريات العائدة للأجزاء الأبكر من حياتي لم تأتِ إليّ في أثناء جلساتي مع الطبيب أ، ولم تأتِ إليّ حتى حين عتّم الحجرة ووضع يده على رأسي كالمشعوذ. كلّ ما فعلتُه هو أني فرزتُ عَرَقاً إلى أن باتت عيناي تلدغانني وجلدي أصبح مبتلاً.

***

أخبريني برحلتكِ إلى المدينة، سألني الطبيب أ، وهو يُقلّب ملحوظاته. الرحلة التي بدأتِ بها حياتكِ.

***

محاولة لطيفة، جاء دوري كي أقول.

***

لم أكلّمه عن ذلك. ولم أكلّمه حتى عن انقضاض الخفافيش، عن صوتها، صوت حكّ الأظافر، الذي لا يزال مسموعاً تماماً بالنسبة لي في ذلك الحين. ولا عن مراقبة مجموعة من الضفادع الشديدة الصغر تركض عبر الشارع في وقت مبكر من صباح يوم ما طوال عشر دقائق كاملة، أدركُ الأهمية الحقيقية لنجاتي من خلال مقارنتها بشيء آخر. كان يتعين عليّ أن أتمسك ببعض الأشياء. لم تكن تلك الأشياء مهمة بالنسبة لأيّ فرد سواي. لم تكن تحتوي على لُغزٍ كي يُفَك، لم تكن مهمة سريرياً. كانت حاضرة هناك لا غير.

***

هل حصل أن فكرتِ أنكِ قد تكونين من الصنف الذي يُمكن التلاعب به

كثيراً من ناحية المعاملة؟ سألني الطبيب أ، بسرور، كما لو أنه كان لي خيار فيما يتصل بزيارته. بادلني النظر.

***

أعني، مَن الذي لا يُمكن التلاعب به من ناحية المعاملة، أجبتُ، بسرور مساوٍ. هذا هو نوعٌ من الاتفاق كنا قد أسسناه. نزع نظارتيه.

***

تبدين غير مستقرة، قال لي. إنكِ تُفرطين في الشرب لأنكِ في غاية الاكتئاب. تعرفين أنّ الجسم يمتلك حلقات ردّ الفعل الخاصة به. وتعرفين أنكِ تحثينها عبر أفعالكِ السلبية. إنكِ تجعلين الأشياء أسوأ فأسوأ. وبعدها ماذا يحصل؟

***

أنتَ تُخبرني، قلتُ.

***

كان الطبيب أ في واحد من أمزجته الحازمة. تمنيتُ أن يكون باسماً ومُتسامِحاً بدلاً من ذلك. تمنيتُ أن يعطيني واحدة من أقراص النعناع المُخطَّطة باللون الأحمر في الصحن الزجاجي على طاولة القهوة الواقعة بيننا. كانت النافذة مفتوحة بمقدار ثغرة وباستطاعتي أن أسمع حركة المرور خارجاً في البُعد، تمتمة فيما وراء السكون الاستثنائي. دوّن شيئاً ما في كرّاسته. راقبتُ جهاز الإملاء فيما هو يدور، يسجل كلّ كلمة أقولها، كلّ كلمة حدث أن قلتُها له في هذه الغرفة الخضراء المُضاءة، وأحسستُ بأني خائرة القوى، ومُعلّقة.

***

كآبتي مضى عليها زمنٌ طويل، قلت. كآبتي جلدٌ خلعتُه.

***

الكآبة دورية، قال لي. لا تدعي قلبكِ يُصبح مُطمئناً. لن تكوني مُحَصَّنة من الكآبة أبداً. لا أحد يكون مُحَصَّناً من كآبته.

***

في بعض الأحيان يكون تمرّسنا كاللعبة الرياضية. استمتعتُ وأنا أحاول أن أنتصر عليه، مع أنني أعرف أنه ليس في مقدوري أن أفعل ذلك. وغالباً أرتخي في الوسط مثل فراش قديم، وبكلّ معنى الكلمة لم يكن باستطاعتي أن أتحمّل أكثر.

***

رفع بصره ناظراً إليّ. أنتِ شديدة الشحوب، قال لي. باستطاعتي أن أقرأ مزاجكِ في جلدكِ. فكري فيما يُخبركِ به جسمكِ.

مرّر إليّ منديلاً ورقياً وأمسكتُ به في قبضتي، وسمحت لعينيّ أن تسكبا الدمع قليلاً.

***

هذا شيءٌ حسن، قال لي. أخرجيها منكِ. سلّمني قصاصة الورق. أراكِ يوم الخميس القادم، قال لي، وبعدها انتهت الجلسة وتقريباً ركضتُ خارجاً متجهةً صوب السيارة، وضغطتُ رأسي على عجلة القيادة ما إن أحسستُ أني بأمان في الداخل.

الفصل الخامس

أولَ مرة جلبتُ (ر) إلى البيت الأبيض المنخفض في الضواحي، كنتُ أعرف أنّ سائر جيراني سيكونون عند شبابيكهم، يراقبون، متأهبين لأن ينخسوني في جانبي لمّا يشاهدونني خارج البيت أو في المرج في الأيام القادمة.

***

رجلٌ طويل لطيف، سوف يقولون. ماذا جرى للرجل السابق؟

***

في المطبخ سكبتُ جزأين متساويين من الفودكا والعصير، كي أُسرّع الأشياء. ثمة مظلات في جانب كؤوس الخمر من أجل الرومانس. أضع الباقة الصغيرة من نبات الفريزيا التي جلبها لي في زجاجة الفودكا الفارغة الآن، وأغسلها. في حجرة المعيشة نزع ربطة عنقه وسترته ووضعهما بعناية على مؤخرة كرسي خشبي. أحببتُ سلوكه، الانتفاخ اللطيف لذراعيه، ولمّا تناول الشراب أحببتُ بسمته أيضاً. تمنيتُ أن يمرر هذه الصفات كلّها إلى طفلنا. هذه الفكرة جعلت قلبي يتجمد رعباً.

***

تحدثنا هنيهةً عن العمل. سألني عن التجارب التي كنتُ أشتغل عليها وقلتُ إنها تجارب خصوصية، وهذا بالأساس كذبة، إلّا أنني لم أشعر بالرغبة في التحدّث عن نفسي. كان يعمل في واحد من المباني الزجاجية العالية في الجانب الآخر من المدينة ويُقيم بالقرب من مكتبه في مبنى مُشابه، آخر. وفيما هو يشرح لي عن طبيعة عمله كان نابضاً بالحيوية

ووسيماً، غير أنه لم يكن بوسعي أن أنتبه كما ينبغي، لم يكن بمستطاعي أن أَدَعَ ثانيةَ أخرى تمرّ. مضيتُ إليه وجلستُ في حضنه وقبّلتُه. أوه، قال لي، وهو يطوّقني بذراعيه.

***

أخذنا جرعاتنا الثانية إلى غرفة النوم. أصبح في الحال عملياً ومُغرياً فيما هو يفك الأزرار ومن ثم جرف الفستان من بدني، إعجابٌ خاطف، وسحب واقياً في غلافه المعدني الصغير من محفظة الجيب العائدة له قبل أن تمضي الأشياء شوطاً بعيداً جداً. وضعه على الطاولة المتاخمة للسرير.

***

لم يكن يتعين عليكَ أن تقوم بذلك، قلتُ له.

***

سوف أفعل، سوف أفعل، قال، بشهامة، وهو يخلع قميصه.

***

كان جزءٌ مني خائفاً من كونه سيدرك بشكل من الأشكال الإحساس الكئيب في الموضع الذي يتحرّك فيه تحت جلدي. في بعض الأحيان قبل أن أخلد إلى النوم أضع يديّ على بطني وأشعر بنبض عميق كنتُ متيقنة من أنه لا بد أن يكون تجليه المرئي، إلّا أنني لمّا قرأتُ عن هذا، سرّاً، تبين أنه مجرّد شريان أبقاني على قيد الحياة.

***

حاولتُ أن أكون مُتزنة إلّا أن ذلك لم يكن مُمكناً في حقيقة الأمر. لم أتمالك نفسي عن مسألة كوني شخصاً ذا شهية. مرة واحدة أو مرتين كان هنالك تهديد الدفء، الارتباط، حين قبّل جانب رأسي، ولم أكن أُريد أن أميل إلى ذلك، إذ عرفتُ أن الميل إليه سوف يجلب مشاكله الخاصة. ظلّ طوال الليل ولم يُزعج نفسه مع الواقي في المرة الثانية، أو في المرة الثالثة حين نهض من النوم. كان الفعل نفسه قوياً، على غرار القيام بالتمارين الرياضية في الهواء الطلق. تالياً أحسستُ أني سعيدة وراضية، بدلاً من أن

أكون متوَعّكة وحزينة. وفي الصباح غادر مبكراً ولم أكترث على الإطلاق، آثرتُ أن يكون الأمر بتلك الطريقة.

***

لكنه بعد أن غادر وجدتُ نفسي غير مستعدة للعمل، وبدلاً من ذلك رحتُ أملأ جورباً بالطحين كي أقارب وزن رِجل طفل صغير مع الإحساس بها. لم يسبق لي أن أمسكتُ برِجل طفل صغير بيدي، إلّا أن قلبي عرف أنّ الإحساس يأتي لاحقاً. كنتُ قد شاهدتُ صوراً فوتوغرافية.

***

أستلقي منبطحةً على أرضية حمّامي، أفكر في الفكرة الممنوعة التي مفادها «أني أُريد أن أموت»، مع أنني لستُ متأكدة من كونها فكرة صحيحة. الصحيح والخاطئ لم يعودا ثنائيين مُتضاربين. جسدي يتحدّث إليّ بلغةٍ لم أسمعها من قبل.

***

عرفتُ موضوعياً أنك إذا ما أردتَ للهب حياتك الصغير أن يفعل شيئاً ما باستثناء ما مُنِح لك هو شيء مستحيل، لكن هي ذي أنا على أية حال، أفعل ذلك. لم أكن أعرف ماذا فعلوا بالنساء اللائي أصبحن حوامل بطريقة غير مشروعة، مع أنني أعتقد أنه لا بد أن تكون هناك نساء أُخريات، إذ لا يُمكنني أن أكون المرأة الحامل الوحيدة. هل إنّ الأمومة شيءٌ يُمكن أن يتوقف عند إصدار الأمر، شيءٌ باستطاعتهم أن يُجبروكِ على إخراجه ما إن يكتشفوه؟ هل إنّ الأمومة شيء عليكِ أن تُدركي حقيقته من غير اعتبار للعوائق؟ لم أعش حياةً تتسم بسوء تام، وأُريد أن أؤمن أنّ هذا من المحتمل أن يُحدِث تغييراً، غير أنني عرفتُ أنه لن يفعل ذلك. ما من سبيل لأن تُغيّري تذكرتكِ.

***

لمّا جرّبتُ الكلمات التي مفادها «أني حاولتُ ألا أُريد ذلك إلّا أنني لم أتمالك نفسي»، هذه الكلمات بدت جيدة جداً بحيث إني قلتُها من جديد، وثانيةً من جديد. أرجوكَ تذكّر أني لستُ باقيةً على قيد الحياة، أو أني

شخصٌ صالح بنحو غريزي لكوني حية. أرجوك افهم أنّ كثيراً من الأخطاء قد ارتُكبت، وبعض تلك الأخطاء كان ضرورياً.

***

رجلٌ طويل لطيف، قالت جارتي لونا في الدقيقة التي مضيتُ فيها إلى الخارج. باتت تمشي إلى جانبي وأشعلت سيجارتها، وقدّمت لي اللهب كي يكون باستطاعتي أن أشعل سيجارتي. ماذا جرى للرجل السابق؟

***

قتلتُه، لونا، قلتُ لها. إنه مدفون تحت شجرة التفاح. احفري التربة إن لم تصدّقيني.

***

أستنشق. أزفر. استراحة صغيرة من الهمّ. رغبتي تصدّعت وانفتحت. الآن ينبغي لي أن أنظر في الداخل وأرى ماذا يحتوي. لقد مضيتُ الآن حقاً وفعلتُها.

***

قهقهت لونا. أوه، أنتِ مُروِّعة، أليس كذلك!

***

وافقتُها الرأي. نفختُ الدخان خارجاً في الهواء.

الفصل السادس

أتيتُ باكراً إلى درسي، درس الألعاب الرياضية المائية، لذا اشتريتُ كوباً بلاستيكياً من العصير الخفيف وجلستُ في المقهى. من طاولتي لم يكن باستطاعتي أن أرى دورة تعليم السباحة المخصصة للأطفال، وكان الأطفال الصغار يقبلون من سائر الأمكنة في المدينة، الضواحي الطيّعة أكثر حيث احتشدت نساء التذاكر البيض وأُسرهن، إلّا أنه كان بوسعي سماع ضجيجهن الفاجع. امرأةٌ أخرى لا أعرفها لفتت انتباهي وابتسمت بسمة عريضة لدى سماعها الصوت.

***

يا لها من جلبة، قالت.

***

نعم، وافقتُها الرأي.

***

من المُفرِح أنه لا ينبغي لي التعامل مع «ذلك»، قالت المرأة. عادت بهدوء إلى مجلتها، إلى فطورها. رفعت إلى فمها قطعة من الخبز المُحمّص نشرت عليها بنحو مُتقن زبد الفول السوداني. بدت سعيدةً فعلاً. جلدُها ناعم، ملابسُها بدت غالية الثمن. تساءلتُ ماذا يُحتمَل أن تفعل تالياً بيومها، في المكان الذي تعمل فيه، وما هو شكلُ بيتها، ما إذا كانت مُقيّدةً بشخصٍ ما أو بشيءٍ ما، ما إذا كانت مُمتنة لحريتها.

***

ربما بدا يومها شبيهاً بيومي. قبل مجيئي إلى الدرس أمضيتُ بعض الوقت في ورقة ممتعة من أجل العمل، دعكتُ الحمّام، من الأرضية إلى السقف، بقاصر مُخفَّف، لذا أصبح كلّ شيء نظيفاً بالطريقة التي أحببتُها. ولاحقاً أحببتُ أن أركع على ركبتيّ وأزحف هنا وهناك بحثاً عن (ر) في حجرة المعيشة، هناك تحديداً من المحتمل أن يكون ثمة طفل صغير، في عالَم آخر، يخبط ويلتقط الأشياء كي يمضغها. نشرب ال ڤيرموث المتخيّل ولا يهم ما إذا كنت شربت ما يكفي كي أتقيأ، ما إذا كنت شربت ما يكفي كي أدمّر اليوم التالي، لأنه كانت ثمة أيام وأيام بعد ذلك، أيامٌ لا نهاية لها لم تكنْ مُعلّمة إلا بخيارتي. مشيتُ إلى محطة القطار وثمة نابض في خطوتي. زمني يعود لي، حياتي هي مُلكي أنا فحسب.

***

الآن، وأنا أسمع جلبة الأطفال، تبَخّر ذلك كلّه. مُنبه، رد فعل. غرزتُ أناملي في راحتيْ يديّ ودلقتُ العصير في جوفي. إلّا أنني تحاشيتُ الدموع – في الوقت الحاضر تعوّدتُ على هذا الاقتحام قبل أن تبدأ دوراتنا التدريبية في بركة السباحة. إنها قضيةُ إزالة الحساسية. تضخمَ الإحساس الكئيب في صدري كالبالون.

***

قريباً من الماء، حين غيّرتُ ثيابي ولبستُ بذلة نايلون (الليكرا) السوداء، شاهدتُ عدداً من الأطفال يتوانون في بركة السباحة. كانوا صغيري الحجم إلى حدّ كبير. كانوا يضحكون ويضحكون. الكلور أثّر على مؤخرة حنجرتي. نسيتُ شيئاً ما، قلتُ للأخريات في صفي، ورجعتُ إلى حجرات تبديل الملابس، إلى الحمّامات المشاعية، وقرفصتُ هناك ورحتُ أضرب زر الماء بيدي مثلما فعلتُ كي أُخفي صوت نحيبي. وفي الوقت الذي استعدتُ فيه رباطة جأشي، كانت سائر النساء الأخريات في المسبح.

***

كان حارس الإنقاذ[1] على كرسيه الأحمر في انتظاري كي أدخل اليمّ،

1- حارس الإنقاذ lifeguard: سباح محترف مُكلّف بإنقاذ السابحين عند تعرّضهم للغرق-م.

أيضاً، قبل أن أضغط الزر الكائن على المسجل الشريطي. رنّت الموسيقى. حرّكتُ ذراعيّ إلى الأعلى، ومن حولي، وخفضت جسمي إلى الأسفل. النساء رقصن على أصابع أقدامهن بجواري، وشققن طريقهن في الماء مُطلِقات رشاشاً. قطرات الماء تناثرت بأقواس مُنظمة سَلِسة. ولمّا غدوتُ تحت السطح كان بوسعي أن أرى أطرافهن حولي من الجهات كلّها. كنتُ كما لو أنني في جوف حيوان غريب. وحين انتصبنا واقفات في النهاية كي يُهنئنا حارس الإنقاذ، كان الماء يتدفّق من أجسامنا وكنا نحس بالبرد، تحت السقف العالي والمعقود؛ لم نحس أننا وحيدات، لم نكن وحيدات.

الفصل السابع

الثقة هي جزء مُكمل لتمرّسنا، قال الطبيب أ. صدّقيني، إني أعرفكِ أفضل مما تعرفين نفسكِ.

***

لم أشأ أن أفعل ذلك بالضرورة، إنما كان هنالك ارتياح معين في أن أُسلّم نفسي إليه. كان هنالك ارتياح في أن أنال الموافقة، بالطريقة نفسها التي كان فيها ارتياح في معرفة أنّ هنالك بعض الدروب لن تسلكها حياتي.

***

أخبرته ذات مرة كيف فكرتُ في مسألة أن أُصبح طبيبة أنا نفسي، وضحك عليّ. قال لي إن مسألة أن يُصبح المرء طبيباً تتطلّب فرداً من طراز خاص، وهذا، مع كلّ الاحترام المطلوب، أني لستُ فرداً من ذلك الطراز، إلّا أنني عرفتُ ذلك أصلاً، أليس كذلك؟

***

في سبيل المثال، قال لي إنه زرقني بمحلول أوقف قلبي طوال عشر ثوان. كجزء من تدريبي. كي أستطيع أن أموت تقنياً ومن ثم أعود إلى الحياة.

***

كي يكون باستطاعتكَ أن تحس أنكَ أعلى مقاماً منا؟ سألتُه.

***

كي يكون في مقدوري أن أفهمكِ وأساعدكِ، فعلاً، ردّ عليّ.

***

أُلفة نادرة، وسط التفاعلات المُخطَّط لها من أجل تقريب الألفة. كان يعرف أنّ تلك هي نقطة ضعفي، وأني رُفضتُ ومُدِحتُ في آن حين سَمح لي بأن أدخل. لم يكن بمستطاعي أن أقاوم.

***

ماذا رأيت؟ سألتُه.

***

لم أرَ شيئاً، قال لي. كنتُ كما لو أنني في حجرة جميع ستائرها مُسدَلة. لم أنسَ ذلك. إنكِ لا ترغبين في أن تكوني في تلك الحجرة.

***

لكن ماذا لو أنني كنتُ أصلاً في تلك الحجرة؟

***

في اعتقادي أنه ابتسم لدى سماعه سؤالي ذاك، غير أنّ شعر وجهه الضارب إلى الاحمرار كان أطول من المعتاد، وحجب معظم فمه، لذا من الصعب أن أجزم أنه ابتسم. كان بوسعي أن أرى أنه بدا مُتعباً. من الصعب أن أُحدّد عمراً مُعيناً للطبيب أ، إلّا أنني في ذلك اليوم قدّرتُ عمره في نحو الخامسة والأربعين. وحين شاهدتُه في المرة التالية سيكون الأمر مختلفاً بعض الشيء. في بعض الأحيان كنتُ أجلس خارجاً في سيارتي منتظرةً إياه أن يخرج من عيادته الطبية، لكن مع أني شاهدتُ الجميع يغادرون لم أشاهده يخرج ماشياً، حتى حين حلّ الظلام.

الفصل الثامن

أنا و(ر) سرعان ما انتظمنا في أسلوب معين. لمّا آخذ القطار أو أقود سيارتي إلى شطر المدينة التي يُقيم فيها نمارس العلاقة الحميمة في شقته النظيفة، الاحتياطية ومن ثم ننزل إلى المطعم الرخيص على بعد شارع من مبناه السكني كي نتناول أطباق البيض أو المعكرونة. في المصعد الكهربائي لا نتكلّم إنما غالباً ينظر أحدُنا إلى الآخر، وربما حتى نتبادل الابتسام، وأحياناً في المصعد يكون هنالك رجلٌ آخر يُقيم في المبنى السكني ويقول له (ر) مرحباً، وكان يحلو لي أن أسمع صوته عندما لا يُخاطبني. كنتُ أشعر كما لو أنني أسترق السمع إلى محاورة هاتفية أو أني أفتح بريد شخص آخر. فهمتُ أصلاً أني لن أصبح جزءاً كاملاً من عالمه، وأُقيم علاقة سلام معه. كان (ر) يفرقع مفاصل أصابعه ويثبّت ياقته في الجدار المزوّد بالمرآة من المصعد، في كلّ مرة. فكرتُ كيف نشأت هذه الخاصيات غير الضرورية من الروتين الجسدي وأضحت ألفةً مُمانِعة، سواء أردتّها أم لا. نظرتُ إلى صورتي المنعكسة بجانب صورته. بدونا معاً في أحسن حال. أكلنا طعامنا كما لو أننا لم نأكل منذ أعوام طويلة، وكانت رُكبنا تصطدم أحياناً بعضها مع بعض تحت المنضدة الخشبية غير المستقرة.

***

أصبح يتصرفُ بنحو أقل احتراماً معي عاجلاً إلى حدّ ما. لم يعد يتحدّث عن الواقيات الذكرية، على سبيل المثال. بدأ اهتمامي يقلّ، مع أن ذلك كان جزءاً من خطتي. سيكون شيئاً لطيفاً أن نمتلك نوعاً من الخداع تجاه الحب، حتى حين كان يقول لي في الفراش، بنحو لاهث، إني مومس عديمة القيمة.

بدلاً من ذلك أجيبه فقط، «أكثر. أكثر!» التصريح المتعلّق بحياتي كلّها. قد أكون مقبولةً جداً، لمّا أُريد أن أكون كذلك.

***

أتى إلى بيتي أيضاً. في فراشي أحسستُ بطبعات نساء تذكرة زرقاء أُخريات على جسمه، كما لو أنه امتصهن؛ كيف كانت أشكالهن، كيف تصرّفن. إني أتساءل أين كنّ، أولئك النسوة الماضيات أو الحاليات، وكيف انتهى بهنّ المطاف بين ذراعيه. عليكِ أن تدفعي فاتورة الحزن حين تصادفينه، أحدّث نفسي في كلّ مرة يمضي فيها إلى بيته ليلاً. المنزل خال. الجيران لا يزالون نائمين في البيوت التي من حول منزله. في كلّ مرة، أرفعُ رِجليّ فوق رأسي، وأزرعُ قدميّ في الحائط الكائن فوق اللوح الأمامي من السرير. الجاذبية لا يُمكن تغييرها. الجاذبية في ناحيتي. وبعدها صباحاً ستكون هنالك طبعات أقدام قذرة فوق السرير –طبعات خفيفة للغاية، إلّا أنها لا تزال هناك– وفي كلّ مرة كانت فاجعةً بالنسبة لي، كما لو أنها تعود إلى شبحي، كما لو أنها تعود إليّ في عالَم آخر.

***

مضينا بعيداً، كنوع من المتعة، إلى واحد من فنادق الحب على الطريق العام الذي يستعمله الجميع. لم تكن رحلة في حقيقة الأمر، بل هي طريق قصير خارج المدينة. باستطاعتك مع ذلك أن تُشاهد جميع أضواء مركز المدينة من الشرفة الواقعة خارج غرفتنا، حيث كنا ندَخّن السجائر الواحدة بعد الأخرى بين المضاجعات. كانت الحجرة نفسها بيضاء رثة، وثمة أغطية وردية باهتة على الفراش ولوح رأسي من الخشب الرقائقي رُسمت عليه طيور حُمر وزُرق. أحصيتُ ثلاثة احتراقات سجائر على لحاف الريش ورقدتُ على جبهتي، تحته. أما هو فقد دفن رأسه في عنقي. أنتِ محبوبة، أنتِ جميلة، قال لي. كانت تلك مجرد كلمات. كانت تلك مجرد أصوات تصدر من فم.

***

كان قد أحضر كيساً بلاستيكياً يحتوي على قناني البيرة، وكانت هذه تقعقع

برشاقة. ملأنا حوض الاستحمام بالماء البارد، بالقناني، والثلج الذي طلبناه من الطابق الأرضي. ولما شربنا أخذتُ واحدة من الزجاجات ولففتُها بمنشفة يد كما لو كانت طفلاً صغيراً. يبدو أنه لم يجد ذلك شيئاً باعثاً على الضحك، إلّا أننا مع ذلك شربنا بيرة - الطفل الصغير، ومررناها بيننا إلى أن نفدت.

***

تكلّم قليلاً عن رحلته في داخل المدينة. بدت أشبه برحلة تخييم. الأطفال ينتظمون في فرق. في بعض الأحيان مجموعات تُعارك مجموعات أخرى. كنتُ أطولهم وأقواهم، شرح لي. كنتُ قد اعتبرتُ نفسي رجلاً أصلاً. لم يكن هنالك شيءٌ فعلاً في طريقي.

***

لم يكن لدينا اليانصيب، إلّا أننا لم نحسب أنّ ذلك سهلٌ بالنسبة لنا. كان هنالك طابعُ زهو مؤذٍ في صوته. من المحتمل أننا مررنا في الطريق نفسه.

***

أتمنى ألا يحصل ذلك، قلتُ، وضحك هو.

***

أعرف ماذا يفعل الصبيان في ذلك الطريق، لم أقل ذلك.

***

البيرة جرّدتني من النواهي[1]. نسيتُ كلّ شيء آخر باستثناء جسمينا وجثوت على الأرض، ومددتُ ذراعيّ خارجاً فوق رأسي. أحسستُ أن شعري يسقط في الأمكنة كلّها، ويُجرّ من الموضع الذي ربطتُه فيه. الوسادة على وجهي. ثمة يدٌ على رقبتي، وثمة إبهام في تجويفها. عملٌ بدني يعقب

1- النواهي inhibitions: من المعروف علمياً أن شارب الكحول يقوم بأفعال لا يقوم بها عادةً في حالة الوعي التام. كما أنه حين يتعتعه السُكر قد يقول أشياء لا يقولها في حالة الوعي التام أيضاً-م.

عملاً بدنياً. كان قد سحب عضو ذكورته وأنهى مضاجعته على بطني[1] ولم يفعل شيئاً كي ينظفه، أشعل جهاز التليفزيون، وضحك على إعلان ما. ظللتُ راقدة هناك إلى أن جف سائله المنوي، وتسليتُ بكوني غير نظيفة.

***

إنما تالياً، ثبته بشكل حلو في سريري بيديّ. ظلّ جسمي يتحرّك ويتحرك. ابقَ معي، قلتُ له. ابقَ في مكانكَ الحالي. خشخش المصباح ذو الأهداب المُثبت فوقنا. صفع بيد راضية على فخذي. انتظرتُ إلى أن يرقّ قبل أن أسمح لنفسي بالاستلقاء.

***

حين أخلَدَ إلى النوم راقبتُ الأضواء المنبعثة من السيارات في الطريق خارجاً تتحرّك على السقف، المرة تلو المرة، تُلاطف البقعة الصغيرة الناعمة من ترقوتي حيث كانت يده تضغط بقوة شديدة. كانت تلك البقعة هي جزؤه الأثير مني ولم يكن بوسعي أن أفهم السبب، ما الذي جعله يُركّز على هذا الجزء البسيط من العظم من بين سائر الأشياء التي يتكوّن منها جسدي. كانت لديّ فكرةٌ ربما يرجع ذلك إلى الهشاشة، ولهذا لم أشأ أن أسأله، لم أشأ أن يُخيّب أملي أو أن أُحبِطه، لأني لم أكن هشة، لم يكن بالمستطاع حمايتي، كنتُ ريحاً كئيبة وغباراً يهبان عبر منظر طبيعي، وما من شيء يُمكن أن يفعله أحد من أجلي.

***

بحثتُ في داخل المحارة الباردة لذاتي عن الإثم، ولم أجد شيئاً. باستثناء قلبي، متوتراً كقبضة يد. فخذاي رطبان. ربما كنتُ حاملاً أصلاً. ما من سبيل لأن أقول هذا الآن.

1- كان قد سحب عضو ذكورته وأنهى مضاجعته على بطني He pulled out and finished on my stomach: من الجلي أنّ الكاتبة صوفي ماكنتوش تحدثت بلغة موحية مشوبة بالخجل، إن صح التعبير، مُشيرة إلى أن عشيقها سحب عضوه وأنهى علاقته الحميمة بأن قذف سائله المنوي على بطنها. أيّ أنها لم تتكلّم بلغة بذيئة أو صريحة، قد تجرح مشاعر بعض القراء والقارئات، لكننا في ترجمتنا هذه لم نستطع أن نجاريها في ذلك، واضطررنا للبوح علناً–م.

الفصل التاسع

كنتُ أعرف أنّ نزفي سوف يتوقف إذا حملت. هذا هو الشيء الوحيد الذي كنتُ قادرةً على التقاطه طوال سنوات بلوغي كلّها، وحتى ذلك ربما كان أسطورة حَضَرية. نزفتُ كالعادة في أثناء الشهر الأول. ولكن لمّا حان وقت الشهر الثاني، فات عليّ يومٌ واحد. وبعدها يومان، ثلاثة، أربعة. حِساب مضطرب. عشرة أيام. أحد عشر يوماً. على غرار لُعبة (الغمضية)، أو المكوث تحت الماء في أثناء روتين السباحة العائد لي. كنتُ أتمنى ولا أتمنى. كنتُ لا مُبالية. لا؛ هذه كذبة. لم أكن غير مُبالية على الإطلاق. إنما كي أعترف إلى أيّ مدى كنتُ أُريد ذلك هو عارٌ لا يسعني حتى أن أُفصح عنه. تجاهل عقلي ذلك كما لو أنه تشوشٌ تُحدثه العوامل الجوية أو الكهربائية في جهاز الراديو، لمّا حاولت. لذا أحصيتُ فقط بدلاً من ذلك أرقاماً نظيفة، مُجرّدة.

***

خمسة عشر يوماً. ستة عشر يوماً.

***

جاءت المُشرفة عليّ كي تُراقبني وأنا أضغط الماصة المُدرّجة (الپاييت) التي تحتوي على نترات الفضة في دورق ماء. ذابت في الحال تقريباً. مادة حارقة قمرية، قالت. هكذا تعوّدوا أن يُسموها. اسم جميل للغاية.

***

أنتِ شاعرة، قلت. رفعتُ منظار الوقاية، محترسةً ألا أمس وجهي، عينيّ.

***

دخلتُ حقل الكيمياء بسبب الراحة الموجودة فيه. لأنكَ تصنع نتيجةً مُحدّدة، نتيجة معروفة لأنّ مزج المواد أُختبر مرات عدّة من قبل، لأنّ أشخاصاً آخرين أنجزوا على وجه الدقة العملية ذاتها. بطبيعة الحال، يتعين عليكَ أن تكون حذراً فيما يتصل بالتلوّث، فيما يتصل بالتقلّبات الطفيفة التي من المحتمل أن تقلب عملية التوازن كلّها، وتحوّلها إلى شيء آخر بكلّ معنى الكلمة. غير أنني أحببتُ التكرار، الإحساس بشيء جوهري في العمل، وقدرة العِلم على تفسير نفسه.

***

غالباً ما تبدو حياتي تجربةً خاطئة. اتبعتُ التعليمات كلّها ومع ذلك لم أُصبح الشخص الذي يجب أن أكونه. هذه هي المشكلة مع علم البيولوجيا، كما أعتقد، فهو حقلٌ غير دقيق – «العلم السيئ» بدأتُ أفكر به سراً، ببغض وعداوة، لكن فقط لأنه لم يكن مُناسباً لي. صحيح، لم أكن حريصةً على نفسي مثلما كنتُ حريصةً على المواد الموجودة في المختبر. في المختبر كلّ شيء له موضعه الخاص، كلّ شيء يعتمد على توازن الرُقع (الليبلات) الصحيحة، على النظافة والنقاء. التعاملات والبروتوكولات الآمنة. الغُرف هي تلك التي يمضي إليها فقط أولئك الذين يمتلكون امتيازات معينة.

***

ألستِ واحدةً من البشر، قال الطبيب أ ذات مرة، في أثناء جلستنا الأولى أو الثانية. تمنيتُ أن أحس بالانزعاج، إلّا أني لم أستطع أن أستحضر ذلك الشعور.

***

الأرقام تزداد تدريجياً. كررتُها المرة تلو المرة، ورحتُ أضخ قطعة صابون كيماوية ذات رغوة بين التجارب وأُرغيها بحذر في راحتيّ.

***

عشرون يوماً. واحد وعشرون. اثنان وعشرون.

الفصل العاشر

تبدين مختلفة، قال لي الطبيب أ. أنتِ متوترة الأعصاب. يبدو كما لو أن شخصاً ما أخبركِ بسرّ ما وطلبَ منكِ أن تُخفيه عني. ماذا يُمكن أن يكون هذا، إني أتساءل.

***

أنا بخير، قلتُ له.

***

جعلني أزفر في جهاز مقياس التنفس كي يقيس قدرة رئتيّ. نفختُ إلى أن أصبح وجهي أحمر وباتت الحجرة تدور. قاس حرارتي بمقياس حرارة دخل في أذني إلى أن أطلق صوتاً قصيراً حاداً. تمنيتُ ألا يكون هنالك فحصٌ للدم، لا يكون هنالك فحصٌ للبول، ولا لمسٌ لبطني، ولا فحصٌ داخلي.

***

يبدو أنّ كلّ شيء مُرتب، قال لي. علينا فقط أن ننتظر ونرى. مال إلى الأمام. كم مرةً فكرتِ في أسرتكِ، مؤخراً؟

***

ليس كثيراً جداً على الإطلاق، أجبتُه. إني أتغلّب بشكل رائع على كلّ شيء.

***

ابتسم لي الطبيب أ. فتاة صالحة، قال لي. وأنا أنظر إليكِ، أجد أنكِ بخير تام.

***

الفصل الحادي عشر

في البارات بعد العمل، أحس باختلاف في جسدي. الكحول بدا مذاقُه معدنياً، كما لو أن شخصاً ما أسقط قطعةً معدنية في كأسي. أثّر فيّ بنحو أسرع. بدأتُ أشرب الجن والمقوّيات بدلاً من النبيذ لأني حسبتُ أنّ مادة الكينين قد تكون صحية. السجائر بدأت تجعلني أحس بالسأم، ولم أشأ أن أفكر في الدخان يلتف حول أعضاء وأوردة جسمي الجديد، الغريب. وفي ليلة من الليالي، تحدّث زملائي عن الإجازات الصيفية، وسألوني أين ستكون وجهتي، قلتُ لهم إني لم أقرر بعدُ. ربما سأحاول الحصول على تأشيرة دخول هذا العام، أجبتُ، وما إن تكون الكلمات خارج فمي حتى أمقتُ نفسي لأني قلتُها، لأني أردتُ أن أمسّ الخطر مساً عابراً حتى في هذا المكان، مثل لُعبة – قطة تُخربش بأظافرها.

***

لمحتُ (ر). لوّح لي، أتى إليّ مباشرةً وقبّل خدّي. بدت قبلتُه لطيفة. انتقلنا إلى مكان آخر، البار الذي تقابلنا فيه، وجلسنا إلى الطاولة التي جلسنا إليها في الليلة الأولى تلك، إلّا أن أحداً منا لم يقرّ بذلك. ربما كان ثملاً للغاية كي يتذكر. ربما أنا الذي اخترعتُ هذه القصة. بدأتُ بخصام مقصود كنوع من الثأر، لأنّ ما كان ذا مغزى بالنسبة لي لم يكن بالضرورة ذا مغزى بالنسبة له، إنما بشكل رئيس لأنّ جزءاً منه كان بكلّ معنى الكلمة في داخلي، ينمو، ولم يكن هو عارفاً بذلك.

***

لماذا تُريدين برهاناً على كلّ شيء؟ سألني (ر) في نهاية الجدال. لماذا لا

يسعكِ أن تعيشي في اللحظة الحالية؟ غير أنه حتى اللحظة الحاضرة بدت مُراوغة للغاية بحيث لا يُمكن الاعتماد عليها. وفجأةً أصبح التغييرُ الحاصل في داخلي لا يُطاق.

***

ماذا تُريد أن تفعل بحياتكَ؟ سألتُه. أنظر إليه وهو بدوره ينظر إليّ، إلّا أنه في حقيقة الأمر لم يكن ينظر، لم يكن يرى.

***

ماذا يوجد هناك كي أقوم به؟ ردّ علي.

***

لا أعرف، قلتُ، وعلى حين غرة أحسستُ أني مهزومة - أرغب باستماتة أن أضع رأسي على المنضدة، وأشعر بخدّي يُلامس السطح الصلب، وقد كدّرتني البيرة. بقيتُ منتصبة القامة.

***

ابتهجي، قال لي. كلّ شيء على ما يُرام ونحن نتسلّى. أتت أُغنية من الطراز الذي يُحبه وأومأ برأسه بقوة على الإيقاع. ألقى نظرةً شاملة على الحجرة وألقيتُ عليه نظرةً شاملة: الرقة المُدهشة التي أحسستُها حيال شكل أُذنه، ذلك الجزء من شَعره الذي غزاه الشيب، الطريقة الحازمة التي كان يمُسك بها كأسه الحاوية على الشراب. هذه أشياء قد أستوعبها الآن. أعتذر، قلتُ، إلّا أنه لم يكن يُصغي إليّ.

***

أحلامي مفعمة جداً بالحيوية كما لو أنها اصطدمت بالماء. كانت على حافة خطر بلوري حسبتُ أنه بحدّ ذاته قد يكون إيماءة. تلك الإيماءة أكّدت أني أمتلك أحلام شخصين في داخلي حالياً، وبالطبع أحلام الطفل تكون طازجةً وغريبةً كهذه، مبللة باللون ومُعلّقة كي تجف مثل صورة فوتوغرافية على حبل.

***

في أحلامي غالباً ما أكون فتاةً تمشي على طول الطريق المهجور المتجه صوب المدينة، وغالباً الفتاة بفستان الساتان الأزرق الباهت تمشي في الغابة، وبعدها وهي في السيارة، تلتزمُ الصمت فيما السيارة تنهب الأميال. في أحلامي كنتُ أحياناً أتعقب الفتاة وأنتزع العلبة المعدنية الصغيرة من رقبتها. وفي أوقات أخرى أجثو في نفاية الأوراق النباتية وأمدّ يديّ خارجاً في تضرّع. وفي أحيان أخرى أرمي نفسي خارج السيارة. أرجوك، كنتُ أتوسل، في كلّ مرة. أرجوك.

***

أو أكون عائدة وحدي إلى حمّام بيت أبي، أو أكون في الغابة وأملأ يديّ بإبر الصنوبر، وجسمي لم يطرأ عليه أيّ تغيير، ومستقبلي لا يزال في كلّ شيء - عبق الريف، ومنازل الألواح الخشبية الأخرى، الأرانب التي تصطدم أبدانُها في داخل الفِخاخ.

***

في صبيحة اليوم التالي تقيأتُ عند استيقاظي من النوم، مع أنني لم أشرب بإفراط، وكنتُ أفعل ذلك بهدوء شديد حتى لا يسمعني (ر). سوف أنتظر بهدوء، قلتُ لصورتي المنعكسة في المرآة. إنه يوم السبت ورجعتُ ماشيةً إلى البيت عبر المدينة، في وقت مبكر جداً. نقاء طاهر، زاهِد يُخيّم على الأرصفة المهجورة، وعلى الضوضاء الغائبة. السماء وردية بنحو قبيح، والأبراج الزجاجية تعكسها. بدا كما لو أن السماء تنزف. العالَم بأسره ينزف، بعيداً عني.

الفصل الثاني عشر

لديكِ طريقتان كي تفعلي هذا، قال الطبيب أ، في اليوم الذي اكتشف فيه ذلك. كان قد سألني عن آخر تاريخ نزفٍ لي، وتلعثمتُ. جعلني أستلقي على طاولة الفحص المكسوة بورق أبيض فيما كان يتحسس بطني، وبعدها سلّمني ثوباً منزلياً ورقياً وقال لي أن أخلع ملابسي. صُقِل جسدي بمادة هُلامية باردة، وفحصني فحصاً دقيقاً بالمسبار الصغير، من القلب نزولاً. الكبد، المعدة، الكليتان. كانت الشاشة قد حُرِفت بعيداً عني. عبّس وجهه، ضغط الأزرار، وراح ينظر عن كثب إلى كلّ الصور التي كانت تُنقل إلى الشاشة مهما كان نوعها. إنها مسألة وقت ليس إلا. تخيّلتُ كهرباء قلبي وهو يقفز، ضوضاؤه البحرية ثابتة، سريعة. تضرّعتُ أن يظل الطفل بلا حراك إذا ما عرف أنّ ذلك هو الأفضل له، إذا ما تبين أنّه لن يظل بلا حراك، لا يستطيع أن يظل بلا حراك.

***

في حجرة الانتظار سلفاً وضعتُ رأسي بين ركبتيّ وقتياً، ومن ثم تهاديتُ إلى الحمّام كي أتقيأ. بدا أنّ الطفل جعلني أمرض، وسممني من الداخل كالفيروس. هذه الفكرة مُروِّعة. تصالحتُ بنحو يفتقر إلى الحماسة مع فكرة الاحتضار هناك، في هذه الحجرة الصغيرة، المادة الصفراء (المرارة) تحرق حنجرتي. الأقدام المُقعقعة للنساء القليلات الصبر اللواتي كن ينتظرن أن ينتهي دوري، ارتفعت حواجبهن لمّا خرجتُ، ورحتُ أمسح فمي. النساء هنّ اللائي سيعرفن. النساء هنّ اللائي يخاصمنني الآن. فستاني قطني منتفخ بلون زهرة الذرة، قناع من المؤكد أنه لم يكن ضرورياً بعدُ، إلّا أنني أحسستُ أني مُرغمة على إخفاء جسمي، من باب الاحتياط.

***

بعد أن مسحتُ العرق والمادة الهُلامية من على بدني بمناشف ورقية، خرجتُ من وراء الستارة وجلست في مكاني المألوف. تناول هو رشفةً من شايه العشبي، وضبّب سديمٌ كؤوسَه مؤقتاً. دفعت أصابعي خرز العدّادة المطلية التي أبقاها على الطاولة بيننا. خرزات خُضر، حُمر، زُرق، صُفر. واحدة اثنتان، واحدة اثنتان. سجادة خضراء. البلاستك البرتقالي المؤسساتي لكرسي. جهاز الإملاء أطلق طنيناً.

***

أغمضتُ عيني، أنتظره كي يفعل شيئاً ما، أنتظر شخصاً ما كي يكسر الباب ويعتقلني، إنما لم يحصل شيء.

***

اختاري الآن، قال أخيراً. وأنا أفتحُ عينيّ، كان باستطاعتي أن أرى أنه بدا وقوراً، إلّا أن ذلك الجزء منه يشعر أيضاً بالاعتداد الشديد بالنفس.

***

دعيني أعتني به هنا، اليوم، وبوسعكِ أن تعودي ماشيةً إلى حياتكِ كما لو أنه لم يحصل شيء. سوف تفيقين من النوم وسوف تنسين كلّ ما يتعلّق به.

***

ما هو الخيار الآخر؟ سألتُه.

***

لن أُكرهِكِ على التخلّص منه، إلّا أننا لا نستطيع أن نجعلكِ تحتفظين به أيضاً. عليكِ أن تذهبي. سوف تُرسلين بعيداً.

***

أُرسَل إلى أين؟

***

قطّب جبينه. لا يُمكنني أن أخبركِ، كالا. إلّا أنه بوسعي أن أخبركِ أنكِ لا ترغبين في أن تكوني في تلك الرحلة.

***

لم أُحرّك ساكناً.

***

استمعي إليّ، كالا. كم عدد الفرص التي أُتيحت لكِ كي تقترفي خطأً قاتلاً ومن ثم تنقضينه – تعتذرين عنه؟ سوف يأتون إليكِ. ما من مَفرّ.

***

مال إلى الأمام وظلّ يتحدّث إلّا أني كنتُ شاردة الذهن بسبب رائحة عرقي. بدا الخيار بسيطاً ومع ذلك الجواب الخاطئ كان ينبض في داخلي. انتهت الساعة تقريباً. عقدتُ اتفاقاً مع نفسي أن أظل صامتة حتى الدقيقة التي يعبر فيه الرقاص الخط. وفي الختام، كفّ عن النظر إليّ.

***

حسنٌ جداً. يُمكنك أن تذهبي إلى بيتك. إلّا أنكِ ستكونين تحت المراقبة من الآن فصاعداً، قال لي. لذا لا تفعلي شيئاً أحمق.

الفصل الثالث عشر

تعال واستقبلني، توّسلتُ إلى (ر) على التليفون، وأنا أتصل على هاتفه من الكشك الواقع خارج العيادة الطبية. كنتُ أُريد شخصاً ما يأتي ويستقبلني.

***

حقاً؟ قال لي. ألم تأتِ بسيارتكِ إلى هناك؟ لستُ أنا الذي يُقرر أن يجعلكِ عاجزة.

***

صوته لطيفٌ للغاية، عقلاني.

***

لكنني أحتاج إليكَ، قلتُ له. الآن تحديداً، أحتاج إليكَ.

***

أنا متوتر فعلاً، قال لي، لذا قدتُ سيارتي بنفسي إلى شقته عبر حركة المرور المزدحمة في المدينة. اتكأتُ على جدار المصعد الكهربائي المزوّد بالمرآة طول المسافة إلى الأعلى، عيناي مُغمضتان. لم يدخل أحد في المصعد.

***

استغرق برهةً كي يفتح لي الباب. كان يرتدي قميصاً باهتاً من الكتان، من دون ربطة عنق، ولم يُقبلني على وجنتي أو يُربّت على جبيني أو ينظر في عيني أو يسألني ما إذا كنت أحس بشيءٍ من التحسن، إلّا أنه ناولني كأس ماء مع الثلج.

***

جلسة قاسية؟

***

شربتُ الماء بجرعة واحدة وقبضتي متكوّرة على صدري.

***

هل حدث أن تمنيتَ أن تكون أباً؟ سألتُه، وكان هذا أقرب سؤال كي أتناول فيه الشعور الكئيب، كيف نبضَ في داخلي، وماذا جعلني أفعل.

***

اتكأ على الكاونتر وهو مستغرق في التفكير. أوه، هل هذا هو كنه الموضوع، قال لي، وأحسستُ بالخوف على مدى ثانية، إلّا أنه قال لي، تعتقدين أني سوف أسعى وراء تذكرة بيضاء؟

***

حسنٌ، ربما، قلتُ. في يوم ما.

***

لا أعتقد أنه ينبغي لنا أن نتناقش في هذا الموضوع الآن تحديداً، قال. هيا.

***

ابتسم، قبّلني في صدغي ومن ثم قادني إلى غرفته، حيث طواني بملاءات سريره الرمادية. خذي قيلولة، كلّ شيء سوف يُصبح أفضل بعد القيلولة، قال لي، وهو يُمرّر يده باحتشام على الورم المُغطى من جذعي. غططتُ في نوم قوي، نظيف، نوم الفراغ العاطفي، ولمّا أفقتُ من نومي اكتشفتُ أنه قد غادر المكان. تطلّعتُ إلى السقف برهةً، أحاولُ أن أمسك بالإحساس بأني أُفرِغت. وتالياً تفحصتُ الغرف كلّها، وبعدها سمحتُ لنفسي بأن أخرج وأقود السيارة والمذياع يشتغل ويُطلق صوتاً مرتفعاً كي لا أكون وحدي.

***

ركنتُ السيارة في مركز المدينة ومشيتُ هنا وهناك، متمنيةً أن أرى عربة من عربات الأطفال الكبيرة منطلقةً عبر الحشد. كانت رِجلاي تترَنّحان تحتي. وددتُ أن أرى وجه طفل، وجهاً متغضناً وطبيعياً كالتفاحة، والأب

يومئ برأسه لموجة البشر الذين كانوا يبتعدون. وددتُ أن أرى دليلاً على أنه من الممكن أن يكون ذلك مقبولاً. لكن ما من دليل في المتناول.

***

كلّنا نُحب أن نرى طفلاً صغيراً في بعض الأحيان. إنه شيءٌ تقليدي أن نُكرِه الأب على تقبّل الإعانات الصغيرة. القطع النقدية، الحلويات، المناديل. الأب يضعها كلّها في حقيبة شبكية إلّا أننا نعرف أنها سوف تُدقَّق تالياً، يتم التخلّص من كلّ شيء يُمكن أن يُسبب الأذى للطفل الصغير.

***

هنالك أناسٌ قد يرغبون بإيذاء الطفل الصغير. بوسعنا فقط أن نعترف بصورة غير مباشرة بهذا الأمر. بعض النساء يُحدّقن ويُحدّقن ويحاولن أن يمسسن عربةَ الطفل من أجل الحظ. وثمة نساءٌ أخريات متناقضات أكثر، وبعضهن يتجنبن بنشاط من أن يُضبطن في زمرة الأشخاص الذين يُراقبون، يُقدمون، ويسيرون على مهل وراءهن. بعضهم لا يرغبون برؤية الطفل الصغير.

***

أوّلَ مرة رأيتُ طفلاً صغيراً في المدينة كان ذلك مجرّد فضول، كما لو أنه شيء جاء من الفضاء الخارجي. إلّا أنني لمّا كبرتُ، الأطفال الصغار بدوا كأنهم باتوا ماكرين بقوتهم. إنهم يمتلكون القدرة على إلغائي. إذا ما رأيتُ عربة طفل وأعطيتُ أيّ قطعة نقد فضية أحملها في جيبي للأب، ويومئ هو برأسه بكرم، يتعين عليّ أن أتراجع إلى أقرب فضاء سرّي وأتمالك نفسي إلى أن يخف حافز الصراخ.

***

دخلتُ متجراً مليئاً بحاجيات الأطفال، فوجدته خالياً إلا من امرأة وراء الكاونتر، تطلّعت إليّ إلّا أنها لم تتفوّه بكلمة. مرّرتُ يديّ بطريقة تعوزها البراعة على جوارب صغيرة، وعلى دمى محشوّة. التقطتُ قبعة أُلصقت بها أُذنا قطة. دمي حار وجعل يندفع في رأسي.

***

معذرة، قالت المرأة، وهي تدنو مني. أعتقد أنه ينبغي لكِ أن تغادري.

***

لكنني أشتري شيئاً لإحدى صديقاتي! قلتُ لها، وأنا أستشيط غضباً. بوسعي أن أنظر، أليس كذلك؟

***

إنكِ لا تملكين صديقات كهؤلاء، قالت المرأة، لذا رميتُ القبعة وخرجتُ من المتجر وعدتُ إلى حشد البشر بأسرع ما أستطيع. مومس حمقاء! صحتُ ورائي وتطلّع الجميع إليّ، ومن ثم أشاحوا أبصارهم.

***

إنكِ تعتقدين أنكَ تقومين بالشيء الطبيعي، لكنكِ مُخطئة، حذّرني الطبيب أ. إنكِ تحسبين أنّ هذا الشيء لكِ غير أنني أَعِدُكِ، أنه ليس لكِ.

***

الشوارع نظيفة وكئيبة فيما كنتُ أمشي، والجو بارد. لم تتفتح الأزهار بعدُ إلّا أنني أعرف أنّ الوقت لن يطول، وأنّ هنالك تكتكة منتظمة في داخل البراعم الخضر البغيضة، لأنّ هذا هو ما فعله الزمن. في هذه الأثناء لم يكن هنالك أطفال صغار في المدينة اليوم والجميع يمضون إلى مكانٍ ما، بنحو أملس وسهل كالماء. في مقدوري أن أتخيّل (ر) يدفع واحدة من عربات الأطفال هنا وهناك في منطقتي السكنية، هنا وهناك في شوارع المدينة، في حين أنّ جيراننا حاولوا أن يحصلوا على نظرة مناسبة على الطفل الصغير. الفكرة المتعلّقة به جعلتني أجلسُ على مصطبة وأضع رأسي بين رُكبتيّ.

***

هل أنتِ بخير؟ سألني صوتٌ ما.

***

رفعتُ بصري إلى الرجل وتساءلتُ ما إذا كان أباً. لا يسعني أن أنظر إلى أيّ رجل من دون أن أطرح هذا السؤال على نفسي. ما الذي يجعل الرجل أباً؟ ما الذي يجعل المرأة أمّاً؟ ما هو الشيء الذي أفتقده؟ (ر) ينتظر بصبر

الشخص الذي لا يزحف هنا وهناك على الأرض، ينتظر بصبر الشخص الذي لا يكدّس التراب على نفسه. أنا نفسي أشبه بطفلة صغيرة، أحاسيس كاملة، من دون انضباط ذاتي. جهاز عاطل يرُنّ بالحاجة. أنا حتى لم أحبه، أنا لا أُحب شيئاً.

***

لكني أيضاً ربما أحبه فعلاً إلّا أنني فقط لا أريد الاعتراف بذلك. كيف يسعني أن أكون أُماً في حين حتى العواطف الإنسانية البسيطة بعيدة عني، حين تكون هذه مجرّد موجات تصطدم بساحل جسمي - هذا الجسم الذي أحسه في آن بعيداً كالقمر وقريباً بنحو غير مُريح؟ لم أكن أُدرِك أنّ الحال سيكون هكذا. كنتُ غبيةً لأني لم أُدرك هذا الأمر.

***

هل أنتِ على ما يرام؟ سأل الصوت ثانية.

***

نعم، قلتُ، إلّا أني نسيتُ السؤال. تحرّك الرجل من دون تعليق. لمحتُ بريق خاتم زواج في يده. فمي مليء بالمادة الصفراء (المرارة). نهضتُ بحذر شديد ومشيتُ نحو السيارة.

الفصل الرابع عشر

جاءت الرزمة إلى بابي بعد ثلاثة أيام من حديثي مع الطبيب أ.

***

قرع شرطي سري جرسي في وقت مبكر جداً. أشاهده عبر الشباك المُغلق تقريباً، إلّا أنني لمّا استجمعتُ شجاعتي كي أفتح الباب لم يقبض عليّ أو يقول أيّ شيء على الإطلاق، بل سلّمني فقط الرزمة وأومأ برأسه. في الضوء، بدا العشب مسطحاً كالطلاء. خُرِق الاتفاق. فهمتُ ربما لأول مرة أنه ما من تراجع، ما من توقف مهما جعلتُ الأشياء فعالة.

***

فككتُ كلّ الأشياء الموجودة على أرضية غرفة المعيشة وانتبهت إليها برهةً من دون أن تصدر حركة مني. خيمةٌ صغيرة واحدة، خيمة الخدع السحرية، من الطراز الذي تنشرينها بدلاً من أن تجمعيها بالحبال والأوتاد. خارطة بدائية، ثماني علب من المعكرونة وأربع من اللحم المجفف، أقراص اليود، سكين صغيرة، ومسدس بدا عتيقاً جداً، وحتى أثرياً. لوازم العيش الرئيسة. حَزمتُها كلّها من جديد ووضعتُ حقيبة الظهر في غرفة النوم الإضافية، فوق الأغطية، حيث ظلّت براقة وملفوفة بالنايلون الأحمر. أربع مرات في اليوم الأول ذاك، تفحصتها كي أتأكد من أنّها لم تكن حُلماً.

***

في الأقل أعطوني خيمة هذه المرة، حتى إذا بدت الأشياء الأخرى رموزاً في الأغلب.

***

إني ذاهبة مرةً أخرى في رحلة، حدّثتُ نفسي. إني ذاهبة في مغامرة كبرى.

الفصل الخامس عشر

لم يحدث أن فَعلَ لي أحدٌ هذا قبلاً! صرخ (ر) في المطعم لمّا أخبرتُه بالمعلومات الجديدة والمهمة. كان قد مرّ أكثر من أسبوعين منذ أن رأى أحدُنا الآخر. مضغتُ شريحة اللحم السميكة العائدة لي بعناية ولم أرد عليه مباشرة. كنتُ أتحرّق شوقاً للأطعمة الثقيلة، الغنية بالحديد، الأشياء النازفة.

***

إنكِ دوماً تُريدين أن تفعلي هذا، أليس كذلك، اتهمني. إنكِ تُريدين أن تُشاهدي كيف يكون شكل المغامرة.

***

كيف يكون شكلُ المغامرة: التيار الكهربائي البارد. تباطؤ في جسدي. أحسستُ أني أشبه بطائر سُحِب، بصورة لا يُمكن تفسيرها، إلى الأرض. طائر أبيض بريش ناعم، شيءٌ أجمل مما كنتُ أظن.

***

لا تنفجر غضباً، خاطبتُه قائلة. لهذا السبب أتيتُ بكَ إلى هنا.

***

لماذا أخبرتُه حتى؟ لا يسعني أن أتذكر السبب الذي دفعني إلى ذلك. واصلت الأشياء ابتعادها عني. زعق ببغاء ذهبي في قفص موضوع في الزاوية. ثمة بيانو أسود. نادلة في مريلة طويلة زرقاء داكنة حامت في موضع قريب. هل كلّ شيء على ما يُرام؟ سألتنا، ولوّح لها (ر) بشوكته علامة الرفض. وجهه صارم وخبيث.

***

لماذا؟ سأل. هذا هو كلّ ما أُريد أن أعرفه. لماذا؟

***

إلا إنه لم يكن بمستطاعي أن أُفصح عن رغبتي بصوت مرتفع – لم يكن في مقدوري أن أرسلها إلى العالَم وأراها وقد أصابتها الكدمات، ويُطلق عليها الرصاص، كما لو أنها موضوعٌ مُثير للجدل. هي ليست شيئاً نظرياً، إنها جزءٌ صامت مُرهَف مني، ولا أملكُ لغةً له.

***

إذاً أنتِ فقط ستجلسين هناك، قال لي. إنكِ حتى لن تحاولي أن تكشفي عواطفكِ وأفكاركِ.

***

لن تفهم، قلتُ.

***

لديكِ مرضٌ عاطفي، قال لي.

***

إذا شئتَ، قلتُ له. يُمكنني أن أرى من خلال الطريقة التي كان ينظر بها إليّ أنّ أيّ سبب يبدو خاطئاً هو آتٍ من فمي، فم التذكرة الزرقاء، على أية حال.

***

لا أعرف لماذا كلّ امرأة تمتلك طفلاً على أية حال، سواء أكانت بتذكرة زرقاء أو بيضاء، قال لي، وهو يُخفض صوته كي لا يسمع أحد ما كنا نتحدّث عنه.

***

أغلب الظن ما من أحد يعرف فعلاً، قلت. إنه شيءٌ يتعين عليكَ أن تحسّه.

***

لكن كيف تعرفين أنّ هذا هو ما تحسين به؟ جرّبي أحاسيس أخرى. شيئاً يجعلكِ تعاودين نشاطكِ بعد انقطاع. حاول أن يسكب لي مزيداً من النبيذ

إلّا أنني أملكُ كمية كبيرة جداً منه على أية حال، فأضع يدي على الكأس. فات الأوان. النبيذ ملأ الأمكنة كلّها.

***

أعرف فقط، قلت. كيف يسعني أن أفسر الإحساس الكئيب من دون أن أفتح نفسي كلّها؟ كيف يُمكنني أن أسأل ما إذا كان سبق له أن أحس به هو أيضاً؟ كان يُحدّق في. أحسستُ أني كئيبة. لعقتُ النبيذ من قفا يدي.

***

إنكِ تعرفين أنه عليكِ إما أن تجدي له حلاً، وإلا سوف يطردونكِ، قال، وهو يحوّل انتباهه إلى طعامه.

***

فات الأوان كثيراً على ذلك، قلت، وأنا أنظف النبيذ بفوطة المائدة العائدة لي. حكيتُ له عن الرزمة. إنها في بيتي حالياً. باستطاعتكَ أن تأتي وترى بنفسك.

***

صَحنا (محلّبي) بالفستق موضوعان قبالتنا. تناولتهما معاً فيما كان (ر) يُراقبني. كانت شهيتي هائلة. لم أشعر بالخجل فيما يتصل بذلك، حتى مرة واحدة.

***

في بيتي فرشنا كلّ الأشياء التي احتوتها الرزمة. رفع المسدس بيده. صوّبه إليّ. وضعتُ يدي على الماسورة وحرّكتها بعيداً عني. لا، قلتُ، مثلما تفعل هذا مع كلب سيئ السلوك، مع أنني أعرف أنّ المسدس غير مُعبأ بالرصاص. رفعتُ ذراعيّ كي أخلع غطاء رأسي، إلّا أنه أشاح بصره عني.

***

لا يُمكنني أن أنظر إليكِ حتى، قال لي.

***

أباشر بأن أُريه. بوسعكَ أن تراه الآن، قلت له. إن أردتَ.

***

قلّما كنتُ أُري على الإطلاق، في الواقع، إلّا أني زفرتُ كي أضخم أيّ ورم موجود هناك. أردتُ أن أجعله حقيقياً بالنسبة له. شيئاً في مقدوره أن يراه ويلمسه.

***

لا أريد ذلك، قال لي، ووجهُه بعيد عني. هذا آخر شيء أُريده.

***

لم يلتفت لمّا زحلقتُ وخلعتُ تنورتي وبعدها فككتُ حمالة الصدر العائدة لي ودوّرتُ جوربيّ إلى الأسفل، على مهل، مع أنه كان في مقدوره أن يسمعني وأنا أفعل ذلك. لم أقل له شيئاً، بل فقط طويتُ ملابسي بعناية ووضعتها على الفراش، وجعلتُ قوس بطني الطفيف جداً بهيئة كوب، ما من شيء ملحوظ، لن ترى شيئاً إن لم تنظر إليه. أبقى ذراعيه ملتفّتين إحداهما على الأخرى مُبعداً جسمَه عني بزاوية.

***

عندئذ غادر المنزل. سمعتُه وهو ينزل درجات السلّم واحـدةً بعد الأخرى، ولم أركض وراءه أو أقم بأيّ حركة على الإطلاق. انتظرتُ فقط، عاريةً، فيما كان الظلام يهبط والجيران يعودون إلى بيوتهم. أصوات أجهزة التليفزيون العائدة لهم وطهي الطعام، والأبواب وهي تُفتح فيما هم يخرجون إلى حدائقهم كي ينظروا إلى السماء أو يأخذوا غسيلهم إلى الداخل، الأشياء الصغيرة والمتناغمة للحياة تحدث في سائر الجهات من حولي، حياة ليست تافهة، تستمر كلّها من دون انقطاع.



الفصل السادس عشر

في جلستي التالية مع الطبيب أ، لزمتُ الصمت. في هذه المرة جلس على الكنبة القطيفة البُنية، المائلة قليلاً إلى الخلف. كان من المفترض أن يجعلني أشعر بالراحة إلّا أنني قلّما كنتُ أنعم بالراحة بحضوره، حتى بعد مضي زمن طويل جداً، بعد أعوام طويلة من حياتي سكبتُها من أجله. تكوّرت أصابعي حول حاشية مقعد الكرسي البلاستك، ذي الزوايا البيض.

***

لو كان باستطاعتي أن أملأ الفراغ المقصود للاعترافات مع تصريحات تافهة إذاً ربما يُمكن تأخير شيء ما. آمنتُ بذلك، مع أنه شيءٌ أحمق، لأنّ الطبيب أ يعرف بالطبع ما يتعلّق بالرزمة، فهو الذي طلبها بنفسه.

***

ابتسم ومال إلى الأمام كما لو أنه أوقعني في الفخ، مع أنني لم أقل شيئاً. ما الذي كان يفعله عقلكِ مؤخراً؟ سألني. إنه السؤال المألوف.

***

الضوء خفيفٌ وخجول. كلّما أكذب عليه أُثبّتُ نظرتي على مجموعة من النمش الصغير تحت عينه الشمال، أو على أنفه، وهو شيءٌ كنتُ أعرف أنه أشبه بالنظر في عينيه مباشرة. إلّا أن الكذبة هذه المرّة لم تستطع أن تخرج. دمدم بطني وخَفّفَ التوتر. ضحك الطبيب أ. هل أنتِ جائعة؟ ناولني قرص نعناع. كسرت أسناني القرص السكري حالاً وفاض فمي باللعاب؛ كان غزيراً جداً بحيث حسبتُ أنه سوف يسيل إلى الخارج.

***

هل تلقيتِ شيئاً ما، كالا؟ سألني. هل أتى شيءٌ ما إلى بابكِ؟

***

لم أقل كلمة، وأنا أحوّل نظراتي إلى الشباك بدلاً من ذلك، كانت الستائر المتحركة قد سُحبت إلى المنتصف نحو الأسفل، كي تنفذ أشعة الشمس بهيئة شرائح.

***

الخوف من الإقصاء هو خوفٌ إنسانيّ باطني، قال لي. إنه يؤكد منزلتنا بوصفنا شيئاً آخر، شيئاً لا يُمكن تعويضه، وهو شكٌ نمتلكه دوماً بشأن أنفسنا. أن تكوني مُبعَدة، أو مقصية، هو من أجل أن يُدرِك الجميع دناءتكِ وخستك.

***

توقف هنيهةً عن الكلام. ربما تُريدين رؤيتها مُعترَفاً بها.

***

«ربما أُريد رؤيتها مُعترَفاً بها»، وافقته الرأي بصمت.

***

كوني جاهزة للذهاب في أية لحظة. احتفظي بالرزمة في سيارتكِ. الاستدعاء سوف يأتي وسوف يأتي في أيّ وقت، وعندئذ يتعين عليكِ أن تذهبي. إذا ما قبضوا عليكِ، لا يُمكنني أن أساعدكِ. توقف هنيهةً عن الكلام. اعترافاً بخدمتكِ الجليلة، سوف يعطونكِ فرصة. إنني متأسف، الأمور كان ينبغي أن تكون بهذه الطريقة، قال لي، وفعلاً بدا أنه قصد ما قاله، على مدى دقيقة.

***

حبستُ نَفَسي. هل توجد فرصةٌ أخرى بشأن اليانصيب؟

***

لا. إنكِ تعرفين أفضل من ذلك، قال لي، وهو يهزّ رأسه. ماذا ستكون المسألة؟ سوف تتكشف مع ذلك. لا يُمكنكِ أن تغيّري تذكرتكِ.

***

تخيّلتُ نفسي ناضجة إنما عائدة إلى مركز اليانصيب مع الفتيات اللائي يرتدين الفساتين النسائية، واقفة في رتل كما لو أنني كنتُ أستحق ذلك. تذكرت الحلم المتكرر الذي راودني منذ سنوات مراهقتي، حيث قطعتُ راحة يدي على شريحة معدنية ولم ينز من جروحي الدم، بل مادة شبيهة بالحبر بلون صبغة النيل القاتمة.

***

هي فرصةٌ للهَرب، استطرد قائلاً. هي رحلةٌ، أعتقد، مثل رحلتكِ الأخيرة. إلّا أنها هَرَبٌ، بدلاً من المضي إلى الأمام. بعض الأشخاص يحسبونه اختباراً.

***

قل لي ماذا أفعل وسأفعل، قلتُ له.

***

الوقت تأخر قليلاً على ذلك، قال لي. في مقدوركِ فقط أن تفعلي أقصى ما تستطيعين.

***

بكيتُ لدى سماعي جوابه هذا، وهو جوابٌ لطيف إن صحّ التعبير، لأنه بدا بنحو واقعي جداً قد خاب ظنه فيّ لأول مرة طوال مدة علاقتنا.

***

هل لديك أسرة؟ سألته حين توقفتُ عن البكاء.

***

لا يُمكنني أن أتكلّم حول هذا الأمر معكِ، قال. معذرةً.

***

جاء (ر) تالياً لمّا اتصلتُ هاتفياً. إنه شيء غير متوقع، الإذعان، إلّا أني كنتُ ممتنة له. جاء مع كيس من الطعام – خُضار لامعة، أجبان جيدة، رغيف خبز من النوع الذي أحبه.

***

ماذا تفعل؟ سألتُه فيما هو يصفّ كلّ شيء على المنضدة - الأطباق وسكاكين المائدة ودورق من الماء مع الثلج والليمون.

***

إني أُجرّب شيئاً ما، قال لي، وهو يضع سكيناً بجوار الخبز المطلي. زهور الكبوسين من الحديقة في جرّة. تفحص الليبل على الأجبان وأشار إلى تلك التي كان مسموحاً لي بتناولها.

***

كيف عرفتَ؟ سألتُه.

***

تمكنتُ من اكتشاف بعض الأشياء، قال لي. أحد أصدقائي أعطاني هذا.

***

سلّمني باليد نشرةً مُستنسخة فيها لوائح الأطعمة التي يتعين عليّ ألا أتناولها والسلوكيات التي ينبغي لي ألّا أنخرط فيها. كانت كلّها أطعمتي الأثيرة وبعض سلوكياتي المفضلة. لا يهمّ. سوف أتخلّى عن أيّ شيء. (ر) راقبني وأنا أقرأ النشرة.

***

أُريد أن أسترجع تلك النشرة، لاحقاً، قال لي.

***

هل من المحتمل أن تقع في مشكلة؟ سألتُه. كنتُ متأثرة.

***

ربما، قال.

***

لستَ بحاجة لأن تفعل أيّ شيء، قلتُ له. أنا امرأة بتذكرة زرقاء، أتتذكر؟

***

أعرف أني لن أفعل شيئاً، قال لي.

***

في الفراش وضع يديه على وجهي. نظر كلّ واحد منا في عينَي الآخر كما ينبغي، واحتفظنا بهذا التحديق. كانت عيناه داكنتين للغاية بحيث إنهما كانتا سوداوين تقريباً. وضعتُ يديّ على وجهه أيضاً. ربّت على وجنتي، وسمح لإبهاميه أن يستريحا على صدغيّ.

***

إنكَ تحاول أن تجرّب شيئاً ما من جديد، خاطبتُه قائلة، وأومأ برأسه علامة الإيجاب.

***

النظر إليه بتلك الطريقة حفز هجمةً من شعورٍ امتعضتُ منه واحتضنته في الوقت نفسه. كان من الصعب أن أعرف ما إذا كان شعوراً حقيقياً، أم إنه مجرد شيء آخر يخدعني به جسمي. أدركتُ أنه، بشكل رئيس، شخصٌ صالح. هذا الأمر جعلني أشعر بحزن شديد بحيث وجب عليّ أن أشيح بصري.

***

حين غطّ في النوم كتبتُ «رد الفعل الكيماوي الحياتي!» و«كلّ الألفة مصطنعة» في دفتر الملحوظات الذي كنتُ أحصي فيه الأيام الخالية من الدم.

***

وبعدها كتبتُ «حافظي على نفسكِ بصورة أفضل». كتبتُ «كوني جريئة، وكوني جاهزة».

الفصل السابع عشر

جعلتني السوبرماركت أحس بالأمان. حتى في زمن الطفولة حسبتُ أنّ لا شيء سيئاً يُمكن أن يحصل في مكان يتمتع بالرخاء. أحببتُ الراحة الناجمة عن مكيف الهواء، الألوان فوق الواقعية تحت الأضواء. ذكّرتني السوبرماركت بأنّ قلبي لم يُصبح منكمشاً أو جافاً بعدُ. الموز، التفاح والخوخ مُرتبة في أوعية، وتنبعث منها رائحة الصيف. أحببتُ المشي من حول الممرات ومعي السلّة السلكية التي كنتُ أحملها بارتخاء في يدي، مفكرةً في الخيارات، في بساطة الإعراب عن حاجةٍ ما وتلبية تلك الحاجة. الملح. البرتقال. جبن (الشدر) القاسي. كان هنالك جهاز صرّاف آلي في الباحة. في كلّ مرة أزور فيها السوبرماركت أسحب النقود، مبلغاً ليس بالكبير جداً، ما من شيء يستدعي الشك. أبقيتُ جسمي ساكناً جداً فيما كنتُ أنتظر خروج الأوراق المالية المُتغضنة، متفحصةً أظافري كما لو كنتُ ضجرة، كما لو أنني لا أفكر في أيّ شيء، ولمّا أصل إلى البيت أطويها في المواضع السرية لحقيبة الظهر العائدة لي، سترتي.

***

توقفتُ عند محل الخمور من باب العادة، متذكرةً في وقت متأخر جداً أنه لم يعد مسموحاً لي أن أداري هذا الدافع. لوّح لي صاحب المحل بيد تبدو رطبة. أنا زبونة عالية القيمة.

***

كالا، تحياتي. لدّي نبيذ (بوجولي)[1] جديد مروِّع وصلنا تواً، قال لي، وسكب لي شيئاً منه في كوب ورقي للقهوة السريعة. جرّبيه، يتعين عليكِ فعلاً أن تجربيه.

***

أملته على فمي بعد تردد موجز لا غير، وملأه لي ثانيةً. جميل، أليس كذلك؟

***

مذاقه يبدو شبيهاً بمذاق التراب. محبوب، قلت له، واشتريتُ زجاجة كي أسكبها في المغسلة لاحقاً.

***

«اختبئي في مكانٍ مرئي»، فكرتُ مع نفسي. «هذه هي حياتكِ اللعينة».

***

في الصيدلية جمعتُ كلّ ما أحتاج إليه على مدى شهر، مُشيرةً إلى وصفات الطبيب أ: الصبغات، الفيتامينات، والقناني البُنية الداكنة ذات الليبلات المكتوبة بخط يد قلّما يُمكن قراءته. الهواء البارد والهواء المُكيّف، يدي على الرف بغية الحفاظ على التوازن فيما كنتُ أميلُ إلى الأسفل كي آخذ شيئاً من موضعٍ قريب من الأرض. أحسستُ أني متورّمة بدمي، وكلّ شيء يؤذيني.

1- نبيذ بوجولي Beaujolais: نبيذ أحمر فاتح يُصنع من عنب (غاماي). منشؤه مقاطعة (بيرغندي) الواقعة في جنوب فرنسا-م.

الفصل الثامن عشر

ذات صباح، ثمة لطخةٌ وردية داكنة أكثر على قطن وردي. لون وردي على ورق المرحاض. جلستُ على أرضية حمّامي وجمعتُ يديّ في قبضتين، بهدوء شديد. أحصيتُ حتى الألف وبعدها أحصيتُ حتى الألف مجدداً، مخبرةً نفسي، «لا تركضي إلى الشارع وتصرخي». هيمن عليّ الحزن مؤقتاً قبل أن أسحب نفسي وأضع مزيداً من المناديل الورقية في داخل سروالي الداخلي. استمر اليوم. انتقدتُ قلة الإيمان، عدم الاستقرار الكوني، عدم ثبات مخاوفي وأفكاري. كنتُ أتفحص سروالي الداخلي مرةً بالساعة. لا مزيد من اللون الوردي.

***

إذاً من الممكن أن ينتهي الأمر في أيّ لحظة، قلتُ للطبيب أ. كيف يُفترض بي أن أتصدّى لهذه المسألة؟

***

مع ذلك عددٌ غفير من نساء التذاكر البيض تدبّرن الأمر طوال الوقت، قال لي. إنه شيءٌ مثير للاهتمام.

***

ماذا لو كنتُ أستحق هذا؟ قلتُ له، كما لو أنني عرفتُ أنه يُريد ذلك. ماذا لو كان السبب هو أني لستُ مناسبة؟

***

مدّ ذراعيه إلى الخارج. انتهى الوقت. المريض التالي.

***

في اللحظات السرية بالبيت، والباب موارب، أرحتُ يديّ المعقودتين على بطني ودفعتُ إلى الخارج. هذا لمجرّد أن أرى، خاطبتُ نفسي. مرّت ثلاثة شهور من دون دم. مدة غير طويلة، في حقيقة الأمر. رئتاي، حجابي الحاجز، احترقت كلّها بالتوتر. وضعتُ وسادة تحت قميصي القطني. هذا لمجرد أن أرى. في المرآة بالحمّام وقفتُ على كرسي كي يكون بوسعي أن أنظر إلى جسمي كلّه، من دون رأسي. كنتُ خائفة من لا مسؤولية هذا الفعل، وأنا واقفة على الكرسي، وكيف أنّ سقوطاً واحداً يُمكن أن يُبطل كلّ شيء.

***

جزءٌ مني فكّر بالسقوط. إني صادقة بكلّ معنى الكلمة. أنسحب إلى حياتي، فكرت، كما لو أنني أسقط من سريري بعد كابوس. وبعدها نزلتُ بحذر شديد عن الكرسي.

***

مركز الفنون في الحيّ السكني يعرض فيلماً وثائقياً، مضيتُ لمشاهدته في إحدى الليالي مع لونا. لم أكن أعرف أنّ الفيلم الوثائقي هو حول ولادة الطفل. وقد ذكّرني قليلاً بمسألة كم نحن محظوظات، بحيث نجرؤ على النسيان. راقبنا أيدي الأطباء في داخل جسم امرأة. بدلاً من الأصوات الآدمية دبلجوا موسيقى كلاسيكية بحيث أصبحت الصوت الأعلى. شيءٌ مُقزز، تمتمت امرأةٌ أخرى في ناحيتي الأخرى، إلّا أنني لم أستطع أن أرى مَن هي هذه المرأة في العتمة. مررت إليّ لونا كيساً من الشوكولاتة المُغلّفة، فرفضته. عيناي ظلّتا مدرّبتين على النظر إلى الأمام.

***

بوليس سري على كرسي عند الباب مدّ رِجليه وتثاءب، مرئي فقط خلف شاشة العرض. قميص أبيض، سروال أزرق داكن وسترة، مثل أيّ شخص آخر في حقيقة الأمر. مرة واحدة فقط رأيتُ مبعوثاً سرياً يجرّ شخصاً إلى الأرض، يجرّه بعيداً عن مجال الرؤية، بسرعة شديدة بحيث يحسب المرء أنه شيء ربما لم يحصل البتة، بسرعة شديدة بحيث لا يستطيع أيّ امرئ أن يقوم بردّة فعل. ومع ذلك، كنتُ سعيدة لأني ألبس قميصاً فضفاضاً. وجعلتُ

نفسي أشرب من كوب بلاستيكي مترع بالنبيذ أعطاني إياه شخصٌ ما، على الرغم مما أعرفه الآن. قلّما بللتُ شفتيّ، ومَطقتُهما معاً كي تكون صبغتهما داكنة. في أثناء عرض الفيلم الوثائقي خطرت ببالي أن أسكب النبيذ على جسمي. على الشاشة فم المرأة مفتوح في صرخة ألم بدت أنها استمرت على مدى أعوام، وعدم سماعها هو شيء أسوأ تقريباً، الرطوبة المُسننة لحنجرتها واضحة، وثمة شيء يبرز من الموضع الذي كانت تجرف فيه أيدي الأطباء المكسوة بالقفازات. أدركتُ برعب متعاظم أنّ الألم نفسه عاش في داخلي، وهو فقط ينتظر الفرصة المناسبة كي يخرج.

***

لمّا أتت الأضواء، نظر إليّ الناس وقد غطى النبيذ كلّ الجزء الأمامي من ثيابي. أوه، جرت لكِ حادثة، قالت لونا.

***

أخرجت مناديل ورقية من حقيبتها وجعلت تنظف بها قميصي، وسروالي الجينز بالنقر عليهما برفق.

***

أنا غليظة للغاية، أنا أقدّم اعتذاري. أنا متأسفة للغاية.

***

لم يساعدني شخصٌ آخر فيما كنتُ أدعك علامة النبيذ على الأرض الإسمنتية بحفنة من المناشف الورقية. في الهواء خارجاً، كان القماش الرطب بارداً على جلدي، ملتصقاً بي، فيما كنا أنا ولونا نسير متجهتين صوب البيت بصمت.

الفصل التاسع عشر

تصوّرتُ أنّ علاقتي بـ(ر) قد انتهت، كوني لم أشاهده أو أسمع منه منذ تلك الليلة التي دعاني فيها لتناول العشاء بصحبته، إلّا أنني لم أكن متيقنةً من ذلك إلى أن رأيتُه في البار ذات مساء بعد العمل. أتى إليّ مباشرة. كنتُ ما أزال منجذبةً إليه بانفعال، ربما منجذبة إليه أكثر من أيّ وقت مضى. هورموناتي تُثير دمي. الجميع قالوا إني بدوتُ جميلة.

***

قبل وصوله كنتُ أغازل امرأة حمراء الشعر. يدي على الجلد الناعم لكتفها العارية وكنتُ أقهقه. ثلاثتنا أجرينا حواراً متكلّفاً على مدى دقائق معدودات قبل أن يلتقط هو معطفي. دعينا نذهب، قال لي. كنتُ متأثرةً بوقاحته هذه. المرأة ذات الشعر الأحمر أشاحت بصرها كي تجد هدفاً جديداً.

***

في بيتي سخّن الحليب في قدر صغير، من دون أن يتبسم. أمسكتُه بقوة وخلعتُ سترته. سحبتُ حزامه. انتظري، قال لي، وهو يسكب الحليب في كوب لي. شربتُه بإذعان ومن ثم نزعتُ بنطلونه. قبّلتُه بفمي اللزج الشاحب. كان مستلقياً على الكنبة كما لو أنه يُعاني من الصداع، وظل رقيقاً بكلّ معنى الكلمة حتى بعد أن خلعتُ ثيابي وأتيتُ إليه وجثوتُ على ركبتيّ، وحتى حين غطيتُ نفسي، وأنا عارية، على أحد الكراسي.

***

لا يُمكنني أن أراكِ بهذه الطريقة، الآن، قال لي، وهو يدفعني بعيداً. إنها فقط طريقة غير حسنة. لقد دمرتِ كلّ شيء. كان غاضباً على نفسه وعليّ.

***

كنتُ أُريد أن أُكرِه الرقة كي تخرج من داخله. أردتُ أن أطوّقه بذراعيّ وأعتذر عما فعلتُه وأضع كرامتي جانباً وأتضرّع إليه. «أرجوك، أرجوك، دعنا نتدبر هذا معاً، إنه شيءٌ مُخيف للغاية أن نفعل هذا، لا أعرف ما الذي سيحصل لي».

***

إلا إنني لستُ – لم أكن قادرةً على أن أكون سريعة التأثر به. الهستيريا تزبد في داخلي. بدلاً من ذلك، وضعتُ معطف المختبر الأبيض العائد لي فوق عُريي. أنا طبيبتُك، قلتُ، وأنا دائخة. قُلْ لي كيف تحس، وسأداويكَ!

***

تطلّع إليّ. إنكِ تعرفين، في وقت من الأوقات فكرتُ أنّ باستطاعتي أن أتعاطف معكِ. إنما ليس الآن. الآن أنتِ تثيرين اشمئزازي، قال لي وبعدها غادر. ضربتُ السجادة بقبضتيّ، من دون أن أُحدِث ضجةً على الإطلاق.

***

لاحقاً أخذتُ حماماً على مدى وقت طويل وكدّستُ الفقاعات على سطح بطني. انتظرتُ الرعب، إلّا أنه لم يأتِ تلك الليلة. ارتديتُ ثوباً منزلياً ناعماً ودهمني النعاس بسلام، عارفةً، في الختام، أني وحيدة.

الفصل العشرون

جاراتي ذهبن إلى الطبيب أ أيضاً. لم يكن ذلك بناءً على اختيارهن؛ كان هو مُخصصاً لنا. مخاوفنا وأسرارنا لها أثر جغرافي. بوسعكَ أن تثبّتها بالدبوس على الخارطة. إنه لشيءٌ مُذهِل كيف أنه أبقاها كلّها واضحة، سهلة الفهم. إنه لشيءٌ مُذهِل، أيضاً، فكرته المتعلّقة بدراسة عقول الأشخاص الآخرين. أشياء متأججة ومنسجمة بشكل جيد، مختلفة غاية الاختلاف عن أشيائي، الموحِلة والمسدودة.

***

كيف هي صحتكِ؟ سألني الطبيب أ.

***

صحتي جيدة في حقيقة الأمر، كذبتُ عليه.

***

إنكِ تكذبين، قال بمرح. هنالك تصرّفات تخونكِ. لن أخبركِ ما هي هذه التصرّفات أم أنكِ ستتوقفين عنها. ارتدي ثيابكِ، أرجوكِ.

***

زحلقتُ ثوبي الشمسي الأصفر فوق رأسي ووقفتُ هناك بسروالي الداخلي فيما كان يقيس بطني بمقياس شريطي. قلّما بدا هنالك أيّ فارق، إلّا أنه يكفي أن يكون قابلاً للقياس الآن. ثلاث بوصات، قال بصوت مرتفع.

***

أخبريني عن رغباتكِ المُلحّة، قال لي، وهو يفرقع شريط القياس في يده.

أخبريني عن أحلامكِ. كان نَفَسه أشبه بالبركة، ومع ذلك لم يكن غير سار. أغمضتُ عينيّ على مدى ثانية، وأنا أركز على الأنين الناخس لمكيف الهواء.

***

التفاح، قلت. اللحم. التراب.

***

أحلام أم رغبات مُلِحّة؟ سألني، فأجبته «كلاهما»، وكتب شيئاً ما في دفتر ملحوظات. وأنا أدير ظهري له لبستُ الثوب من جديد، ذراعاي تمسكان بالنسيج. على طول جلدي كلّه، طبقة خفيفة من العرق. فكرتُ في أن أقتله، في أن أندفع شيئاً فشيئاً صوب مكتبه وأن آخذ فاتحة الرسائل المزخرفة التي كان يحتفظ بها بجوار أقلامه الحبر، كم سيكون سهلاً أن أقوم بذلك، غير أنني حين استدرتُ للوراء وجدتُه ينظر إليّ أصلاً، فتورّدتُ جرّاء الشعور بالذنب.

***

احتفظي بيوميات أحلامك، قال لي. دوّنيها. كلّ حلم من الأحلام. وقت ضغط الدم.

***

نفخ الحلقة البرتقالية حول ذراعي برقة نادرة، كما لو أنه يُهيّئ حيواناً لارتداء طوق. بدت ذراعي ميتة، غير ملتصقة بي، كما لو أنها من الممكن أن تطفو. سُحب الهواء من البلاستيك. عاودني الإحساس.

***

متى أذهب؟ سألتُ الطبيب أ مجدداً. الانتظار يقتلني.

***

هزّ رأسه فقط. لا يُمكنني أن أُجيب، قال لي. الأمر يختلف من امرأة إلى امرأة. الأمر خارج عن يديّ الآن.

***

هذه المرة كان قد حلق لحيته تماماً. من الصعب أن أتعامل مع وجهه المُتغيّر أبداً. في بعض الأحيان كنتُ أتساءل مع نفسي ما إذا كان الطبيب أ لا

شيءَ أكثر من شيء مُختلَق من نسج خيالي، هلوسة استدعتها رائحةُ الطلاء الجديد والسائل المُطهِّر.

***

هل تعتقد أني سأكون زوجةً وأُماً صالحة؟ سألتُ الطبيب أ. نسيتُ على مدى ثانية الرحلة التي قمتُ بها. نسيتُ أني صاحبة تذكرة زرقاء.

***

لا، قال لي برقة، من دون تردد، واستبد بي الاهتياج. وقفتُ وضربتُ الكرسي ضربة مدوية.

***

إنكِ فقط تبرهنين لي أني أكثر صواباً، قال لي الطبيب أ.

***

لماذا لا تستطيع أن تكون لطيفاً معي؟ سألته.

***

هذه ليست وظيفتي، قال لي. ما هي الفائدة التي أفعلُها لو أني أخبرتكِ فقط بما تُريدين أن تسمعيه؟

***

أعاد الكرسي إلى وضعه الصحيح وأشار عليّ أن أجلس، وأردتُ أن أمشي إلّا أنني جلستُ ودفنتُ وجهي في راحتيّ وسمحت له أن يواصل حديثه.

***

في تلك الليلة حلمتُ أني ولدتُ حجراً، وأني وضعتُ الحجر في فمي وابتلعتُه، واستيقظتُ من نومي وأنا أكابد الحزن. لم يكن باستطاعتي أن أدوّن هذا الحلم.

***

لما اتصلت بي هاتفياً موظفة الاستقبال في عيادة الطبيب أ في الأسبوع الذي كذبتُ فيه وأخبرتُها أني توقفتُ عن رؤية الأحلام بكلّ معنى الكلمة،

وأنّ النوم هو مجرد بطانية ثقيلة الوزن الآن، ومع أنها أثارت جلبةً ممزوجة بالشك تشبثتُ بقصتي. كانت أحلامي بيني وبين نفسي فقط. عارها وغرابتها. عليّ أن أمتلك شيئاً ما، أليس كذلك؟ سألتُ صورتي المنعكسة في المرآة، وساندتني بتوكيد صامت.

الفصل الحادي والعشرون

في أمسيات الربيع الصافية كنتُ أقضي بعض الوقت في ادخار الأسماء. دوّنتُ الكلمات التي تنسجم مع شيء ما في داخلي: «سوپرنو ڤا، مرسيدس، دَزرت». مرّرتُ يديّ بحذر على مُنتج في السوبرماركت وقلّبتُ الأسماء في ذهني. «تشيري. كليمنتين». أسماء عادت إليّ في يقظتي في الصباح الباكر، من كلّ شيء شاهدتُه في حياتي، كلّ شيء شربتُه وابتلعتُه. «الوكس. فِن. رايلي. ديلان».

***

دوّنتُ الأسماء على قصاصات ورق، مضغتُ الورق وبصقتُه في حوض المرحاض كي لا يرى أحد هذه القوائم. غير أنّ هذا غير كافٍ نوعاً ما، فهو لا يزال مصيراً مُغرياً، لذا بدأتُ أرصّع الأسماء بكلمات بريئة. «مِيلك»، كتبت. «يارن. تشيكِن». وحتى هذه الكلمات التافهة سُمّيت واكتسبت قيمةً جديدة، جاذبية جديدة، لأني حين أفكر في الأسماء أدركُ مسؤولية، وواقعية الفعل.

***

«پيكل»، فكرتُ لمّا نظرتُ في داخل الثلاجة إلى الجرار المُكدّسة هناك، المُغشاة بالبرودة. روزماري.

***

فكرتُ في ابتكار اسم، شيء لم يُسمع من قبل. إلّا أن العالَم مليءٌ بالأشياء المُسماة والمُفهرَسة، وفي الأقل من خلال تسمية الطفل الصغير على شيء واقعي أُشدّه بحبل إلى العالَم. إنها الحالة الطبيعية الوحيدة التي أفكر في أن أُهديها، بصرف النظر عن الحب نفسه.

الفصل الثاني والعشرون

سارت لونا بجانبي لمّا غادرتُ البيت متجهةً إلى العمل في صباح يوم ما. كانت عيناها محمرتين وجسمها مُرتخياً، كما لو أن الهواء خرج من جسمها. هل كلّ شيء على ما يُرام؟ سألتُها بآلية.

***

أشعلت سيجارتها. لا على الإطلاق! قالت، وهي تنفخ الدخان. مشكلة رومانسية. إنكِ تعرفين كيف هو الأمر. مع أنكِ ربما لا تعرفين، مع ذلك الرجل الذي تُحبينه.

***

أوه، انتهى ذلك، قلتُ. تهلّل وجهها بوضوح.

***

دعينا نشرب قهوة خالصة، قالت، ولم تكن لدي الجرأة على أن أقول لا.

***

في المقهى، ونحن نقوم باستدارة في طريقنا إلى العمل، انتبهتُ إلى لونا عبر الطاولة الرقائقية البيضاء. صديقاتي الأخريات الوحيدات هنّ النساء العاملات في المختبر، وصداقاتنا صداقات نظيفة -جراء المسح- بنحو غريب، كما لو أن الاعترافات والارتباطات الحميمة في ظل الكحول لا وزن لها في اليوم التالي. لونا مُبلبلة، مُبقعة بالعاطفة. شعرها سقط خارج دبابيسه. كانت تحكي لي عن مصيبتها الأخيرة، إمساكها برجل مع امرأة أخرى، وكيف يُمكنها أن تتنافس حين تكون جميع نساء التذكرة الزرقاء

مجرّد بغايا عنيدات لا يفكرن إلا في مطارحة الغرام. لستِ أنتِ ولا أنا، أوضحت، نحن مختلفتان، وحتى إنه شيءٌ أسوأ بالنسبة لنا لأنّ لدينا معايير.

***

لم أُشِر إلى أني لا أملك معايير وأنه في الماضي لم أشعر بوخز الضمير لأني استعرتُ معايير الأشخاص الآخرين. شربتُ قهوتي فحسب.

***

سحقت عقب سيجارتها في منفضة الرخام ذات الفتحات، بضراوة. هو حتى لم يأخذني بعيداً لمناسبة عطلة نهاية الأسبوع، بكت. أُراهن أن رجُلكِ فعل ذلك.

***

نعم، مرة واحدة، قلت. ذهبنا إلى فندق على الطريق العام يبيت فيه الرحالون.

***

مرة واحدة تكفي. أنا فقط أُريد الذهاب في نزهة! لا أُبالي مَن هو الشخص الذي يأخذني، قالت. المسألة هي أن يأخذني شخصٌ ما.

***

كلّما تَحَدّثت أكثر أحس أني منفصلةٌ عن كلّ شيء. أزيز جهاز إعداد القهوة، الصوت الفضي فيما أنا أفتح علبة السُكّر الصغيرة وأسكبها في كوبي. أردتُ أن أنكمش في داخل بطني وأختبئ هناك مع طفلي الصغير.

***

إنه ليس جيداً للغاية، قلت. إنه مجرّد مكان آخر.

***

بالمقابل أخبرتُها أنّ (ر) تركني كي يكون بوسعه أن يلتقط امرأة بتذكرة بيضاء، وسوف يكون له طفل صغير وهو جميل وسوف يدفعه هنا وهناك في عربة أطفال كبيرة. على الرغم من أنها كذبة أصبحتُ دامعة العينين وقامت لونا من مقعدها كي تضربني على ظهري. كيف تجرؤ تلك المرأة المُتخيّلة

على امتلاك شيء لا أستطيع أن أمتلكه -كيف تجرأت على أن تفعل هذا الشيء معي! نُسِفت دوائر عقلانيتي. الدموع سقطت في قهوتي. أشعلت لي لونا سيجارة وكنتُ أعرف أنه من المفترَض بي ألا أدخن، إلّا أنني أردتُ أن أدخن بنحو سيئ جداً، لذا حاولتُ ألا أستنشق الدخان وأطفأتُ السيجارة حين انتهى ثلثان منها. التقطتها لونا من المنفضة وأكملت تدخينها من دون خجل. أشفقتُ عليها، وعلى نفسي. لن أصبح هكذا بعد الآن- أقفز من أجل النفايات، وأخربش من أجلها.

***

أنا فقط مُتعبة من مسألة كم يُمكن أن يكون ذلك صعباً، قالت. امتدت يدها إلى علبتها المعدنية المُدلاّة من رقبتها، وهي حركة انعكاسية وغير واعية. أنا نفسي أقوم بالحركة ذاتها مرات عدّة في اليوم.

***

في ذلك المقهى نفسه، في يوم آخر، جلستُ وحدي بجوار النافذة واحتسيتُ كوباً من الحليب الحار مع القرفة، وأنا أراقب النساء والرجال يمضون غادين رائحين. أكياس ورق بيض، موضات ربيعية، الشعر مشدود للوراء. جرفتُ ملء ملعقة من رغوة الحليب وتركتها تسقط على المنضدة الحمراء. كان هنالك اشتعال كالجُرح في الموضع الذي ذاب فيه البلاستيك. كان هنالك بوليس سري يشتري القهوة عند الكاونتر، إلّا أنه لم يكن يُراقبني. كان يُربّت بأصابعه على فخذه المكسو بلون أزرق داكن كما لو أنه يخترع نغمة. على الرغم من أنني كنتُ أفكر عادةً في أن أصبح طبيبة، أما أن أصبح شرطية سرية فهو شيءٌ لم يخطر لي على بال. كانت هنالك بعض الأشياء الآجلة لم أتصوّرها لنفسي قط. إلّا أنه فيما بعد وقبل مدة ليست طويلة جداً كان هذا الشيء الآجل واحداً منها، أيضاً.

الفصل الثالث والعشرون

قبل النوم أحصيتُ الأيام. أشّرتُ بعلامة صغيرة مضي يوم آخر وبقيتُ فيه على قيد الحياة، أشّرتُ عدداً في دفتر الملحوظات الذي كنتُ أُخبئه في داخل وسادتي.

***

مئة وعشرة أيام. مئة واثنا عشر يوماً.

***

توقف الغثيان وتناولتُ الطماطم على الخبز المكسو بالزبد، المُرصَّع بالملح؛ تناولتُ شرائح لحم البقر والدجاج وعلب السردين المحفوظ أيضاً، بشراهة. شربتُ الحليب بالوعاء الذي يزن نصف ليتر، وجعلتُه يُقطّر على مقدمة ثوبي.

***

حين يأتي شرطي سري إلى المختبر لأيّ سببٍ من الأسباب أنتظرُ الضرب الخفيف على الكتف، وأُقاد خارجاً إلى سيارتي، الوجوه المرعوبة للنساء اللائي من حولي. لم يكونوا هناك من أجلي، إذ إنهم يحضرون دوماً إلى اجتماع مع مُشرِف شخصٍ ما أو لديهم عملٌ ما يتعلّق بالأمن، مع أنني أحياناً أتخيّل أنّ باستطاعتي رؤية عيونهم وهي تتحرك حركات سريعة خاطفة في اتجاهي، كما لو أنهم كانوا يعرفون أصلاً.

***

تبدين جميلة، قالت لي النساء اللواتي في المختبر وقت الغداء.

مجموعة منهن أتين إلى الموضع الذي أجلس فيه على المصطبة الواقعة خارج المبنى، آكل شطيرة من لحم فخذ الخنزير وحدي. هتفن مُبديات إعجابهن بشعري، وبشرتي. وضعن أيديهن النظيفة، الجافة على كلّ أنحاء جسدي. إنكِ تبدين في أحسن حال، قلن. لم يسبق لنا أن رأيناك تبدين في حال أفضل. تعالي خارجاً معنا هذه الليلة، لم تعودي تخرجين في المدة الأخيرة.

***

شربتُ كأساً واحدة وسكبتُ البقية في المرحاض، في أصص النباتات، لمّا تأهبت. نبتة السرخس الحزينة المسكينة على حافة المغسلة في وعائها البلاستيكي الأخضر. قتلتُها. قتلتُ حياتي. كنتُ أخلق شيئاً جديداً، شيئاً أكبر مني. كلّ شيء بدا شديد الوضوح، مع أنه كانت بحوزتي كأس واحدة فقط كي أشربها. أحسستُ أني غير ضرورية إلى حدّ كبير، ومع ذلك، ثمة عالَمٌ في داخلي لا أحدَ يعرف عنه شيئاً. أحدهم غطى عينيّ. شخصٌ آخر دسّ سيجارةً في فمي. سعلتُ فسقطت في المغسلة الرطبة. دعيني أجعد شعركِ من الأمام، قال أحدهم. وهبتُ جسمي لهم بسعادة.

***

ظننتُ أني رأيتُ (ر) في البار، ومضيتُ وراءه كي أكتشف أنه شخصٌ آخر ذو كتفين عريضتين وشعر مقصوص. المدينة تعج برجال يشبهونه، البلد بأكمله. أراه في كلّ تقاطع، في كلّ سوبرماركت، طوال ما تبقى من حياتي. هذا هو الثمن الذي يتعين عليّ أن أدفعه. بغض النظر عن الشيء الواضح. في مرآة الحمّام قلّما أدركتُ كم يبدو شكلي جيداً. كان هنالك كمّ كبير جداً من الدخان في كلّ مكان، ومن العسير أن أتنفس، وشربتُ مائي الفوّار وشققتُ طريقي عبر الحشود إلى المكان الذي كانت تجلس فيه النسوة المكسوات بالجوخ المتدلي على نحو مجعد حول إحدى المناضد، أريكة من القطيفة، وقنينة زجاجية زرقاء ذات زهرة شمس واحدة فيها في الوسط. كلّهم نظروا إليّ لكن من المحتمل أني تخيّلتُ ذلك، فهنالك طريقتان أو أكثر لتفسير كلّ شيء، بطبيعة الحال أنا أختار

أسوأ هذه الطرق. جلستُ وفعلتُ كلّ ما بوسعي كي ألمس أذرعهن وأضحك بشدة على نكاتهن. أردتُ أن يتذكرنني جيداً. أردتُ أن يتذكرنني في أفضل حالاتي.

***

إلا إنه بنحو متزايد في الأيام التالية، لمّا سرتُ في أرجاء المدينة، كان في مقدوري أن أحس بالنساء يتجمعن عند حافة مجال رؤيتي. نساء يتطلّعن إلى جسدي ويتساءلن. يمشين خلفي بخطوات قليلة ويتبادلن النظرات إحداهن مع الأخرى ويهمسن عند السوبرماركت حين أمرّ بهن، رافعةً رأسي عالياً، أضع السلّة أمام بطني كي تحميني.

***

في غرف تبديل الملابس بالمسبح، راقبتني النساء أيضاً. تلتحق بي لونا من أجل القيام بالرياضة الهوائية في الماء وقرصت جلد خاصرتي. الصدمة التي سببتها لي جعلتني أقفز بعيداً عنها.

***

مفاجأة! قالت لي.

***

مفاجأة مؤذية، قلتُ.

***

لا ليست مؤذية، قالت لي. لا يُمكن أن تكون هكذا.

***

عيناها براقتان. طافتا على بطني. أخذتُ منشفتي. خُيّل لي أنهما تطوّقانني في الحمام فيما أنا جالسة على الأرضية وركبتاي مرفوعتان إلى صدري، والماء ينهمر عليّ.

***

تالياً، وشعري رطب في هواء المساء، مضيتُ إلى سيارتي ورأيتُ أنّ إحدى المرايا الجانبية قد تهشمت. ولدى رؤية وجهي مُحطماً بتلك الطريقة

منحني ذلك شعوراً بالخذلان. قدتُ سيارتي بأسرع ما أستطيع، ولمّا وصلتُ إلى المنزل أغلقتُ الباب ورائي وقفلته وتهاويتُ على الأرض.

***

تركتهن ورائي - قلتُ إنّ حياتهن لم تكن جيدة بالنسبة لي. كنّ مُحقات في أن يشعرن أنهن مخدوعات. في مقدوري أن أفهم ذلك. ومع ذلك في الوقت ذاته أحسستُ أني مهجورة. نساء التذاكر البيض لن يتقبلنني. إنه لشيءٌ ينمّ عن الوحدة أن أشعر هكذا، الوحدة الحقيقية. وددتُ أن يكون هنالك شخصٌ واحد سعيد من أجلي. لم يكن هنالك شخصٌ واحد يسعد من أجلي.

الفصل الرابع والعشرون

الاستدعاء للمثول أمام القضاء أتى قبل العمل ذات صباح. فيما كان البوليس السري يُنزل الرزمة التي كانت متكتمة، لم تكن هنالك حاجة للتكتم الآن. في الحقيقة من الأفضل أن يعرف الجميع، كي لا يكون هنالك سبيلٌ للرجوع. لو حاولتُ أن أرجع، جيراني الملتزمون بالقانون سوف يرشقونني بالخضار، أو بأسوأ من ذلك. أعود كي أجد نوافذ بيتي مهشمة، وحاجياتي مسروقة، وإذا ما تجرأت وأظهرتُ وجهي فسوف يأخذونني مجدداً بالسيارة بعيداً، أو يقتلونني بأيديهم المجرّدة.

***

أتت دقةٌ على الباب لما كنتُ أغتسل. ومن ثم دقةٌ أخرى.

***

مئة وخمسة وعشرون يوماً، كررتُ مع نفسي. استندتُ إلى المغسلة وغسلتُ يديّ. كنتُ قد لبستُ ثيابي أصلاً، وشعري مسحوب للخلف بإحكام. قبل أسبوع مضى وضعتُ الرزمة في صندوق السيارة، جنباً إلى جنب مع حقيبة النوم القديمة العائدة لي وحفنة من الثياب.

***

مضيتُ خارجاً كي أُقابل البوليس السري. كان يحمل مظروفاً أصفر، مختوماً. بدا أشبه بوالد شخصٍ ما، هو رجلٌ عجوز ومرح لا يسعه أن يتسبب بأذىً لأيّ فرد. طاب صباحك! ألقى عليّ التحية، وهو يُسلّمني المظروف. أخرج سجائره وأشعل واحدةً بأزيز طويل.

***

كان القرع على الباب قد لفت انتباه جيراني. أتوا إلى أبوابهم في ملابس الليل وملابس العمل العائدة لهم. أدركوا السيارة السوداء الصقيلة للبوليس السري، بزته النظامية الزرقاء الداكنة الجديدة تُشير إلى أهمية زيارته، والمظروف الذي في يديه. لم أجرؤ على النظر مباشرةً في عينيْ أيّ فرد، ولا حتى في عينيْ لونا، إلّا أني سمعتُها تصرخ مستغربةً، كالا! ما هي المشكلة الجديدة التي وقعتِ فيها الآن؟

***

يتعين عليكِ أن تذهبي حالاً، قال لي البوليس السري. لديكِ نصف يوم كأسبقية، اعترافاً بخدمتكِ الجليلة. مدّ ذراعيه إلى الخارج. كلّ شيء فيه بدا مسترخياً. يبدو من المحتمل أنّ الأشياء لم تكن سيئة كما ظننتُ.

***

كان هنالك همس. بوسعي أن أحس بنظراتهم على بطني. أحدهم بدأ يهسهس.

***

خمس دقائق، قال لي. لا تقفي هناك فقط.

***

في المنزل فتحتُ المظروف، إلّا أنه كان خالياً. تأكدتُ من أنّ الفرن مُطفأ وأخذتُ مفاتيح سيارتي من الدُرج، التقطتُ مقص المطبخ وفرشاة الأسنان العائدة لي ودفتر ملحوظاتي، وزحلقتُ سترتي المصنوعة من قماش الدنيم القطني على كتفيّ. صفار بيض متخثر على الطبق الذي في المغسلة، لطخةٌ براقة. عُدتُ مُسرعة إلى الخارج، حيث كان ينتظر البوليس السري.

***

جاهزة؟ قال لي، وهو يرمي سيجارته على الأرض إلّا أنه لم يطأها بقدمه. هذه هي الشجاعة. شكراً على أخذ هذا الأمر ببساطة.

***

ازداد الهسيس فيما كنتُ أتفحص صندوق السيارة. لم أتمالك نفسي

ونظرتُ إلى الوراء كي أجد جداراً من النساء، القاسيات الوجوه، يتحركن ببطء وراء ربوع أبوابهن الأمامية. أقدامهن تجاوزت عتبات بيوتهن. بعضهن لا ينتعلن أحذيتهن. البوليس السري رفع يده كما لو أنه يقود فرقة موسيقية، وتوقفن عن الحركة، ولكن لمّا فتحتُ باب مقعد السائق بدأن يندفعن إلى الأمام من جديد. مكتبة سُر مَن قرأ

***

النظام، أرجوكِ، هتف المبعوث السري. نفخ في صفارة حمراء لامعة كالتفاحة، طويلة وحقيقية. كان بوسعي أن أسمعها مع أن أبواب السيارة مُغلقة، حتى وأنا أبدأ بتشغيل المحرك. الجلد حار تحت رِجليّ أصلاً. تعرّقتُ عبر القماش الخفيف لسروالي.

***

نصف يوم. اثنتا عشرة ساعة. الطرقات طويلة وملتوية. البلد شاسع. لا أعرف إلى أين أنا متجهة. الخارطة لا تزال في صندوق السيارة. ينبغي لي فقط أن أضغط قدمي على دوّاسة البنزين وأمضي. أحدهم ضرب بقوة غطاء محرّك السيارة المعدني لمّا بدأتُ بالحركة، وبعدها ضرب آخرون بقوة صندوق السيارة، النافذة الخلفية، لكنني لم أرَ مَن هم. زدتُ في السرعة. أحدهم رمى شيئاً رقيقاً ضرب السيارة مُحدِثاً صوتاً مكتوماً.

***

كان وهج الصباح الباكر مُبهراً. في المرآة يُمكنني رؤية بيتي وقد ملأته حشود كبيرة، البيت الذي هو مُلكٌ لي ولي وحدي، البيت الذي ينبغي أن أقضي أيامي فيه. لا أحدَ يركض ورائي. انطلقتُ بقوة على الطريق واختفيتُ في بحر دقائق؛ من السهل للغاية أن أكون منفية، من السهل للغاية أن أبرح المكان وأن يتركوني وراءهم.

الطريق

الفصل الأول

ملأتُ السيارة بالبترول في أول فرصة أُتيحت لي. كنتُ أعرف أنّ حيازة السيارة بأية حال هي مشكلة. لا يوجد مبعوث سري في المرأب، مع أنه توجد كاميرا رقابة أمنية حاولتُ ألا أحدّق فيها. هنالك نسوة قبلي كن قد هربن، وكان لا بد أن تكون هنالك نسوة، لأنه شيء لا يُصدّق ألا تكون هناك نسوة، لأنّ الإيمان بشيء ما هو القاعدة الأولى للنجاة.

***

قدتُ سيارتي على مدى ساعات، سالكةً الطرق الرئيسة من أجل السرعة، مع أنه لم تكن لديّ أدنى فكرة حول مسألة ما إذا كان وعد البداية المبكرة هو وعداً صحيحاً. في موقِف جانبي، يعلوه غبارٌ أحمر أشبه بالسعف، توقفتُ أخيراً من أجل الراحة. وضعتُ أقراص الفيتامينات تحت لساني ومن ثم دفعتُ مقعد السائق للخلف إلى أقصى حدّ ووضعتُ رأسي بين ركبتيّ كما لو أنني في حالة إغماء، وشرعتُ أبكي، وجعلتُ جسمي ينكمش على نفسه.

***

أنا أنثى حيوان من ذوات الدم الحار. أنا دمية وثمة دمية أخرى في داخلي. أنا الدجاجة التي فتحتُها ذات يوم كي أكتشف أنّ المعدة قد تُركت في جوفها بالخطأ، كيسٌ ذو بريق لؤلؤي لا يزال مليئاً بالحبوب من وجبة طعامها الأخيرة.

***

على ساعة السيارة، أخبرني العَرْض أنه عما قريب ستكون قد انقضت اثنتا عشرة ساعة. في القريب العاجل سينتشر الشرطة السريون

من المكان الذي شيّدتُ فيه بيتي، باحثين عن سيارة تُشبه سيارتي، وعن امرأة تُشبهني.

إنما يتعين عليّ أن أستغرق وقتاً معيناً كي أبكي على بيتي، بيتي المسكين الذي لم يفعل شيئاً خاطئاً، بيتي الذي يعج الآن بأناس يكرهونني ودُمرت فيه حاجياتي كلّها، وفيما هو يبدو شيئاً تافهاً أن يبكي المرء على أشياء مادية في ظل هذه الظروف، تلك الحاجيات كلّها وصلت إلى حياتي، ومن الصعب أن أفكر في ذلك.

***

أردتُ أن أتحدّث مع الطبيب أ، وكان هذا الدافع شديد الاهتياج. أردتُ أن أرجع إلى حجرة العيادة الطبية، صوت مكيف الهواء مباشرةً في أذنيّ، إلّا أنها كانت بعيدة جداً، وأنا منفصلة إلى حدّ بعيد عن الجميع أصلاً.

***

بعد أن تخطّاني البكاء جلستُ في السيارة وذراعاي تطوّقان رُكبتيّ ورحتُ أراقب الفلاحين وهم يعتنون بمحاصيلهم في الحقول، جاثين على رُكبهم وراحات أيديهم تتخذ شكل الأكواب حول النباتات الخضر البادئة في النمو. الرؤوس مُبتلَعة في أغطية أو شاش، بهدف حمايتها من المبيدات. كم هو شيء حسن أن تكون شخصاً يُنبت الأشياء، يحفر في داخل التربة وينتظر. يبدو هذا شيئاً يسيراً.

الفصل الثاني

توقفتُ في بلدة موسمية، بلدة قد تكون منشغلةً بزائري اليوم الواحد في عزّ الصيف إلّا أنها الآن تهجع خالية. نفايات بلاستيكية نُثرت هنا وهناك في بالوعات الطريق الرئيس. معظم المحال التجارية مُغلَقة، إنما كان هنالك حمّام عمومي لا يزال مفتوحاً. نزلتُ درجاته وصعدتُ الباب الدوار. الأرضية رطبة، كما لو أنها فاضت منذ عهد قريب. أصواتٌ منحرفة أتت من مراحيض الرجال، الباب المتاخم، أو ربما صوتٌ واحد فقط انكسر. الصوت أو الأصوات لم تقترب أكثر وسرعان ما توقفت، وهذا الأمر زاد الطين بلّة.

***

ثمة مرآة مربعة تماماً على الحائط، مُنقطة بالصدأ. خطرت ببالي فكرة. تناولتُ مقص المطبخ من حقيبتي، لويتُ شعري في قبضة يد واحدة، نشرتُه بواسطة شفرة المقص. كان شعري الطويل جميلاً في حين بقية أجزاء جسمي لم تكن كذلك، إلّا أنني لم أتردد. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ قلائل ومن ثم تدلّى بنحو غير منتظم من حول فكي. أحسستُ أن رأسي أخف بكثير. تركتُ شعري على الأرض كي يجده شخصٌ آخر، ورحتُ أخطو هنا وهناك حول الجلد المسلوخ الداكن العائد لي بحذر بالغ.

***

كان ثمة محل واحد مفتوح على أية حال، محل متعدد البضائع، يبيع الحاجيات كلّها من الحليب إلى مِفك البراغي. تلعثم المصباح الفلورسينت. في الخلف، بجوار بعض لفات ورق التغليف، وجدتُ علبة من ورق اللعب الأبيض الصلد. كان ورقاً – صقيلاً يصلح لأن يُصبَغ أو يُرسَم عليه.

***

لمّا رجعتُ إلى السيارة، كنتُ أقفز في كلّ مرة أرى فيها رجلاً أو امرأة يرتدي أيّ واحد منهما اللون الأزرق الداكن. أشياءُ كئيبة ومُروِّعة اكتظّت في زوايا مجال رؤياي، كانت تكشف أنفسها دوماً لتكون شجرة، زاوية منزل، شكلاً مقطوعاً من الشمس.

***

ثمة فندق مفتوح يقع ما وراء البلدة التالية، في طريق صغير وملتو كان يُفضي بعيداً إلى داخل الجبال. تقع بلدة طفولتي في مكان أبعد شمالاً أيضاً، إلّا أنني لن أرجع. في الأرجح هنالك مبعوثون سريون يكمنون هناك أصلاً. كان جنون الارتياب العائد لي أشبه بمادة طبيعية، رسم بالألوان المائية لوّن كلّ شيء على نحو خفيف. ومع ذلك ركنتُ السيارة كما لو أن القيام بذلك شيءٌ طبيعي، كما لو أن كلّ شيء على ما يُرام.

***

ثمة صبي بتورّد ناجم عن حَب الشباب على جبينه يرتدي قميصاً أحمر اللون من دون ربطة عنق كَتبَ اسم أسرة (ر) على اللائحة، أعطاني مفتاحاً ذهبياً. فعلٌ صغير من أفعال التمرّد. كنتُ أفضّل اسمه على الدوام. «معذرة، زوجي»، فكرتُ برضا. لم أرَ أحداً في المصعد الكهربائي، وانتبهتُ إلى الأرقام وهي تتحرك إلى أن وصلنا إلى الطابق الذي أسكن فيه. رنّ جرس لمّا وصلنا، وسجادة ملتفة كالدوامة من نسيج صوفي مزركش أفسحت الطريق إلى آجرات باهتة مربعة الشكل في المجاز نفسه، ومصباحٌ واحد فقط في السقف يعمل. مشيتُ واجتزتُ ثمانية أبواب زُرق. بابي هو الباب الأخير. حول قفل الباب ثمة خربشة كما لو أن بعض الأشخاص وجدوا صعوبةً في فتح ذلك الباب بالأخص. فتحته بطقطقة، وأغلقتُه ورائي.

***

وجدتُ غلاية شاي صغيرة على الخوان، ملأتُها ووضعتُها كي تغلي. فتحتُ الصنابير المتدلية من الحمام الذي بلون ثمرة الأفوكاتة[1] وأبقيتُ يدي

1- الأفوكاتة avocado: نبات أميركي استوائي مثمر من فصيلة الغاريات ذو ثمر شبيه بالإجاص-م.

تحتها إلى أن أصبح الماء ساخناً للغاية. الضوء في الحمّام ساطع للغاية إلّا أنني تركتُه هكذا كي يكون بوسعي أن أقوم بجرد جسمي. كان مذاق الماء معدنياً لمّا غطستُ رأسي تحت السطح. ثمة بقع صدأ حول قواعد الصنابير. معدتي برزت فجأةً كما لو أنها خاوية. التصق شعري برأسي ورقبتي. كان هنالك خدش في كاحلي لا أتذكر أني أُصبتُ به، وفكرتُ أنّ دمي ودم الطفل الصغير في داخلي يمتزجان، وما إذا كان ثمة أيّ انفصال بينهما، وما إذا كنت أعتبرهما دماً واحداً أم اثنين. يا للطفل الصغير المسكين، إذ ينبغي له أن يشرب دمي. وضعتُ نفسي تحت الماء مجدداً. فتحتُ عينيّ كي يكون باستطاعتي أن أرى الضوء.

***

تساءلتُ ماذا يعمل (ر). لم يكن في مقدوري أن أتخيّله عارياً في الحمام، شديد الحساسية، مُعرّضاً للغرق إلى حدّ كبير. لم يكن بوسعي إلّا أن أتخيّله مستلقياً على كنبتي، مقرراً أن الرغبة توقفت هناك. تساءلتُ ما إذا كان يُمهّد أرضية من دوني - باحثاً عن المرأة الجديدة، في مكانٍ ما من المدينة، بيدين نظيفتين وعينين باردتين. ربما لن توافق عليه امرأة بتذكرة بيضاء، فكرتُ بضراوة. إلّا أنني كنتُ أعرف أن نسوةً كثيرات يوافقن عليه.

***

أبي انتقل من المدينة إلى الريف. حياة أفضل، قال. فكرتُ فيه وما إذا يُحتمل أن يكون هناك في المنزل الذي نشأتُ فيه، يمضي من حجرة إلى حجرة، ويكنس ألواح الأرضية ويدعو أصدقاءَه لشرب البيرة وممارسة لعبة الورق كما في الأيام الخوالي. حياة هادئة، مطمئنة. لعله الآن في عِداد الأموات. اتصلتُ به هاتفياً ذات مرة من المدينة كي أُخبره أني جعلتُ من حياتي هناك آمنة. كلمة (آمنة) أضحت مصطلحاً نسبياً. قال «حسناً» و«احترسي»، ومن ثم بشكلٍ من الأشكال لم نتكلّم ثانيةً، كما لو أنه الآن قد أنجز واجبه. لا أعرف إن كنت اشتقتُ إليه. فكرتُ في الماء الصافي للبلوغ، الطين الذي يتعين عليكَ أن تسبح من خلاله حتى تصل إلى هناك. الفتاة في الغرفة الأخرى، الفتاة الوحيدة التي مُنحت لها تذكرة بيضاء. وهي تمرّ بسيارتها وتتجاوزني، وهي بلا حراك، ومصونة.

***

طلاء الجدران الذي بلون الخوخ يحتاج إلى أن يمسه المرء. خرجتُ من الحمّام وسحبتُ الستائر الشبكية. موجةٌ من الغثيان؛ رجعتُ إلى الحمام وأمسكتُ بجانبَي المغسلة. شعري بحاجة إلى أن يُغسَل. كنتُ طائر سنونو في الضوء. لم أفكر إلا في الاستقامة، وكم تبدو بعيدة عني. الاستقامة بلدٌ لا يسعني الوصول إليه. الاستقامة لا تسكن في حجرات الفندق. الاستقامة حالةٌ من حالة الثبات، ولا تشبه حالات جسمي المتغيّرة كما هو موجود الآن. سائر الأجسام التي مرّت عبر هذه الغرفة تركت انبعاجاتها في الفراش وبصمات أصابِعها على الأكواب مثلما فعلتُ، تركت حزنَها كي يتراكم مثل الجلد الميت لغبارِها. كم عدد النساء اللائي أصبحت إحداهن حبلى؟ الكلمة لا تزال يبدو النطق بها مُروِّعاً. حبلى! همستُ. لم أجرؤ على نطقها بصوت أعلى.

***

لمّا أصبحتُ جافةً وملتفة بمنشفة خفيفة نظيفة جردتُ حاجياتي. وحين أفرغتُ جيوب سترتي وجدتُ أحمر شفاه أحمر داكناً، وهو تذكار من زمن آخر. كنتُ أُريد أن أكتب شيئاً على الجدار، شيئاً سرياً، إلّا أني لم أكن جريئة بما يكفي. وبدلاً من ذلك وضعتُه على شفتيّ وانتبهتُ إلى وجهي القديم - الجديد وطبعتُ قبلةً على المرآة، كي أقول «أنا هنا»، وبعدها مسحتُ الطبعة. استعملتُ مقص المطبخ كي أقص تذكرة بيضاء مزيفة من علبة ورق اللعب التي اشتريتُها، مستعملةً تذكرتي الزرقاء كدليل. في حقيقة الأمر لم ينفع ذلك قيد أنملة. اهتزت يداي. قصصتُ نسخةً أخرى، وبعدها نسخةً ثالثة، كلتاهما أفضل قليلاً. دسستُ التذكرة الزرقاء في محفظتي اليدوية، في الخلف مباشرة. في علبتي المعدنية الصغيرة المُدلاّة من رقبتي، بدت التذكرة البيضاء مزيفة. أطفأتُ المصابيح في حجرة النوم وفتحتُ الستائر على مدى ثانية كي أتصفح جانب الطريق. حسبتُ أني رأيتُ شكلاً بشرياً داكناً واقفاً في موقِف السيارات، لكني لمّا حدّقتُ في الشكل البشري توارى عن الأنظار.

الفصل الثالث

في الصباح أحسستُ بعينَي الصبي في الاستقبال تحفر في ظهري فيما كنتُ أغادر، إلّا أنني حين التفتُ وجدتُه يتصفح أوراقاً معينة. إنه شيء ممكن. كنتُ أُعلّقُ أهمية كبيرة للغاية على سوئي، على أية حال، وما من أحد يعرف ما أنا حتى الآن. أنا شخصٌ آخر بشكلٍ مؤقت، وفي الواقع هذا نوع من الهِبة أيضاً، فكرتُ، لأني كنتُ أُريد دوماً أن أُجرّب حياةً أخرى، والآن أستطيع أن أفعل. تظاهرتُ في السيارة كما لو أنني في طريقي لاصطحاب طفلي من المدرسة، وأن هنالك زوجاً يحضر غداءً صحياً لنا فيما أنا أقود سيارتي في طريقنا صوب البيت، وأنه حالاً سيقفز ابني إلى داخل السيارة ويُخبرني أنه يُحبني. صورة الطفل غير واضحة - لا يسعني أن أتصوّر الأطفال باعتبارهم أيّ شيء أبعد من بالغٍ منكمش، ينظر بصورة مُلِحّة إليّ من المقعد الخلفي. لمّا تطلّعتُ في مرآة المنظر الخلفي أدركتُ أني حتى لم أمشط شعري بالفرشاة في ذلك اليوم، وأنّ وجهي المألوف أكثر من اللازم متغضن من جراء الهمّ حيث نمتُ بشكل غير مُتقَن على الوسادة. وعلى العموم، انتهى السحر.

***

تكون قيادة السيارة رتيبة حتى مع التيار الخفي للخوف، وغريزة الهَرَب. فتحتُ المذياع وبعدها أغلقتُه. لم أكن متيقنة تماماً ماذا كان مُتوقّعاً مني. بين حينٍ وآخر، في أوقات متقاربة، أنحرف إلى طريق جانبي آخر، وأتخذ طريقاً غير مباشر يُزيد عليّ صعوبة اجتيازه. كان الافتقار إلى تهديد واضح شيئاً مُضعِفاً للعزيمة، مُهدِئاً، كما لو أنني كنتُ أُجرّ. كنتُ سعيدة لمّا قمت بذلك

في أثناء يوم آخر وقررتُ أن أختار فندقاً آخر، وأن أبتعد كثيراً عن الطريق. هذا الفندق تعم فيه النباتات الخُضر - سجادة ناعمة، جدران بلون التفاح الأبيض، داكنة أكثر على الألواح الخشبية المتصلة التي تزين الحيطان. ثمة امرأة هذه المرة تجلس إلى مكتب الاستقبال، أصغر مني سناً وحلوة، شاردة الذهن، إلّا أنني أعتقد أنني وثقتُ بها أكثر من النسيان الفطري لدى الرجال. ناهيك عن الطبيب أ، شعرتُ أنهم أقل قدرة على إدراك حقيقة أفكاري، ومشاعري، وهواجسي.

***

في الحجرة، يُخيّم قلقٌ قديم. وثمة رغبة عارمة في الاندفاع إلى الأمام. مضيتُ أتمشى في الطريق النازل من الفندق في الغسق كي أزعزع بعض الطاقة من عظامي. من حولي المنظر الطبيعي مُسطح وزاخر بالخث[1]، عشبٌ منبوذ، ومتكتل وحقول ممتدة بعيداً. رفع خروفٌ في البُعد رأسه كي يتطلّع إليّ ولم يتوقف عن مراقبتي إلى أن تجاوزتُه بمسافة طويلة. اشتقتُ إلى الطرقات النظيفة للضواحي وإلى نظام حديقتي، العشب، البذور التي أدخلتُ فيها عبر أشكال قمعية أيّ مواهب أمومية مُبكرة.

***

كان هنالك بار صغير ربما على بُعد نصف ميل على الطريق. في الداخل، الجدران مُغطاة بمصابيح تومض بلون أحمر ثم أخضر، أحمر ثم أخضر. امرأة شقراء أنيقة صبّت مشروباً أسود في كؤوس ضيقة للغاية، دفعتها على طول البار. لم يكن هنالك أشخاص كثيرون، غير أنّ أولئك الأشخاص الموجودين هناك بدوا قادرين على الاهتياج. تسللتُ إلى داخل البار والتفت الجميع إليّ. صبّت لي المرأة كأساً قبل أن أتمكن من قول لا. احتفلي معنا، قالت لي. أخذتُ الكأس ووضعتُها على شفتيّ. كان المشروب ساخناً في حنجرتي، له طعم اليانسون.

***

تحتفلون بماذا؟ سألتُها، وأنا مرتبكة. عودة الثعلب الأزرق، ردّ عليّ

1- الخث peat: فحم حجري لم يكتمل تحوّله إلى كربون-م.

رجلٌ بوجه وردي، كان أطول مني برأسين. قرع كأسه بكأسي. ثمة ثعلب من نوع ما يعود إلينا حين يُصبح المناخ دافئاً. إنه ثعلبٌ جميل غاية الجمال. وهو نادر جداً. لن تجدي مخلوقاً يشبهه في أيّ مكان من بلادنا.

***

بلوزتي السوداء أخفت شكلي. ذبتُ في عتمة البار. كان الجميع يتكلّمون عن هذا الثعلب. أحدهم أراني صورةً فونوغرافية له، ثمة مربع رطب بين قائمتيه الأماميتين.

***

لكنه ليس أزرق، قلتُ، وضحك الجميع كما لو أنني قلتُ شيئاً مرحاً وصاخباً، وتبللت عيون بعضهم بالدمع. الأزرق لا يعني الأزرق دوماً، شرح لي أحدهم. آ، أجبتُ، إلّا أن هذه الملحوظة أقلقني أكثر مما يجب أن تفعل. وددتُ أن أتشبث بالأشياء المعروفة، بالحقائق والنظام الذي يحكمها.

***

ما اسمكِ؟ سألوني، فأجبتُ، آيريس. اسمٌ جميل، قال الأشخاص الحاضرون هناك، وشربوا نخبي.

***

وزوجكِ؟ أين هو؟ سألتني نادلة البار خلسة.

***

إنه يشكو من الصداع، قلت. إنه هناك في الفندق. وأنا هكذا امرأة بتذكرة بيضاء مع مشروب في يدي. وهكذا، أنا أنتمي إلى مكانٍ ما. أرغب بأن أجرّب حياةً أخرى.

***

وجدتني في زاوية مع رجل أصغر مني سناً، وثمة وشاح صوفي بلون السماء ملفوف ثلاث مرات حول رقبته. بدا لطيفاً كشقيق. أزرق، قلتُ بصوت مرتفع، وأنا ألمس وشاحه. هذه الضوضاء كلّها، قال لي بهدوء شديد. ظلّ الجميع يقهقهون لأني طلبتُ الماء مراراً. كان الرجل ذا شعر

أسود مجعد ووضع يده، برفق، على ساعدي. وبعدئذ طوّقني بذراعه. لم أشأ أن أقول أيّ شيء في حالة إيذائه، كان ودوداً للغاية على أية حال. كانت المرأة الشقراء تراقب من وراء البار، وهي تصقل الكأس نفسها المرة تلو المرة. اعتذرتُ منه ومضيتُ إلى الحمّام، حيث دلقتُ ما بقي من مشروبي في المغسلة، وملأتُ كأسي مجدداً بماء الحنفية. إلّا أن الموعد قد أزِف وكنتُ ثملة أصلاً، جسمي لم يعد متعوّداً على الكحول. معذرة، قلتُ لمعدتي من جديد. معذرةً، معذرةً، في الضوء الكهرماني العطوف لبصلة مصباح ميتة، وصبغتُ شفتيّ بأحمر الشفاه مُجدداً.

***

كان الرجل ذو الوشاح ينتظرني. تعالي خارجاً، قال بإلحاح، لذا تبعتُه خارجاً إلى الطريق. أصوات الأشخاص من الداخل أرغَت وأزبَدت.

***

هل أنتِ من المدينة؟ سألني الرجل، وهو يُشعل سيجارة. أومأتُ برأسي علامة الإيجاب. أنتِ إذاً لا تحتفلين بمهرجان الثعلب، قال بقناعة، وهو يزفر ريشةً في الهواء. أنتِ في الأرجح ليست لديكِ فكرة عنا. لعلكِ تحسبين نحن بُلهاء غير متحضرين.

***

أنا لا أعتقد هذا الاعتقاد، أجبت.

***

هل لديكِ زوج حقاً؟ سألني.

***

أجل، قلتُ.

***

كيف هو شكله؟ سألني.

***

فكرتُ ثانيةً. طويل القامة، لطيف للغاية، قلتُ.

***

رائع، قال لي. أحسنتِ صنيعاً.

***

أخذ يديّ فيما كنتُ أخطو للوراء كي أتحاشى الدخان. أرجوكِ، على أية حال، خاطبني، وعرفتُ ماذا كان يسأل إلّا أنني كنتُ مرتبكة، لا أزال، كما لو أن المساء بأكمله يمتلك شرائح مفقودة منه، على غرار فترات التعتيم التي تخلّلت أعوامي الأولى في المدينة، العقل يُعالج ما يحتاج إلى المعالجة[1]، وغرابة هذا الأمر، أن أُستدعى إلى نسخة أخرى من ذاتي، جعلتني أنحني إلى الأسفل على مدى ثانية.

***

خرج حشدٌ من الناس من البار، حاملين الزجاجات. تعالي، تعالي، قالوا. نحن ذاهبون إلى حفلة في منزل (ت).

***

ينبغي لكِ أن تأتي معنا، خاطبتني نادلة البار. هيا، تعالي بصحبتنا، دعينا نلهو ونمرح قليلاً.

***

كان الرجل ذو الوشاح يقبض على ذراعي ومن ثم أفلته. نعم، عليكِ أن تفعلي، قال لي. تعالي، سأرشدكِ إلى الطريق.

***

يتعين عليّ الرجوع، قلتُ له.

***

لا، إنكِ لا ترجعين، قال لي، وبسمتُه في غاية الجمال.

***

مشينا جميعاً عبر الأرض البوار. القمر عالٍ وكلّ شيء بارد. كان جسمي مُرتخياً. أصوات الجميع وهم يتكلّمون ويضحكون انعكست من حولنا.

1- العقل يُعالج ما يحتاج إلى المعالجة the brain processing what it needed to process: هنا نقصد أنّ العقل يتخذ سلسلة من الأفعال أو الخطوات التي من شأنها أن تُحقق غاية مُحدّدة-م.

أحسستُ أني ودودة ومستأنسة. كنتُ لا أزال سكرانة. لمّا مرّر إليّ رجلٌ عريض ذو لحية زجاجة خمر شربتُ منها مباشرةً على كلّ حال، كميةً قليلة لا غير. هذا صحيح، قال لي. أترين، نحن نُعامل ضيوفنا بشكل حسن.

***

تساءلتُ ما إذا كنتُ مازوشية عن قصد أم أنني مجرّد فراشة تتخبط في اللهب. تساءلتُ ما إذا كانت الأمومة تحمل لي مناشدةً كهذه لأنها مازوشية لا يسعكَ أن تدعها وشأنها. رفعتُ رأسي إلى الليل.

***

كانت الحفلة في كوخ مدسوس في الأرض السبخة، محاط بالصخور. جميع المصابيح مُشتعلةً. فتح رجلٌ هزيل الباب، لحيةٌ داكنةٌ تنمو على عظام وجنتيه. ما الذي جعلكِ تقطعين هذه المسافة الطويلة، قال لي. كانت هنالك كنبة مكسورة في الحديقة الأمامية وسط أحواض الزهور، كان جلدها متغضناً ومقشّراً، إلّا أن الأشخاص كانوا جالسين عليها على أية حال. الرجل ذو الشعر الداكن انحنى لنا بإسراف. ادخلوا إذاً كما أظن، قال لنا. الجميع ضربوه برفق على كتفه. كنتُ آخر الداخلين. أخذ يدي، برفق، ومن ثم أسقطها من دون أن يقول شيئاً.

***

كان هناك أناس أصلاً، يدخنون في الأرجاء كلّها. هذه آيريس، صديقتنا من المدينة، قالت نادلة البار. سوف نُريها حسن الضيافة التي تمتاز بها بلادنا. مع أنه ليس جيداً بما يكفي، أين مشروبها؟

***

مُرّرت الكؤوس من يد إلى أخرى، وثمة مزيدٌ من المشروب الداكن. اشربي، قالوا لي. سوف تهينين مضيفنا المبجل إن لم تشربي. والرجل المُسمى (ت) كان هناك يغلق الباب ويدنو داخلاً إلى عمق الغرفة. لم يتوقف الأشخاص عن التكلّم معي على صوت الموسيقى، الذي كان مرتفعاً جداً، الأوتار والقيثارات تتماوج على المسجلة. كانوا كلّهم يعرفون بعضهم بعضاً. شرعتُ أدخن كي أُعطي نفسي شيئاً أفعله بيديّ، إذ كنتُ أحسّ بعينيْ (ت)

عليّ مباشرةً من الطرف البعيد للحجرة، وكان يتساءل مع نفسه مَن أكون، هذه المرأة التي دخلت بيته تواً وهي الآن تستقبل المعجبين، بصمت، والدخان في فمها. كنتُ خائفة قليلاً منه، لذا شربتُ فعلاً، كي يكون بمقدوره أن يراني وأنا أشاركهم وكي يجعلني الشراب جريئة. لم أحب الباب الموارب. مصاريع خشبية عند النافذة. كان هنالك ستول صغير مصبوغ بطلاء أبيض في إحدى الزوايا، جلستُ عليه، غير أنّ هذه غلطة، حيث حشرتُ نفسي هناك.

***

أتى إليّ وأخذ يدي من جديد. مررَّ أنامله على راحة يدي وارتجف بصورة لا إرادية لأنه كانت قد مضت برهةٌ طويلة منذ أن لُمستُ بطريقةٍ بشّرت بألفةٍ حقيقية. مال عليّ، واقترب مني كثيراً.

***

حدّثيني عن نفسكِ، قال لي. كان عاطفياً للغاية. من عادتي أن أحب هذه الصفة في الرجل، إلاّ أنني لم أحبها في ذلك الحين. نفختُ الدخان في وجهه بدلاً من ذلك، ولم يجفل. أنا لا شيء، قلتُ. لا يوجد شيء يتعلّق بي.

***

إنّ تدخين السجائر خطأ، إنه خطأ بكلّ معنى الكلمة – الزمن غير واضح ومُتخطى وكنتُ أهرع إلى الحمام، أدفع طابور الأشخاص المنتظرين هناك وأتجاوزهم، وأتقيأ أشرطةً من المادة الصفراء، الكحول الداكن، في حوض الحمام المُلَطّخ. كانت هنالك نافذة، لاحظتُ بنحو ضبابي، من باب العادة. زجاجٌ ثلجي، حافات النافذة متعفنة.

***

افتحي قفل الباب، قال صوتٌ ما. أنا هنا! صحتُ. افتحي القفل بأية حال، قالوا. أنتِ لستِ بخير، سوف نعتني بكِ. فعلتُ ما قيل لي. دخل (ت)، والرجل ذو الوشاح الأزرق، ونادلة البار. هل أنتِ بخير؟ سألوني واحداً واحداً. أغلقوا الباب. أومأتُ برأسي علامة الإيجاب وفتحتُ حنفية الماء، وجمعتُ في راحتيّ اللتين اتخذتا شكل الكوب ماءً ضارباً إلى اللون الرمادي ذا مذاق معدني وشربته. ولمّا رششتُه على وجهي أضحى كالخرز

على أهدابي، وكان الضوء يعمّ المكان. الرجال كلّ واحد منهم تطلّع في وجه الآخر. اقعدي على الأرض، قال لي (ت).

***

جلست نادلة البار أولاً. هيا، قالت. أخذت يدي برقة. الأشياء الحلزونية من أناملها قذرة. هبطتُ على كعبيّ وأحاطت رأسي بكلتا يديها بهيأة كوب. وجدت أظافرها فروة رأسي. نسيتُ أصلاً كيف أكون حول الناس، من السهل جداً والسريع جداً أن ينسى المرء. أردتُ راحة جسم آخر إلّا أنني كنتُ خائفة جداً من أن أُظهِر نفسي. جثا (ت) بجواري أيضاً. وضع يداً جافة على جبيني ومن ثم قبّلني، بقوة، في جانب رأسي. كانت تفوح منه رائحةٌ أشبه برائحة الدخان والورق النظيف، وبداية العَرَق. حاولتُ أن أتحرّك مبتعدةً إلّا أنه وضع ذراعه حول كتفيّ. ليس بسرعة بالغة، قال لي.

***

الرجل ذو الوشاح الأزرق هوى على ركبتيه أيضاً، وجرّ حاشية فستاني، وأمسكَ بالثقوب الصغيرة التي تهرأ فيها ردائي المُحكم، وحذا (ت) حذوه. النجدة! صحتُ، إنما في الحال كانت ثمة يدٌ على فمي. سحبتُ للأسفل نسيج بلوزتي حيث حاولا أن يجعداها. نادلة البار حرّرت فمي. تذكرة بيضاء، قالت، وهي تشخر ضاحكة. أجل، يقيناً. أنتِ تذكرة بيضاء إلى حدّ كبير مثلك مثلي. تحاولين أن تخدعي مَن؟ انظروا إلى بطنها. استمر، افحص، أُراهن أني على صواب.

***

لا يُمكنكم أن تفعلوا هذا، قلتُ، على مهل. عليكم أن تدعوني وشأني.

***

رَفَعت زجاجةً إلى شفتيها وبعدها إلى شفتيّ، إلّا أنني لم أبلع المشروب هذه المرة. نبيذ حلو جرى نازلاً على شفتيّ، ذقني، وعلى فستاني. الرجل ذو الوشاح الأزرق لعقه من على وجهي.

***

أحدهم ضرب بقوة على باب الحمام. الأرضية المليئة بالثقوب الشبيهة بثقوب الجدري احتكت بالسطح الخلفي لفخذيّ حيث تجعد فستاني. اللعنة! هتف (ت). نحن مشغولون! الرجل ذو الوشاح الأزرق احمرّ وجهه كما لو أنه شعر بالحرج والارتباك مما كان يفعله؛ ضممتُ ركبتيّ معاً بحيوية بالغة وأحسستُ أنهما تمسان عظام مفاصل أصابعه الأنيقة. سبّ وسحب يديه. كان (ت) يحاول بالتناوب أن يجرّني ويدفعني باستواء على الأرض، إنما كان هنالك ترددٌ في حركاته سبّب لي الارتباك. بدا ذلك أشبه بمُزحة تافهة، ومدروسة، لكن في الوقت عينه كان من الصعب عليّ أن أتنفس. هيا! قال الرجل الذي في الخارج، وهو يقهقه ويقرع الباب بقوة من جديد، يقرعه بقوة شديدة بحيث إن الكلاّب فرقع وانفتح وتعثروا وهم يدخلون الحجرة. كان رجلٌ آخر، ينهدّل شعرٌ أشقر على كتفيه وقنينة بيرة في يده. ألقى نظرة عامة على المَشهد. معذرةً على المقاطعة، قال لهم. توقف الآخرون عن الحركة واغتنمتُ الفرصة كي أدفع نفسي على قدميّ، راحتاي على الأرض. تنفسي، حدّثتُ نفسي، فيما كانت الغرفة تدور.

***

آه، فقط دعوها وشأنها، قال الرجل ذو الوشاح الأزرق. مدّ يديه. انظروا ماذا فعلتم، لقد جرحتموها، قال، إنما لم يكن هنالك شيء كي يُرى.

***

رمى (ت) يديه عالياً. الرجل ذو الشعر الأشقر لبث هناك، يُراقب ما يجري. اخرج إن كنتَ تروم الخروج، قال (ت)، وهو يرسل نظراته إلى الرجل. كنا نلعب ليس إلا. تهيأتُ للمشي نحو الخارج لكنه قبض على كاحلي وسحبني للخلف، وكدتُ أهوي أرضاً. رفستُ وضحك هو، وبعدها تركني وشأني كما ينبغي، وفررتُ عائدةً إلى الحجرة الأخرى. كان الدخان أكثف والأصوات أعلى. تخبطتُ، فمي ذو مذاق حامضي، ومضيتُ إلى الحديقة الأمامية حيث كان هناك ثلاثة أشخاص لا يزالون جالسين على الكنبة المتعفنة، وبعدها يممتُ وجهي شطر طريق الأرض

البوار. تراجع التهديد. وفي الحال لم يكن بمستطاعي رؤية حتى مصابيح الكوخ ورائي.

***

لمّا رجعتُ إلى الفندق، ألصقتُ كرسياً تحت مقبض باب غرفة النوم الذي أغلقتُه بالمفتاح ووضعتُ لحاف السرير والوسادة في داخل حوض استحمام مُلحَق بالغرفة، وبعدها أغلقتُ باب الحمام بالمفتاح أيضاً. طوال الليل كلّه انتظرتُ هناك. قبضتُ على المسدس بين ركبتيّ، مصوّبةً إياه إلى الباب، إلى أن بات ثقيلاً للغاية على معصميّ.

***

كانت تلك ليلةً حزينة، حتى لمّا شبكتُ يديّ على بطني. ماذا فعلتِ؟ سألتُ نفسي. لم تكن حياتي لا تُطاق من قبل. هنالك أشياءٌ كثيرة لم أكن ممتنة لها بما يكفي، رأيتُها الآن. لم تكن هنالك ليالٍ في أحواض الاستحمام تنتظر أن تلفت الانتباه.

***

التوق سحرٌ فعال، قال الطبيب أ. جرّبي أن تتوقي إلى شيء آخر وشاهدي السرعة التي تُعيد فيها رغباتُكِ ضبطَه ما إن تحصلي عليه.

***

لكن هذا شيءٌ مختلف، أخبرتُه بذلك في حينها.

***

ثمة شعور كئيب، كان هنالك على الدوام، تحت الجلد، تيارٌ ثابت. في بعض الأحيان يكون مُهَدهَداً وأضعف إلّا أنه يعود دوماً، كما لو أنه مدّ وجزر.

***

في الصباح كنتُ مفعمةً بالذنب والإرهاق. تجرّدت من ثيابي وجعلتُ الماء الساخن يسيل في الموضع الذي كنتُ مستلقية فيه، ومسحتُ بقعة من المرآة الثلجية ونظفتها كي أنظر إلى نفسي. التقوّس اللطيف، الجلد المشدود، الأوردة الزُرق الواسعة والملتفة. أنا أعتذر، قلتُ بصوت

عال، وأنا أربت على بطني بأصابعي. هل تسمعني أنتَ يا مَن هناك؟ أقدّم اعتذاري.

***

لمّا فتحتُ باب الحمام وجدتُ أنّ كلّ شيء كما تركتُه. نور الشمس تدفق عبر فجوة في الستائر. كان موقِف السيارات مهجوراً إلّا أنني قدتُ سيارتي وانطلقتُ بعيداً بأقصى سرعة على أية حال. تصاعدت سحابة غبار. القمم البيض للجبال أقرب إليّ طوال الوقت. ثمة وعد بالأمان، وعدٌ من شيء ما.

***

ماذا لو لم يكن باستطاعتي أن أفعل بشكل أفضل؟ ماذا لو كنتُ غير قادرة؟ ماذا لو أن هذا هو أفضل ما يُمكنني أن أفعله، وقد بلغ الحدّ الأقصى لما أنا قادرةٌ عليه، وبصورة عاجلة للغاية، يكون هنالك مشوارٌ طويل يتعيّن عليّ أن أقطعه؟

الفصل الرابع

اتصلتُ هاتفياً بالطبيب أ من تلفون عمومي[1]، مُستسلمةً لحافز لم أشأ بالضرورة أن أستوجبه. لمّا سمع صوتي، فرقع الطبيب أ لسانه كما لو كان ذلك أعجوبة، إلّا أنني عرفتُ أنّه لا يُمكن أن يكون كذلك.

***

مرحباً، قلتُ بابتهاج.

***

لقد أتوا إليكِ إذاً، قال لي.

***

أعني، لقد أرسلتَهم، أجبتُه.

***

تجاهل كلامي. بوسعنا أن نُثبت مواعيدنا على التليفون، إلى أن يقبضوا عليكِ، قال بدلاً من ذلك.

***

ما الذي يجعلكَ متأكداً من أنهم سوف يقبضون عليّ؟ سألتُه.

***

كالا، أرجوكِ، قال لي، بلطف بالغ.

***

1- تليفون عمومي payphone: المقصود هنا تليفون عمومي تُلقى فيه القطعة النقدية كي يبدأ بالعمل-م.

لدّي تحفظات بشأن مسألة أنكَ لا تعرف شيئاً عن الموضوع، قلتُ له.

***

إنكِ تنسين أني أعرف كلّ شيء عنكِ، قال لي. ليست بكِ حاجة لأن تستشيطي غضباً. ما من ضير من أن يتنبأ المرء. حتى فعل الاتصال الهاتفي بي اليوم - كنتُ أتوقّعه. اتصلي بي هاتفياً مرتين في الأسبوع في الوقت المألوف.

***

قلتُ إني سأحاول.

***

قال لي إنه يتعين عليّ أن أفعل أكثر من المحاولة. قال إنّ الجسم والعقل عادةً في تناقض وأهمية الإبقاء عليهما متآلفين بشكل جيد وعاملين في تناغم هي أهمية عظيمة، بقدر ما يكون ذلك مُمكناً، إذا ما أخذنا حالتي بنظر الاعتبار. فرفع لسانه مجدداً. تحدّث كثيراً من الكلام المنطقي.

***

يتعين عليّ الذهاب، آن أوان موعدي التالي، قال لي. إنما تذكّري أنه موسم مفتوح على نساء من مثلكِ. إنكِ مجرمة حالياً.

***

أنهيتُ الاتصال الهاتفي واستندتُ إلى الحائط، ورحتُ أتنفس بصعوبة.

***

قدتُ سيارتي من جديد، مُصغيةً إلى اسمي في المذياع، مُحرّكة القرصَ المُدرّج بشكل إلزامي. وأنا أترنّح داخل وخارج تضاريس عالية، طفرت الإشارة وأمست غليظة. كنتُ ذاهبة بسرعة إلى اللامكان. غالباً أوقف السيارة في مكان ما كي أدوّن السيارات التي شاهدتُها ورائي، مخافة أن يكون هنالك طرازٌ معين، مخافة أنها كانت تتبعني. سيارة فضية. سيارة حمراء اللون. سيارة بيضاء، كبيرة، أقرب ما تكون إلى شاحنة صغيرة.

***

في الأغلب سيارات زُرق، مُنقطة بالوحل. اللون الأزرق في الأمكنة

كلّها. في البقايا البلاستيكية عند جانب الطريق، في ستائر المنازل التي مررتُ بها. توقفتُ قليلاً كي ألتقط شيئاً من التوت من شجيرة خفيضة مُغبرة عند حافة موقِف جانبي، وغطى عصيرٌ أزرق كلّ أنحاء يديّ من جراء مشكلتي. كنتُ في مشكلة كبيرة للغاية. بصقتُ حبات التوت في نوبة مُفاجئة من الخوف بأن تكون سامة على أية حال، غير أنّ المذاق ظلّ مُلازماً لي، وكنتُ أخشى ألا يُغادرني.

***

مقدار هائل من الشجر في الأفق، ثمة يافطة تُشير إلى موقف للسيارات. أوقفتُ سيارتي كي أرتاح. لم يكن هنالك أحد. ولجتُ الغابة ماشية، على عُقد من الشجر والتراب. الأرض ندية في بعض الأمكنة من مطر وقتي. في مكان ما في البُعد أتى العواء الملتوي لطائر فريسة لم أتمكن من رؤيته. واصلتُ المشي، متجهة نحو الصوت. على الأرض كان أرنب نافق، مبقور. لا تزال طازجةً، الحلقات الداكنة لدواخله تلمع كالمربّى. جثوتُ ورفرفتُ بيدي على فرائه، تفحصتُ عينيه بحثاً عن لونهما الوردي وتورمهما. بطن الأرنب بدا منتفخاً. لكن حينئذ ربما ذاك يُمكن أن أكون أنا مجدداً، وأنا أرى الحَمْل في كلّ شيء. عينا الأرنب مستنزفتان إلّا أنهما لا تزالان تراقبانني.

***

بيديّ العاريتين والسكين حفرتُ حفرةً ضحلة. لم يكن هنالك احتفال باستثناء وضع الأرنب فيها ومن ثم ملء القبر. ما من كلمات يُمكن التفوّه بها. إنه لمِن الحماقة أن يهتم المرء بأيّ شيء.

***

من صندوق السيارة سحبتُ زجاجة ماء كي أشرب منها، وكي أغسل يديّ. نظرتُ إلى الأشياء الأخرى التي كنتُ أحملها هناك: الخيمة، حقيبة النوم. غسلتُ يديّ القذرتين وأظافري المُكسّرة، وقد أجهدني الاشمئزاز، وتابعتُ قيادة السيارة.

الفصل الخامس

في مطعم هادئ لمّا بدأ الليل يُخيّم جلستُ في مقصورة من الجلد البرتقالي وانتظرتُ شيئاً ما، أيّ شيء. إشارة، تمنيتُ بصمت الشعور الكئيب، الطفل الصغير. فقط قُل لي ماذا أفعل. كانت السماء في الخارج بنفسجية قاتمة. الممشى من السيارة إلى المبنى كان يعبق برائحة مطر قوية. امرأة ضئيلة الجسم أحضرت لي لائحة الأطعمة والمشروبات على شكل صفيحة رقيقة. تقبع شطائر خلف الزجاج عند الكاونتر، مُضاءة بطريقة باعثة على السأم. وعلى الحائط صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود لأشخاص مشاهير غادروا عالَمنا.

***

كانت في الحجرة امرأتان أُخريان، واحدة منهما ذات شعر أسود طويل، والأخرى ذات شعر أشقر، غزاه الشيب عند الصدغين. كانتا تتحدّثان بهدوء إحداهما مع الأخرى. وجه المرأة ذات الشعر الداكن هزيل، شفتاها مضغوطتان في خط مشدود. كانت جميلة بما يكفي بالنسبة لي كي أحس بالغيرة من المرأة الشقراء، مع أنني لا أعرف ما إذا كانتا كلتاهما جميلتين. رجعت النادلة، وطلبتُ كوباً من الـ(كاباتشينو)، وكعك (الكرواسان) المُحلّى، هلالي الشكل، الذي بدا سيئ المذاق لِقدمه، مع أنه حين وصل لم يكن بمقدوري سوى أن أكسر قطعاً من الكعك وأضعها باحتراس شديد في فمي، أمضغها برهةً، وبعدها أبصقها في منديل المائدة. نظراتي ظلت تنزلق إلى وجهَي المرأتين، المرة تلو المرة. حاولتُ أن أظهِر أني لم أكن أنظر إليهما. نساءٌ أُخريات أصبحن بواعث قلق بالنسبة لي، مع أن النادلة،

التي لم تكن تأبه بشكل جسمي، كانت مُقيّدة تحت قماش مهلهل. عرفتُ أنه يتعين عليّ أن أمضي إلّا أنني أردتُ أن أراقب.

***

في حجرة الحمام كنتُ أغسل يديّ لمّا دخلت المرأة ذات الشعر الداكن، الأبواب تأرجحت خلفها. تجمدتُ من الخوف؛ فارقني الخوف. كلّ واحدة منا نظرت في عينَي الأخرى في المرآة. كان الحمام مطلياً بدهان بُني قبيح، وثمة مصباح مشتعل في الزاوية. أرضيات قرميدية باهتة، وهنالك أوساخ تكدّست عند الحافات. أحسستُ بالغثيان، ووضعتُ كلتا يديّ على الكاونتر المصنوع من الرخام المزيف. ظلّت المرأة تنظر إليّ في المرآة.

***

ثمة مشكلة لديكِ، قالت لي.

***

لا، قلتُ لها، مع أنه شيءٌ بلا معنى أن أنكر ذلك.

***

اجلسي، قالت لي.

***

مَن تكونين بحق الجحيم؟ تحرّكتُ كي أمضي، ومن ثم استدرتُ كي أواجهها مباشرة.

***

رأيتُكِ وأنتِ تنعمين النظر فيّ، قالت. ما الذي كنتِ تنظرين إليه؟

***

يدها في جيبها. سكين، على ما أعتقد، خطت خطوةً إلى الوراء.

***

لا شيء، قلتُ لها. ألا يسعكِ أن تدعيني وشأني؟

***

أحسستُ أني دائخة. سمحت لنفسي أن أنثني، واستندتُ إلى الحائط وانزلقتُ إلى الأسفل. مدّت يديها ووضعتهما على ذراعيّ. رَكَعت على

الأرض كي نُصبح نحن الاثنتين عيناً لعين. كانت رائحة شعرها قاهِرة. شيءٌ ما تغيّر في عينيها.

***

أنتِ، قالت. أشارت إلى ورم بيديها.

***

لا، لا، قلتُ، وأنا أدفعها جانباً.

***

لا بأس، قالت لي. انظري، أمسَكَت بيدي ووَضعتها على بطنها، ألفةٌ صدمتني مثل برق كهربائي.

***

هل أنتِ؟ سألتني، وهي تُشير إلى علبتي المعدنية المُدلاّة من رقبتي. أشحتُ وجهي بخجل. بدا واضحاً أني أملك تذكرة زرقاء، وأنه إذا فتحتُ علبتي المعدنية الصغيرة المُعلّقة من قلادتي سوف تفهم الشيء الزائف على الفور. لم تعمد إلى أن تُريني علبتها المعدنية الصغيرة المُدلاّة من رقبتها.

***

إلى أين أنتِ ذاهبة؟ سألتني، وهي تُخفض صوتها، واضعةً فمها على أذني.

***

لا أعرف، اعترفتُ، هامسةً الجواب في أذنها. أنا ذاهبة فقط.

***

انتظري هنا، قالت لي. لا تتحركي على الإطلاق.

***

دَلَفَت إلى حجرة صغيرة. نهضتُ وغسلتُ يديّ من جديد كي أقوم بشيء ما. كان جلدي محمراً وجافاً. قواعد الأظافر نيئة في المواضع التي كنتُ أقضمها باستمرار، كما لو أنني أصبحتُ مراهقة مجدداً.

***

تدفق الماء في المرحاض وظهرت المرأة، غسلت يديها بجواري. قلتُ

لكِ ألا تتحرّكي، حدّثتني، وحسبتُ أنّ تلك نكتة إلّا أنها لم تكن تبتسم. كلّ واحدة منا نظرت إلى الأخرى في المرآة مجدداً، جنباً إلى جنب. كانت أقصر مني برأس. عيناها ضخمتان وسوداوان في جمجمتها.

***

الحدود، قالت لي.

***

أخرجت خارطة من جيبها الخلفي، خارطة من الألف إلى الياء. كانت خارطة مجعدة ودافئة من جراء حرارة بدنها. نشرتها وأرتني إياها على مدى بُرهة وجيزة – خطٌ برتقالي، أكثر سُمكاً من الخطوط الأخرى، بالقرب من حافة الورقة، يُشير إلى التغيير، يُشير إلى ما قبل وما بعد. هل بحوزتكِ خارطة؟ سألتني.

***

أجل، أجبتُها. أعطوني واحدة. إنها في السيارة.

***

رفعت حاجبيها. بجوارها أحسستُ أني رقيقة وحمقاء. أحسستُ كما لو أنني شخصٌ كان ينبغي أن يُقتل منذ زمن بعيد جداً.

***

ستكون عتيقة الموضة، قالت. اشتري خارطة جديدة. النسخة الأحدث بوسعكِ أن تجديها. وما عليكِ سوى أن تمضي قُدُماً صوب الشمال.

***

مهلاً، قلتُ لها. لم أشأ أن تُغادر، إلّا أنها كانت قد بدأت تستدير.

***

يتعين عليّ الذهاب، قالت لي. حظاً سعيداً.

***

ما اسمكِ؟ سألتُها. اسمي كالا.

***

ألقت عليّ نظرة عامة. أُسمي نفسي (ماريسول)، قالت لي. أختارُ اسماً كاذباً، لو كُنت في مكانكِ.

***

رجعتُ إلى مقعدي الكائن بعد مقعدها، وراقبت المرأتين فيما هما تهبّان واقفتين وتغادران، وهما لا تزالان تتحدّثان بإلحاح. تفرست فيّ المرأة ذات الشعر الأشقر فيما هما تمرّان بطاولتي، إذاً لا بد أنها لاحظتني وأنا أنظر أيضاً. أبقيتُ نظراتي موجهة إلى الطاولة كي تعرف أني لم أكن تهديداً، كان هنالك ظلام تقريباً في الخارج، إلّا أنني لا أملك أيّ مكان أقصده أو أكون فيه. أطفأت المرأة التي وراء الكاونتر جهاز إعداد القهوة، ضوء خوان الشطائر الزجاجي، بدأ يمسح السطوح. وعلى مضض دلّتني على غرفةٍ في الطابق الأعلى، حين سألتُها.

***

لمّا تركتني وحدي أعددتُ لائحة بالأشياء التي ينبغي لي أن أفعلها بشكل صحيح. فكرتُ في الملاجئ المبنية في رحلتي الأولى إلى المدينة، نفايات مُشمّع (التربولين). فكرتُ في الفخاخ السلكية بغرض اصطياد الأرانب. فكرتُ في الفعالية التي بموجبها أصبحتُ حاملاً. فكرتُ في أن أُبطئ نَفَسي وأن أختبئ بشكل جيد جداً بحيث لن يستطيع أيّ شخص رؤيتي، بحيث أكون ميتة مع أنني لا أزال حاضرة هناك. فكرتُ في القفز في مساحة كبيرة من الماء والمكوث تحت السطح إلى أن تشتعل رئتاي. أنا مخلوقة الغريزة، حدّثتُ نفسي. أنا مخلوقة تقذف نفسها بقوة إلى الأمام. في الغد سأرسم خطة حقيقية.

***

في الليل حلمتُ بأني حيوان الظلام، وكانت هنالك راحة، وثمة برهان أني أنتمي إلى هناك. طيور البوم تنقضّ من حولي، وكانت بمنزلة شقيقاتي. ضوء القمر بارد، كالمطر حينها. كنتُ أعدو، ولا أطير. حدث أن جسمي بات يستريح على العشب الندي. فمي يقرض التراب وورق الشجر، جلدي نابضٌ بالحيوية، وأنا غزال، حيوان الغُرَيْر، أو حيوان الخُلد في داخل الأرض، وباستطاعتي أن أعدو مسافةً طويلة تُقدّر بالأميال.

الفصل السادس

كنتُ لا أزال أقود سيارتي والطريق يتغيّر طوال الوقت، والمنظر الطبيعي يتغيّر، ولم يكن باستطاعتي أن أمسك به. الطرقات التي أتذكّرها نوعاً ما، زلات اللغة، والمناخ الذي كان مألوفاً بالنسبة لي ومع ذلك هو غير مألوف. في داخلي دماغان وقلبان، ودماغ الطفل وقلب الطفل يُريدان أن يتغلّبا عليّ. حوالق[1] تتخلل دمي. كلّ شيء مصنوع من الزجاج. كان الحال بهذا الشكل على الدوام والآن أنا فقط أنتبه إليه، التقلقل الوامض للحياة، وأسفل البطن المليء بالموت هو فقط خارج مجال الرؤية.

***

«الحدود»، فكرت، لمّا هدّد الرعب بأن يتغلّب عليّ. الحدود.

***

ثمة يافطة تُشير إلى (سرير وفطور) مُثبتة بالمسامير في جانب الطريق، مُشيرةً إلى طريق ترابي يبلغ طوله نصف ميل. كنتُ في منتصف اللامكان من جديد، في بلد إضافي وصخري شاهق. وفيما كنتُ أقود سيارتي في الطريق الترابي، شقت الطيور طريقها بحذر عبر السماء التي فوق السيارة. خفضتُ النافذة كي أحصل على شيء من الهواء. أرنب أحمر. حقل من زهور عبّاد الشمس.

***

1- الحالق أو المحلاق tendril: جزء لولبي رفيع من النبتة المعترشة يُساعدها على التعلّق بسنادها-م.

(سرير وفطور)[1] هو منزل مرتفع بلون نبات الفطر يقوم وسط الأشجار، ذو شُرفة خشبية وستائر متحركة باهتة. أحسستُ أنه مكانٌ كنتُ فيه من قبل، فكرةٌ تتعلّق بالمكان. ولمّا دققتُ الباب، ردّت عليّ امرأة. كانت امرأة عجوزاً، شعرها مقصوص قريباً من رأسها. غرفة؟ سألتُها. نعم، أجابت، من دون أن تبتسم، وهي تسمح لي بالدخول.

***

مررنا بورق جدران ذي نمط زهري أخرس، إزار الحائط مطلي بدهان أبيض باهت. ثمة سلّم يصعد للأعلى عبر منتصف المنزل، ومنضدة كتابة صغيرة بجواره حيث كانت تقلّب صفحات سجل النزلاء بإبهامها.

***

هل أنتِ مشغولة؟ سألتُها، مع أنه كان من الجليّ أنّ المنزل خال.

***

نحن لا نكون مشغولين في هذا الوقت من السنة، قالت لي. لا يزال الوقت مبكراً للغاية. حدّقت فيّ. لستِ من هنا، أليس كذلك؟

***

بلى، أجبتُ. أنا أقوم برحلة. إني ألتقي زوجي في النهاية.

***

فهمت، قالت. دعينا نذهب ونجد غرفتكِ.

***

فيما كنا نرتقي درجات السلّم، اجتازت قطتان منبسط السلّم بزعيق. توقفتا لمّا شاهدتاني وانتصب الشعر على ظهر عنقيهما. جثوتُ على ركبتيّ، وحاولتُ أن أضع يدي عليهما، وأصدرتا هسيساً.

***

1- سرير وفطور bed and breakfast: هنا تُشير الكاتبة صوفي ماكنتوش إلى اليافطة التي شاهدتها الراوية في جانب الطريق-م.

في الغرفة التفتت إليّ المرأة. لماذا لا تنزلين كي تشربي كوباً من القهوة، أو تجرعي شراباً مُسكِراً طالما أنه حان وقت النوم؟

***

حسناً، قلتُ، كما لو كنتُ مُنوّمة.

***

انسحبت هي في حين جلستُ على حافة السرير. ركلتُ حقيبة الظهر العائدة لي تحته واستلقيتُ بملابسي كلّها، وحتى إنني كنتُ أنتعل حذائي، وذراعاي مثنيتان على صدري.

***

غرفة المعيشة تفوح بالرطوبة. ورق جدران أخضر كالغابة تقشّر في أعلى الحائط. بسطت المرأة صينية من قطع بسكويت صغيرة باهتة وإناء شاي يتصاعد منه البخار، وقنينة زجاج داكنة وبجانبها كأس صغيرة. سكبت لي شاياً ساخناً في كوب من الخزف الصيني. وصبت لنفسها الشاي وكذلك كأساً من السائل الذي في القنينة. هذا المشروب بدا أشبه بالماء إلّا أنه ليس ماء.

***

لا يُمكنكِ أن تحصلي على هذا، قالت لي. ليس في حالتك. تأهبتُ للوقوف والمغادرة إلّا أنها قبضت على ذراعي وسحبتني للوراء. بجوار الكرسي رأيتُ حقيبة سفر مصنوعة من نسيج صوفي يُستعمَل لصنع السجاجيد، وثمة بريق آلات معدنية في داخلها. ارتطمت أسناني بالكوب. كانت تلبس علبة صغيرة معدنية مُدلاّة من رقبتها إلّا أنها لم تُرني ماذا تحتوي. اتبعيني، قالت لي. لم تفلت ذراعي.

***

كانت طاولة غرفة الطعام من الخشب الداكن، الصقيل. استلقيتُ باستقامة عليها بوسادة مُطرزة تحت مؤخرتي ووسادة أخرى تحت رأسي. كانت تصفُّ الأدوات الباردة، واحدة واحدة، على صينية فضة كتلك الصينية التي

حملت قطع البسكويت العائدة لنا. أشياء من شأنها أن ترفعني بواسطة عتلة، أن تفعل أشياء أخرى. فكرتُ في الركض. ساعة حائط الجَدّ تؤشر الثواني. لو كان بمستطاعها أن تساعد، سأقدّم جسمي لأيّ شيء. سأعقد صفقة سرّية على صفقة سرّية. ذراعاي عاريتان، قميصي القطني ملفوف. لبست المرأة قفازات طبية للاستعمال الواحد، نفس الماركة التي كان يُفضّلها الطبيب أ. وَضَعت الطوق البرتقالي لجهاز قياس الضغط حول ذراعي مثل مرات كثيرة جداً من قبل. لم تذكر الأرقام بصوت مرتفع بل بدلاً من ذلك كتبتها في دفتر ملحوظات صغير مُلقى على منضدة بجانبي. استمعت إلى قلبي، معدتي، بسماعة طبية، وبعدها قوّمت جذعها.

***

لماذا تُريدين أن تفعلي هذا؟ بدت مشمئزة. آ، رأيتُ هذا كلّه، ومع ذلك لا يُمكنني أن أصدّقه.

***

الدم المندفع بقوة إلى جمجمتي وهبني شعوراً بأني تحت سطح الماء. لويتُ أصابع قدميّ. أنتن الفتيات، قالت. يُمكنكن أن تُلحقن بأنفسكن ضرراً حقيقياً بمجرد أن تُخرجن الجهاز[1]. تسمم الدم. جسمكِ كلّه يغدو متعفناً وأخضر. حمقاء!

***

نظرتُ إلى السقف. وافقتها الرأي، سرّاً.

***

هل لاحظتِ أية أعراض؟ سألتني. هل أنتِ مريضة؟ ماذا بشأن النزف؟

***

1- الجهاز the device: هنا نعني جهاز منع الحَمْل، ويُسمى بالإنكليزية intrauterine device أو اختصاراً (IUD)، أو يُسمى غالباً السلك أو اللولب. وعادةً يكون من البلاستك والنحاس، ويتخذ شكل الحرف T، ويُدخل في رحم المرأة. يُحرر هذا الجهاز النحاس ويمنع الحَمْل على مدى بضعة أعوام أو بشكل دائم. ولأنه يحتوي على سلك النحاس يُسمى (السلك) أو (اللولب)- م.

في الواقع أحس فعلاً أني بخير، قلتُ لها.

***

بمستطاعي أن أقوم بالإجراء هنا، قالت لي، وهي تنظر إليّ. في مقدوري أن أفعل هنا حالاً ولن تشعري بشيء. لم يتأخر الأوان كثيراً.

***

كان قلبي يدُقّ بسرعة بالغة. قلبي تحرّك للأعلى، وأصبح في فمي. لا، قلتُ لها.

***

حسناً، قالت. لن أدفعه. إنه جسمكِ.

***

هل سيكون الطفل الصغير بخير؟ سألتُها، وأنا أتلعثم تقريباً لدى نطقي الكلمتين[1].

***

سيكون معافى وسعيداً، قالت. بقدر ما يُمكن أن يقول المرء.

***

رَفَعت يديها قليلاً، كما لو أنها تعزف على البيانو، أبقتهما هناك على مدى ثانية، ومن ثم سحبت قميصي القطني للأسفل، ونزعت القفازين وهبت واقفة.

***

انتصبتُ في جلستي وتفحصتُ جلد يديّ. هنالك أربع علامات دموية صغيرة على كلّ راحة يد. حاولتُ أن أخفيها عنها إلّا أنها تناولت مُطهّراً وقطناً طبياً وضمادة ونظفت الجروح، وضمّدت راحتيّ برفق، وبعدها أمسكت بكلّ إصبع من أصابعي فيما هي تقص أظافري. أعطتني منامتها. وردية اللون، تزينها براعم أزهار بيض. تركت خارطة على فراشي. افعلي

1- المقصود بالكلمتين هنا: الطفل الصغير-م.

ذلك حالاً، لو تسنى لكِ أن تفعليه، كتبت في صفحة الخارطة الأمامية. شكل بلادنا بدا أكثر حدّة مما أتذكره من زمن المدرسة، وحتى مختلفاً، وذا طرقات أكثر بكثير. قبل أن أخلد إلى النوم رسمتُ درباً. كان مجرّد خط يتلوّى نحو الأعلى نحو الطرقات الأصغر، عديم المعنى جوهرياً، إلّا أنه أدخل الهدوء إلى روحي. طرقاتٌ خلفية، مقاطعة غير مرسومة. خطوةٌ واحدة في كلّ مرة.

***

في الليل خرجتُ من الباب وقطعتُ الطريق وولجتُ حقل زهور عباد الشمس. كانت هذه الزهور أطول مني. كان التراب مرتخياً. في العتمة لم تكن وجوهها مبتهجة. قبضتُ على سيقانها الصغيرة. في وسط الحقل، ثمة حيوان داكن بعينين متألقتين. أصبح حجمه أكبر ثم أصغر. بات شبيهاً بالإنسان، صغيراً، مثل طفل أو مراهق. ركضتُ عائدة إلى الفراش بالمنامة ونمتُ وقتاً طويلاً.

***

القطتان أيقظتاني من النوم، إذ قفزتا على السرير مثل شيطانين. كانتا تبغيان أن تمصا نَفَسي، بالطريقة التي تفعلها القطط على الدوام. ضربتهما مراراً كي أبعدهما عني. العالَم الطبيعي عدواني. الحيوانات ترى ما لا يرغب البشر أن يروه إلّا أنني مختلفةٌ الآن، وفي مقدوري أن أرى ذلك أيضاً. كانت المرأة العجوز تتناول قهوتها في حديقة ضيّقة خارجاً في الخلف. لم أزعجها، لم أكن أُريد نصيحتها أو تحذيراتها، لذا تركتُ لها فقط بعض المال على سطح سجل النزلاء ومشيتُ خارجاً. كان الوقت هو الصباح الباكر؛ صباحٌ ندي وقارص، وقدتُ سيارتي بيد واحدة، أما اليد الأخرى فكانت على ورمي، وأنا حيّة، إنه شيء دامغ. ثمة وضوح في داخلي وهو مقيمٌ في داخلي، وهذا الوضوح كان يأتي مع كلّ نَفَس.



الفصل السابع

في محطة خدمة السيارات ملأتُ صفيحةً بالبترول ومن ثم طلبتُ شطيرة سجق ساخنة مع أبصال هشة من رجل يعتمر قبعةً بيضاء فوق شعره الذي ينز عَرَقاً. قلّما اعترف بي. أنا من جانبي كنتُ أنز عَرَقاً أيضاً، ألمعُ متوهّجة مثل شخص مُصاب بالحمى. تناولتُ شطيرة السجق الساخنة في السيارة، بشراهة، في بقعة مظلمة من الظل كي لا يستطيع أحد أن يراني، إلّا أنه بعدها وجب عليّ أن أتقيأها، على ركبتَيّ على الرغم من قرميدات محطة الاستراحة. أصبح بنطلوني (الجينز) متسخاً. كان الأزيز العالي لوحدة المروحة أشبه بالبعوضة، احتجاجاً سمعياً.

***

دخل شخصٌ ما وسحبتُ ركبتيّ عالياً إلى صدري، وراقبتُ فردتيْ الحذاء وهما تقطعان الغرفة على طولها ومن ثم تعودان، مختارتين الحجرة الصغيرة الأبعد عني. سمعتهما وهما تُحدِثان جلبة قد تكون صراخاً، نفخ منخرين، وتدفق الماء في المرحاض. من فضلك افعل ذلك في مكانٍ آخر، وددتُ أن أقول لهما بأعظم عاطفة باستطاعتي أن أحشدها. يتعين عليّ أن أمرض من جديد، بهدوء. جسدي في حالة تمرد. ولما غادر الشخص غسلتُ فمي بماء الحنفية وبصقتُ شيئاً وردياً في حوض التواليت، غسلتُ يديّ ثلاث مرات، ورششتُ الماء على نفسي. عرفتُ أنه ينبغي لي الذهاب، على الدوام ينبغي لي الذهاب.

***

كانت هنالك امرأة في منتصف عمرها على صندوق الأشياء الثمينة في متجر الهدايا؛ شاهدتُها فيما كنتُ أمرّ من هناك، تطوي قمصاناً قطنية في

أكياس بلاستيكية زَلِقة. كانت علبتها المعدنية الصغيرة المُدلاّة مرئية فقط تحت قميصها القطني. أردتُها أن تفتحها، وددتُ أن أضغط مسدسي على رأسها كي أرى ماذا ستفعل، كي أرى ماذا ستُكشِف. الحوافز العنيفة هجمت عليّ على حين غرّة ومرّت عليها أسابيع ولم تكن مُوجعةً بالطريقة التي توقعتُ أن تكون فيها. ربما هذا هو ما فعلته بكِ الأمومة، لماذا لم يكن ممكناً لكلّ امرأة أن تدخل عالَم الأمومة هذا. تخيّلتُ معدن المسدس، ساخناً في يدي، ويدي الأخرى تلتوي في شعرها.

***

قدتُ سيارتي إلى أن هبط الظلام، وبعدها بوقت قليل. كانت مصابيح سيارتي الأمامية قد أعاق تقدّمها شخصٌ اندفع في داخل سياج من الشجيرات. كائناً مَن يكون ذاك الذي قذف ذراعه على وجهه وشاهدتُ أنه قذر، وعليه خدوش. إنها فتاة في ميعة الصِبا، فهمتُ، وأوقفتُ سيارتي. ظلّت جامدةً بلا حراك، لذا فتحتُ باب المقعد المجاور لمقعد السائق.

***

إلى أين أنتِ ذاهبة؟ هل يُمكنني أن أقلّك في سيارتي؟ سألتُها.

***

حدّقت فيّ لكنها لم ترد على سؤالي، عيناها متوّرمتان، كما لو أنها كانت تبكي. سحبتُ قميصي الفضفاض على بطني، مع أنها لن تفعل لي شيئاً. لم تكن تشبهني أو تشبه ذاتي الأصغر مني سناً على الإطلاق، إلّا أنني بحثتُ عن ذاتي فيها ووجدتُها على أية حال. ذاتي في العلامات الداكنة على بلوزتها الصوفية السميكة وعلى سروالها القصير من المحتمل أن تكون دماً. كانت ذاتي في شعرها، غير المُمشط، الأشعث في مواضع عدّة.

***

أنا أفتش عن مدينة ما، قالت لي، أخيراً. نظرتُ إلى العلبة المعدنية الصغيرة المُدلاّة حول رقبتها، لم تفقد بريقها، عارفةً بأنّ ثقلها سوف يبقى شيئاً غريباً على مدى زمن معين.

***

أنا ذاهبة إلى الاتجاه المعاكس، قلتُ لها.

***

هل يُمكنكِ أن تصطحبيني بسيارتكِ مسافةً قصيرة؟ توسّلت إليّ. مسافة قليلة لا غير؟

***

مهلاً، مهلاً، قلتُ لها. لا تتحرّكي. أنا أفكر.

***

مضيتُ إلى صندوق السيارة، حيث حشرتُ كلّ شيء في حقيبة الظهر العائدة لي، وشددتُ حقيبة النوم بجانبها بواسطة طوق. راقبتني فيما كنتُ أفرّغ السيارة، تاركةً فقط شيئاً من الطعام وخارطة عتيقة. ولمّا مضيتُ إليها وفتحتُ يدي أجفلت، إلّا أنني أعطيتها المفاتيح.

***

أنتِ تبقين هادئة وتُلازمين الطرقات الخلفية، قلتُ لها فيما أنا أشد الرزمة إلى ظهري بواسطة الطوق، بطريقة تعوزها البراعة. اجمعي ماء المطر. هل تعرفين كيف تقودين سيارة؟

***

أجل، ردّت عليّ. أبي علّمني.

***

هل تعرفين كيف تسلخين جلد الأرنب؟ سألتُها.

***

نعم، أجابت.

***

أدخلي إلى البطن وافتحيه؛ فرّقي الأضلاع واقلبي الأحشاء على الأرض، قلت، تحسباً لأيّ طارئ.

***

كنتُ أعرف كيف تصدرُ الأحشاء بخاراً في الهواء؛ كيف ستظل هي ساهرة الليل كلّه بجوارها، رائحة النحاس العفن في منخريها. طيور البوم

فوق رأسها، وكذلك الخفافيش. صوت قطرات المطر المتساقطة كافية لأن تجعلكَ تُرهف السمع، وتركض إلى أبعد ما تستطيع.

***

أعرف، كررت القول. شكراً.

***

كان كاحلاها وسخين بسبب التحرّك عبر الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة، بطتا رِجليها متورمتان بسبب لسعات الحشرات. قلبي تمزّق وارتاح. حظاً سعيداً، قلتُ لها، وأنا أمشي مجتازةً الطريق. ظلت واقفةً هناك، غير مُصدّقة.

***

لا تراقبيني فقط، عدتُ وكلّمتُها. عليكِ أن تقودي السيارة.

***

انتظرتُ إلى أن انطلقت بالسيارة، من دون استقرار، ودخلت الطريق. لو أنها جلست باستقامة وربطت شعرها للخلف يُمكن أن يحسبها المرء امرأة بالغة. باستطاعتها أن تصطحب فتيات أُخريات في أثناء الطريق. بوسعها أن تجد الأمان. ومع ذلك جزءٌ مني فكر «لماذا تعين عليها أن تعدّ الأمر سهلاً في حين أنا لا أعدّه هكذا؟» وجزءٌ آخر مني كان مُروَّعاً حيال هذه الفكرة، لأنّ الدم أظهر أنّ الأمر لم يكن سهلاً، أظهرت العلبة الصغيرة المعدنية المُدلاّة من رقبتها أنّ الأمر لن يكون سهلاً مهما فعلت هي. كنا غير مباليات جداً بفتياتنا. إنّ الدفاع هو سلوك يتعلّمه المرء. لقد تعلّمتُه. نقلتُه إلى الآخرين. يدي ضربت المسدس في الجيب العميق من سترتي المصنوعة من قماش (الدنيم) القطني المتين.

***

حين مرّت بي سيارة انطويتُ في داخل الخندق كثير العشب. رزمة الظهر العائدة لي راحت تحفر في كتفيّ. أحسستُ بنحو غريب بالحرية وأنا بلا سيارة. الآن لن يكون هنالك قذائف مدفع من العالَم. الآن لا شيء سواي.

الفصل الثامن

مشيتُ في أثناء الليل. من دون إرشاد الطبيب أ، تحدثتُ مع الصخور. تحدّثتُ مع التراب. دخلتُ المزارع وجلستُ في العشب الطويل وتكلّمتُ مع السماء لمّا بزغت الشمس. حكيتُ مع راحة يدي، ضغطتُ عليها بقوة كي لا يكون هنالك سوى وخز خفيف حار لنَفَسي وكلماتي، وهي تعود مُنعكسةً إليّ.

***

كيف تحسين، كيف تحسين؟ خاطبتُ نفسي. ماذا يفعل دماغكِ؟

***

الحرقة التي في معدتي مؤذية وأنا أتحرّق شوقاً إلى أن أضغط أنفي في عشبٍ رطب، مجزوز منذ عهد قريب. الأطعمة التي كرهتُها فكرتُ فيها بغتةً بشغف، والأطعمة التي أحببتُها أكرهها الآن. إنه شيءٌ مُثير للحنق، أن تُخدَع في كلّ شيء.

***

نصبتُ خيمتي في المزرعة، مع أنه من المفترَض ألا أكون هناك. أنام طوال النهار وأتحرّك ليلاً، هكذا قررت. سيكون هذا أفضل لي. كانت المزرعة مليئة بأبقار ضخمة بُنّية اللون، تتحرك داثرياً من دون نظام حول الطرف البعيد تبدو كأنها تشعر بهجوم كبير مُباغت. التقطتُ أحجاراً صغيرة كي أرميها عليها، إلّا أني كنتُ خائفة للغاية من إحداث فرار جماعي في قطيع الأبقار، كما كنتُ مُتعبة جداً من البقاء صاحية، لذا تركتها وشأنها.

***

وبعدها حلّ وقت الليل، قبل أن أعرف بذلك. تراكم الظلام في داخل الخيمة. استلقيت على الأرض الصلبة مُرهفة السمع للكائنات الضخمة من حولي.

***

لمّا فتحتُ سحّاب الخيمة، كان الهواء والعشب نديين. في البُعد، على ضوء القمر، كان بمقدوري أن أرى الجبال يهيمن عليها السكون. وحين تنفستُ بعمق أحسستُ أنّ رئتيّ جديدتان، وهذه الجِدة نفذت إلى ما بقي مني. إنه شيءٌ ممكن أنه في كلّ مرة أرى فيها جبلاً، حتى ولو كان جبلي الألف، يتملّكني شعورٌ بالامتنان اللاإرادي. يكفي أن تراه. أن تتذكره. بحركات بطيئة حزمتُ أمتعتي. الأبقار مكتئبة. هي لا تُريد أن تسحقني حتى الموت على أية حال. لمستُ رأس إحدى الأبقار، ولمستُ أذنها الناعمة. مع السلامة، قلتُ لها.

***

في أعلى الطريق كانت هنالك محطة لوقوف الحافلات. انتظرتُ هناك بعض الوقت في الظلام. حافلةٌ ضخمة مرّت إلّا أنها لم تتوقف. الناس في رحلاتهم الخاصة، ينظرون خارج النوافذ، تُضيئهم مصابيح القراءة فوق رؤوسهم كما لو كانت أضواء كشافة.

***

حافلةٌ أخرى أتت في الحال تقريباً. كانت ضخمة هي الأخرى، ذات مقاعد عالية، من نسيج (البلش) تهرأت وأضحت تعبق برائحة عَرَق قديم. الشمال، قال السائق حين سألته عن المكان المتجه إليه، وهذا شيءٌ جيد بما يكفي بالنسبة لي. رجلٌ مُسن يجلس بالقرب من مؤخرة الحافلة لذا جلستُ في الوسط، حيث الموضع هو الأكثر عتمة. لم أشأ أن أكون بجوار أيّ فرد.

***

في الحال جاء الرجل المُسن وتكلّم معي على أية حال، كما لو أنني عرفتُ أنه سيفعل هذا. أنعم النظر في المقعد. استندتُ إلى الشباك، بعيداً عنه. خدي رطب على زجاج قذر، ورحتُ أتظاهر بأني نائمة.

***

أنتِ لا تنامين، قال لي. ضغط يداً واحدة على الشباك الكائن خلفي.

***

أغمض عينيّ، ومن ثم أفتحهما. لم تكن هنالك مصابيح كي يُمكن رؤيتها، إنه الريف لا غير. تجاوزنا سيارة، جميلة كالغزال.

***

لا تكوني غليظة السلوك، قال لي.

أنا مُرهقة، قلتُ له. الوقت متأخر.

إلى أين أنتِ ذاهبة، قال لي. كانت تفوح منه رائحة بول بنحو خفيف، وحلو. في عتمة الحافلة لا يُمكنني أن أرى في الواقع سوى ظلّه الكائن ورائي. تزحزحتُ قليلاً.

***

أنا ذاهبة كي أقابل زوجي، قلتُ له.

***

(ر). إنه بوليس سري، قلتُ بارتجال. كنتُ مُغرمة بزوجي المُختلَق الذي سيحافظ عليّ ويجعلني أعيش في أمان. هذا الرجل الطويل واللطيف يتعقبني عبر البلد، ويخاطبني قائلاً «عودي إليّ، دعينا نكون عضوين في أسرة واحدة». كنتُ أفتخر دوماً بكوني وحيدة والآن هذا كلّه، الرغبة غير المختمرة في أن أكون موضوعة في صندوق في منزل مع أشخاص أنا ملتزمة بهم. حاولتُ أن أمتلك هذه الرغبة الجديدة بالطريقة التي امتلكتُ فيها الرغبات الأخرى، إلّا أنه شيءٌ مُخجِل بالنسبة إلي.

***

ما كان يجب أن تكوني في هذه الحافلة لو كان لديكِ زوج، قال لي. ربّت على الرزمة بيده. أعرف ما لديكِ هنا.

***

أنا أنام الآن.

***

سأحفظ سركِ لو أنكِ فعلتِ شيئاً لطيفاً لي، قال لي. تحرّكت يده نحو

إبزيم حزامه. حاولتُ أن أقدّر قوة جسمي مقابل قوة جسمه فيما هو يأخذ جرعةً طويلة من زجاجة في كيس ورقي بُني اللون. براندي؟ سألني، إلّا أنني هززتُ رأسي علامة النفي.

***

هيا، قال لي، نحن لا نملك اليوم كلّه. تحسس سحّاب بنطلونه؛ سمعتُ صوته وهو يفسح المجال لعضو ذكورته، وأحسستُ بالخطوط الخارجية لما كان يُمسك به. لم تكن بي حاجة لأن أراه. أحدث جلبة هديل، مثل حمامة صريعة. أردتُ أن أصنع شيئاً صلباً من راحة يدي وأدفعه عالياً إلى داخل أنفه، الطريقة نفسها التي تعلّمتها في كيفية تحطيم وجه رجل، إلّا أنني لم أكن أمتلك الجرأة كي أفعل ذلك. وقفتُ وتناولتُ رزمتي، مشيتُ مجاز الحافلة المترنّحة إلى مقعدٍ أقرب إلى السائق. صاح الرجل، «عاهرة زرقاء[1] باردة جنسياً!» وبعدها لزم الصمت، وخلافاً لذلك سيكون مشغولاً.

***

وقفت لصق السائق. دعني أترجّل من الحافلة، قلتُ له. لا أُبالي بالمكان الذي أنزل فيه، فقط دعني أترجّل.

***

تُريدين أن تنزلي هنا، في الظلام؟ ظلّ السائق ينظر إلى الطريق. حزمتان قويتان طويلتان من الضوء تنزلقان بانسيابية على الإسفلت.

***

ما فعله صديقي هو شيء سيئ للغاية؟ سيئ للغاية بحيث إنكِ تودين أن تُترَكي في وسط اللامكان؟

***

باستطاعتي أن أجزم من خلال الطريقة التي انحنى فيها الرجل أنه لا يزال مسيطراً على عواطفه وأفكاره وتوقف عن التصرّف بطريقة سخيفة أو غير مُسيطر عليها، حتى من على مبعدة بضعة مقاعد. كنتُ سعيدة لأني لم

1- عاهرة زرقاء blue bitch: المقصود عاهرة بتذكرة زرقاء-م.

أستطع أن أرى عضوه. لحمٌ متلوّ، نابض بالحيوية. سمكة أو طائر منتوف الريش. ليس عضو (ر) وهو مُمدد على سرير فندق الحب، طويل وجميل حتى ولو تحت ضوء صناعي، عيناي ويداي، مذاق البيرة على شفتيّ. كلّ الأشياء الجيدة يُمكن أن تُصبح بشعة، إنه شيءٌ لا مَفرّ منه.

***

دعني أترجّل من الحافلة. أنا لا أمزح.

***

إنكِ تتحمّلين المسؤولية الكاملة عن ذلك، قال السائق. أوقفَ السيارة في موقف جانبي، وأبطأ المحرك. أخرجي إن كنتِ تُريدين أن تترجلي، قال لي. شرع يُحرّك الحافلة قبل أن أترجّل وقفزتُ على الحصى، تزحلقتُ، وخدشتُ لحماً من رُكبتي. ضحك الرجلان عليّ، وكان بمقدوري أن أسمع الضحك على الرغم من كون الأبواب مغلقة. اذهبا إلى الجحيم، هتفتُ فيما كانت الحافلة تنسحب مبتعدةً، وهذا ليس شجاعة بالغة مني لأنهما لا يستطيعان سماعي، وما كانا ليأبها حتى إذا سمعا.

***

استأنفتُ المشي. حقيبة الظهر آذت كتفيّ وفي العتمة ثمة وهم الذهاب إلى اللامكان، الذي ربما لم يكن وهماً، إلّا أن كلّ ما بوسعي أن أفعله هو أن أضع قدماً بعد أخرى وأرى ماذا سيحدث. فيما كنتُ أمشي، أدركتُ أني وحيدة. أردتُ أن أُخبر شخصاً ما بشأن العنف المُزبّد تحت جلدي، وأن أسمع بالمقابل الرغبات السرّية لشخص آخر، كي أجد المشاركة في ذلك. أن نسبح في أعماق الرغبة، أن نتحرّك خارج حافة الأرض إلى مكانٍ آخر.

***

وفكرتُ في الطفل الصغير، وهو يسبح بطريقته الخاصة. جسمي هو المحيط الوحيد الذي سبق له أن عَرِفه. أحسستُ أني مَصونة للغاية لمّا فكرتُ في هذا بحيث إني كدتُ أسقط أرضاً. أردتُ أن أكوّر جسمي إلى كيس لين من اللحم وأدفن نفسي عميقاً كي أبقى في أمان من أجله. أردتُ أن أظهر من الأرض وأعرف أني نقلتُه، على أكمل وجه، إلى الساحل.

الفصل التاسع

كانت الشمس في كبد السماء حين وصلتُ البلدة التالية. مشيتُ عبر منازل الضواحي إلى أن باتت الشوارع صغيرة وملتوية، منازل ملتصقة كلّ واحد منها بالآخر، ومن ثم محلات دالّة على حسن الذوق حيث السيراميك في النافذة، المخابز، البارات الصغيرة مصاريعها لا تزال مُخفضة. في قلب البلدة وصلتُ إلى بحيرة ماء عذب كبيرة. خلعتُ فردتيْ حذائي وسرتُ عبر ساحل البحيرة المكوّن من حصى صغيرة بيضاء اللون، إلى أن وصلت إلى الماء الثلجي. سمحتُ له أن يصعد إلى ركبتيّ. كان ساكناً بكلّ معنى الكلمة. الماء رمادي داكن. الماء يبدو أزرق نوعاً ما. عرفتُ أنّ الأزرق هو مفهوم جديد نسبياً في مصطلحات اللون، ذلك أنه على مدى زمن طويل لم نُميّزه أو نراه، وأنّ الشعور باللون هو توضيح تدريجي، وأن شعور المرأة بأنها حامل هو شبيه بهذا الشعور. كان هنالك شيءٌ ما في العالَم لم تلتقطه عيناي، والآن هو في كلّ مكان. وحتى إنني لا أرغب برؤيته، لا أرغب بأن يكون إحساسي قد طرأ عليه تغيير كبير. لم أرغب بمعرفة أنّ كلّ شيء يحاول أن يقتلني. إنه لشيءٌ غريب، أن أكون فعلاً سريعة التأثر للغاية.

***

هذا هو نوع المكان الذي تسكنه الأمهات، المكان الذي تسكنه نساء التذكرة البيضاء. إنهن في مكان قريب. شاهدتُ أزواجاً منهن يمشين معاً وأذرعهن مرتبطة، من دون أطفال صغار، حقائب التسوق الشبكية ممتلئة بالفاكهة والخضار. في محل ما التقطتُ فستان أمومة أسود ببقع صُفر وثوب بهلوان أبيض اللون للطفل الصغير. هنا، ربما باستطاعتي أن

أكون الشخص الذي أرغب أن أكونه. لا ينبغي لي أن أكون امرأةً تتعقب الحافلات، امرأةً تُستدرج إلى الحمّامات، شاربة خمر، مومساً، قطعة من البراز. تصفحت يداي الثياب المنكمشة، الجوارب الشبيهة بالأغطية الصوف التي تُبقي البيض دافئاً أو بكشتبانات مُحاكة، القبعات المُخطّطة. لن يُبعدوني كما كانوا يُبعدونني في المدينة، سأرفض ذلك.

ألا تُريدين أن تجربيه على جسمك؟ سألتني المرأة التي عند الكاونتر. كان شعرها مُسرّحاً في ضفيرة معقدة، ووجنتاها ورديتان للغاية. لا، قلتُ. دست فستان الأمومة في كيس ورقي لي وغادرتُ المحل حالاً، ماشيةً بأسرع ما يُمكن. بحثتُ حولي عن الشرطة السريين، الذين يمطون أرجلهم في أثناء مسيرة وقت الغداء أو يُطالعون الجريدة جالسين إلى منضدة في الخارج.

في مقهى في أعلى طريق جانبي وعلى بُعد مسافة آمنة، طلبتُ غلاية شاي وجلستُ في الخارج، وأنا لابسة النظارات الشمسية، أتظاهر بأني أقرأ الجريدة. الأنباء سيئة بكلّ معنى الكلمة. منفضة السجائر ممتلئة. النادلة اللطيفة أتت كي تُفرّغها وتجلب لي شايي. هل أنتِ في إجازة؟ سألتني. أومأتُ برأسي علامة الإيجاب. آ، لقد أتيتِ إلى المكان المناسب، لا يوجد مكانٌ أجمل من هنا، قالت لي، كانت متوهّجة باليقين، وحتى إنها لم تنتبه إلى سكوتي أو إلى الرائحة السيئة التي يفوح بها جسمي أو بنطلوني (الجينز) الذي لا يزال مثنياً إلى الأعلى ورطباً من جراء البحيرة. كنتُ أؤدي دور الأمومة بالطريقة التي أديتُ فيها دور البلوغ، طوال تلك الأعوام الفائتة كلّها. كنتُ أمثّل كما لو أن ذلك شيءٌ أستحقه وبمقدوري أن أفعله.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى شاهدتُ أباً مع واحدة من عربات الأطفال الكبيرة، تصميمها مختلف قليلاً هنا عن تلك التي شاهدتُها في المدينة. بدا الأب مُنهكاً، وعلى عجلة من أمره. حاولتُ أن أجعل نفسي غير مرئية. هرعت النادلة إلى الخارج وألقت عليه التحية، أصرّت على إعطائه كعكة صغيرة في يده وبعدها نظرت إلى داخل عربة الأطفال. آ مرحباً، خاطبت الطفلة الصغيرة. آ، ألستِ طفلة محبوبة.

واصلتُ الطواف خلسةً بحثاً عن آباء آخرين، بحثاً عن أكبر عدد من الآباء ممَّن يُمكنني أن أجدهم. كانوا ينزلقون حول الزوايا، ويتحركون عبر ممرات المتاجر. كان بعضهم طويلي القامة وبعضهم الآخر قصيري القامة، بعضهم كانوا وسيمين وبعضهم الآخر أقل وسامة، إلّا أنهم جميعاً لديهم عربة أطفال. كان الرجال والنساء على السواء يُبادرونهم بالكلام، أينما مضوا، مع أنهم لا يُبادَرون بالكلام بالقوة ذاتها كما في المدينة، حيث مشاهدة العائلات أقل. حاولتُ أن أسمع صوت الأطفال الصغار. لم يكن باستطاعتي أن أتصوّر أبي يدفع عربة أطفال هنا وهناك، إلّا أنني عرفتُ أنه حتماً فعل ذلك. تساءلتُ في سري أيّ نوع من الأب يُصبح (ر) في يوم ما، إذا تسنى له أن يكون أباً، إذا ما أخذ الهدايا على مضض أو رفع الطفل الصغير إلى كلّ شخص كي يراه بزهوٍ بالغ يبدو كما لو أنه ظنّ أنّ لا أحدَ رأى طفلاً صغيراً من قبل.

أحد الآباء له شعرٌ أحمر ولحية. ذكّرني بالطبيب أ؛ على مدى ثانية ظننتُ أنه هو. وجدتُ قطعة نقدية في محفظة النقود العائدة لي وأسقطتُها في حقيبته. شكراً، قال لي. هل يُمكنني؟ سألتُه، وأنا واعية بالعرق الذي ينز مني، وبشعري غير المغسول. سحب البطانية قليلاً على مضض. كانت الطفلة الصغيرة نائمة، مُقمّطة مثل شيء يتعين عليكَ ألا تكشطه. وددتُ أن أُقبّل وجهها إلّا أن هذا هو عبور للخط. وبدلاً من ذلك لمستُها في خدّها، بإحدى أصابعي. كان من الصعب ألا أبكي إلّا أنني تدبّرت ذلك.

إنها جميلةٌ فعلاً، قلت. ابتسمتُ في ما تمنيتُ أن يكون أسلوباً فاتناً، عيناي واسعتان، إلّا أنني لم أعبّر عما هو أبعد من فم، ومجموعة أسنان. إنه أب الآن، مُتهيّج ومتوتر الأعصاب، ولهذا بالتعريف لا يُمكن إغراؤه. شكري الجزيل، قال، فيما كان ينظر أصلاً إلى المكان الذي يروم الذهاب إليه.

سمحت لهما أن يواصلا طريقهما، وانتظرتُ قبل أن أمشي خلفهما على بُعد مسافة آمنة. كان الأمر صعباً أنه في كلّ بضع دقائق كان مطلوباً من الأب أن يتوقف كي يستطيع الآخرون أن ينظروا إلى الطفلة الصغيرة، وإخفاؤها أصعب مما لو كان الحال في المدينة. المباني كلّها مطلية

بدرجات اللون الأبيض، وبعضها كان يقطّر قطرات عاجية أو بلون زهر العسل[1].

سار الأب بنحو أسرع. وصل إلى حافة البلدة ومن ثم شرع يمشي على رصيف يُفضي إلى الضواحي. كان شيئاً أخطر أن أتبعه هنا؛ فقدتُ أعصابي، سمحتُ لنفسي أن أتأخر أكثر، إلى أن بات شكله البشري صغيراً جداً في البُعد، الحقيبة التي على كتفه مليئة الآن بالقطع النقدية وقطع الكعك والهدايا الأخرى. فكرتُ في مسألة كيف سيكون الحال لو أني جررتُه إلى الأرض وضغطتُ بجسمي على جسمه. سأغوي الآباء كافة وألكمهم بقبضتيّ، وسوف يُحبون ذلك. سأزحف إلى داخل بيوت النساء بالبطاقة البيضاء وأقلب الأسرّة التي يرقدن هُنّ وأطفالهن عليها، سأكون كوابيسهن، إن لم يكن بوسعي أن أكون هنّ أنفسهن. أنا حاقدة وأريد ذلك كلّه.

الطفل الصغير، طفلي الصغير الذي هو ثمرة السوء، يرضع النخاع من عظامي. نصبتُ خيمتي على رقعةٍ من أرض صلبة تُحفّها الأشجار، ونمتُ هناك طوال الساعات المُهمَلة، القابلة للتسوية لما بعد الظهر. في أحلامي رأيتُ المرأة المدعوة ماريسول، تمشي عبر حقول زهور عبّاد الشمس، وتستلقي بجواري على الحصى، حقيقية للغاية بحيث إنني توقّعتُها أن تكون هناك حين أستيقظ من النوم، إلّا أنها لم تكن هناك، وكان جسمي مُغطّى بآلاف الكدمات الشديدة الصغر في المواضع التي تحرّكتُ فيها دائرياً على الأرض، رُكبتي المجروحة تنبض، وفهمتُ بشكلٍ بدا جديداً أنّ جلدي ليس سوى غلاف يحفظ مادةً عضوية، يُمكنني أن أهرقها في الأمكنة كلّها مثل كأس ماء إذا ما جرحني أيّ شيء.

1- زهر العسل أو صريمة الجدي honeysuckle: نبتة معترشة ذات أزهار بيض أو صُفر أو حُمر، رائحتها زكية-م.

الفصل العاشر

البلدة النظيفة ونور النهار لم يكونا لي. كنتُ أحتاج إلى الطرقات المُهمَلة، إلى رقع من الأرض الغنية بالصلصال والوحل حيث يُمكنني أن أنصب خيمتي. في بار عند طريق جانبي، بين الحافلات، رضعتُ البيرة الممزوجة مع عصير الليمون ورميتُ السِهام، وأنا أتمرّن على هدفي. راقبتُ الرجال وهم يدخلون ويجلسون وحدهم، وأزواجاً أقدامهم غير ثابتة، يرقصون وأيديهم على الخاصرات، الأكتاف، والوجوه. كان هؤلاء هم الأثيرين لديّ، ينظرون أحدهم للآخر، ولا ينظرون إلى سواهم. كان من السهل أن أمتعض منهم بسبب هذا الأمر، إلّا أنني ما إن جرعتُ كأساً من شراب ضعيف حتى غدوتُ خيّرة، مثل ملاك، يقرر أن يغفر لهم سعادتهم.

تذكرتُ الراحة في الأجساد - الراحة في جسمي أنا وأجسام الآخرين. الرغبة مُسوّية. إنها تضعنا على السطح نفسه. تسمح بالنسيان والمغفرة. في بيرتي استذكرتُ مثل رجل مُسن يتعلّق بشرب الخمر من القنينة مباشرة مرةً تلو الأخرى، استذكرتُ ما يتعلّق بجرّ شعر امرأة لا أتذكر اسمها من خلف أذنها كي تستطيع أن تسمعني بنحو أفضل ما أقوله فيها، استذكرتُ ما يتعلّق بضغط كتفي في ذراع رجل لا أتذكر اسمه هو أيضاً وهو لا يتحرّك مبتعداً، رجفة اشتراكه في الجريمة.

خُلقتِ لهذه الحياة ولم تُخلقي لسواها، قال لي الطبيب أذات مرة. فكري في كلّ المسرات التي سمحتِ لها أن تتسلل من بين أصابعكِ كما لو أنها لا شيء. مشكلتكِ هي أنكِ لا تستفيدين من حريتكِ بالطريقة التي ينبغي أن تفعليها. أعني، بمستطاعك أن تفعلي أيّ شيء. توَقفَ عن الكلام. لا شيء تقريباً.

كنتُ أفكر، في بعض الأحيان، أنه مُحِق.

فيما كان الفجر ينبلج صنعتُ لي سريراً بحقيبة السفر العائدة لي وسط العشب وورق الشجر، محجوباً وبعيداً عن الطريق بمسافة كافية، إنما من دون الخيمة. أردتُ أن أتذكر كيف كان الحال أولَ مرة. وددتُ أن أكون جزءاً طبيعياً من المَشهد. الإعياء يجرجرني. حلّ الصيف، أدركتُ ذلك. دهمني النعاس في نور الشمس وأفقتُ فيه، لا أزال آمنة. رقدتُ هناك واستمعتُ إلى زقزقة الحشرات، والطيور.

بارٌ آخر تلك الليلة. رجل بمعصمين موشومين، أوراق لعب مُزينة بالريش خارجاً كي ترطب الجلد الأحمر. آس من الماس. ملكة القلوب. ابتسم بسمةً عريضة بانت فيها الفجوات بين أسنانه. أرحتُ وجهي على يديّ المتشابكتين، ونظرتُ إلى الأعلى بإعجاب، إلّا أنه حين أصبح في الحمام غادرت.

أطعتُه بطريقة عمياء، أخبرتُ جسمي. سأتبعكَ إلى أيّ مكان تُريد أن تأخذني إليه. الآن ماذا؟

الآن، لا أعرف، رد عليّ جسمي. انتظري فقط.

في البار التالي، كان الجمهور مهذارين أكثر، أشخاص حاولوا أن يشركوني في أحاديثهم بجد، لذا فقط انتزعتُ نفسي من الموقف. ومشيتُ إلى أن بزغ النور ومن ثم نمتُ على الأرض وبعدها مشيتُ مسافة أخرى، وفكرتُ أنّ في مقدوري أن أعيش حياتي هكذا على مدى برهة في الأقل، في الواقع لم أكن بحاجة للمزيد – بوسعي الذهاب لا غير، بوسعي أن أكون حرّة. باستثناء ذلك، بطريقة جديدة، لن أكون حرّة ثانية. الرجفة الموجزَة المتعلقة بتذكّر هذا الأمر، لأنها لم تكن تبدو كما لو أنها وقعت في الفخ بالطريقة التي وقعت فيها حريتي القديمة.

فيما كنتُ أمشي لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير، «لم يحصل لك شيء سيئ حتى الآن». ربما ذلك كلّه هو مجرّد كذبة. ربما لي طريقتي الخاصة معها، منها، لعلهم أدركوا أنّ هنالك أشياء أكبر كي يتعلّقوا بها. في منطقة وقوف السيارات العائدة لمطعم عند جانب الطريق سحبتُ رغيف

خبز بلا مذاق من الصناديق الكبيرة في الخارج، وتذكرتُ أنه قد يبدو لذيذ الطعم أن أقتطع الطعام بتلك الطريقة، في الهواء النقي، أقتطعه بأسناني كلّها وبيديّ. ولمّا نمتُ أبقيتُ سكيني في يدي؛ لم أعد دائخة عند استيقاظي من النوم، بل يقظة. كنتُ أتذكّر.

ربما استمرار النجاح جعلني واثقة جداً من نفسي. عرفتُ ذلك حين اجتزتُ فندقاً فيما كنتُ أمشي ذات ليلة في ظلمة استثنائية، ظهري يقتلني، قدماي أخذتاني إلى دربٍ يُفضي إليه قبل أن أتمكن من مُعاينة نفسي. «ما هو الضرر». المرأة الجالسة إلى طاولة الكتابة نظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل وأنا أيضاً فعلتُ الشيء نفسه معها، بطريقة دفاعية: البذلة الحمراء الرخيصة بالكمين المتنفخين، شعرها الأصفر نُفش وبعدها مُشّط إلى الأسفل مجدداً. بريق سلسلة علبتها المعدنية الصغيرة حيث كانت تتدلّى حول رقبتها. العرق يسيل للأسفل تحت قميصي القطني. عرفتُ من دون أن أنظر أنّ قدميّ مُلطختان بالدم في داخل فردتيّ حذائي.

ربما تُريدين أن يُقبض عليكِ، حدّثتُ نفسي فيما كنتُ أتعقبها صعوداً إلى بيت السلّم. ربما كان الطبيب أ مُحقاً على الدوام. غصباً عن نفسي، أحسستُ بغصّة لمّا فكرتُ فيه. ما زلتُ غير متعوّدة على العيش من دون ثقل تلقينه. سيكون شيئاً نافعاً أن تُخبر كيف تشعر. أن تُترجَم. للسرير ملاءة خضراء باهتة زَلِقة، من الساتان البارد. بدا الأمر كما لو أني أستلقي في الماء. دفعتُها عن السرير ووسط الأوراق بدأتُ أكتب رسالة للطبيب أ مستعملةً طقم قرطاسية الفندق التي بدأت بـ «ببعض الطرائق أحببتُكَ بنحو أعمق مقارنةً بأيّ واحد آخر»، إلّا أنني أمسكتُ نفسي في الوقت المناسب ومزقتُها، ورميتها في حوض المرحاض بعد أن حوّلتها إلى قصاصات صغيرة ودفعها دفق الماء إلى الأسفل، مفزوعة من مسألة ما كان قلبي قادراً على فعله، تياره الكهربائي الخادع. في البار الصغير (بالثلاجة) كانت هنالك منمنمات من الويسكي. لأغراض طبية، حدّثتُ نفسي، وأنا أفتح قمة إحداها بأسناني وأبصق الغطاء عبر الحجرة. أحرق السائل فمي. كان ثمة جهاز تليفون على المنضدة المجاورة للسرير. رفعتُه وأدرتُ القرص على رقم تليفون (ر).

هالو، قلت. سحبتُ السلك الملتوي الذي نقل كلماتي إلى هاتفه. انعكس نَفَسي عائداً إليّ.

مَن المتكلّمة؟ سأل.

مَن تُريد أن تكون المتكلّمة؟ سألتُه.

كان بمقدوري سماع صوت امرأة في الخلفية. سألت قائلة، مَن المتكلمة؟

لا أعرف ماذا تُريدين، قال لي.

أُريد فقط أن تضع التليفون جانباً وتمضي إلى أمسيتك كي أستطيع أن أسمع ما تفعله، قلتُ له. هل ستفعل هذا من أجلي؟

ثمة امرأة بالتأكيد. (ر)، مَن هي هذه المرأة؟ قالت.

مَن هي تلك المرأة؟ سألتُه.

تَنَفسَ بصعوبة.

تبدو المرأة لطيفة. أُراهن أنها امرأة بتذكرة بيضاء، قلتُ، ومن ثم لكمتُ الحائط، برفق، وأنا أفكر فقط في الموضوع، أعرف فقط أني على حق، وأنّ تجربتي أوصلته إلى ذراعَي امرأة طيّعة ودافئة.

أرفض مناقشة هذه المسألة معكِ، قال لي. ما هذه الجلبة؟

لا شيء، قلتُ، وأنا أتفحص مفاصل أصابعي التي لم تكن مكشوطة حتى.

انظري، قال لي. لا أعرف ماذا تُريدين مني. لا أعرف ماذا تُريديني أن أقول.

أُريدكَ أن تقول إنكَ مُغرم بي، أجبتُه. أُريدكَ أن تأتي وتنقذني وأن نكوّن أسرة أنا وأنت والطفل الصغير وراء الحدود. أعتقد أنه شيءٌ ممكن، لكن هذا ممكن فقط إذا أتيتَ الآن.

أطلق همساً خفيفاً للغاية عبر أسنانه كما لو أنه في حالة غضب أو حالة يأس شديد. لا يُمكنني أن أجزم، هذه هي صعوبة التليفون، إلّا أنه في الحقيقة كلا ردَّي الفعل مُناسبان بالنسبة لي. مُتصلةٌ لعوب، قال للمرأة في نهاية الاتصال الهاتفي، ومن ثم أنهى المكالمة. اتصلتُ به ثانيةً إنما لم يرد أحد.

اتصلتُ هاتفياً على الطبيب أ تالياً، بالطبع. كان الوقت متأخراً جداً لذا استعملتُ رقم هاتفه الشخصي، المخصص لحالات الطوارئ فقط. لم يسألني أين أنا أو كيف هي صحتي.

كالا، قال. الوقت متأخر جداً.
أُريد أن أسمعك تقول شيئاً لي، شيئاً تأسيسياً[1]، قلتُ له.
هل أنتِ في حالة طارئة؟ سألني.
لا أعرف – ليس بعدُ، ربما، قلتُ له. لكن من المحتمل أن أكون في حالة طارئة في القريب العاجل.
هذا شيء تلاعبي نوعاً ما، ألا تعتقدين ذلك؟ قال لي.
أكره هذه الكلمة، قلت له.
فقط حين تنطبق عليكِ، قال لي. أخشى أنني لا أستطيع أن أساعدكِ الليلة. ربما لا أستطيع أن أساعدكِ أبداً مرة أخرى. نامي جيداً، كالا.
فرصة ضائعة. شعرتُ بالسعادة كوني لم أُكمل الرسالة على أية حال. أصابعي ضغطت بنحو عشوائي على لوحة الأرقام. أجابت امرأة. في مقدوري سماعها وهي تدخّن.
هالو؟ سألتني. هالو، هالو، هالو؟
هل ثمة شخص هناك على الهاتف؟ سألت. أُريد فقط أن أتكلّم مع شخص ما.
ما الذي تفتشين عنه؟ سألت المرأة.
أيّ شيء، كلّ شيء، قلتُ. هل أنتِ وحدك؟
قهقهت بقوة وأغلقت سماعة الهاتف.
اتصلتُ تليفونياً بـ(ر) مرةً أخرى إلّا أنه لم يكن ثمة جواب. لذا رميتُ جهاز التليفون على الجدار إلّا أنه لم يتحطم، إنه مجرّد آلة قديمة صُنعت من مادة أقوى. ولم تكن هنالك حتى علامة متروكة على جبس الحائط.

1- تأسيسياً grounding: المقصود هنا ما يتعلّق بتلقين مبادئ علمٍ ما–م.

الفصل الحادي عشر

لم يكن هنالك حمّام لذا جلستُ في داخل الدُش وبكيت. قطعة الصابون الصغيرة بلون الجبن، وبحجم قطعة نقدية كبيرة. ضغطتُها بين راحتيّ. غرستُ أظافري فيها.

أولَ فندق رأيتُه في حياتي هو فندق في رحلتي داخل المدينة. جلستُ بحذر شديد فوق الملاءات النظيفة في الطرف البعيد من سرير كبير. كانت رِجلاي قد تمزقتا بسبب أشجار العلّيق تلك السنة. يُمكنكِ أن تأخذي دشاً وتغلقي الباب بالمفتاح إذا شئتِ، قال لي الرجل الذي وجدني أمشي في جانب الطريق.

كان الرجل حَدَثاً بعض الشيء، طويل القامة ووسيماً، بخلاف ذلك ما كنتُ لأدخل في السيارة. كنتُ مرتاحة من الفكرة القائلة إنه بدا قادراً على أن يكون نجماً سينمائياً لم يبلغ سن الرشد بعدُ، وذكرى فتاة التذكرة البيضاء في سيارتها الخاصة، النوافذ المطلية بالدهان، البوليس السري يأخذها إلى مكان ما. قد تكون هذه السيارة لي، السيارة التي كان من المفترض دوماً أن آخذها إلّا أنها فاتتني، وفاتتني كلّ أجزاء الاختبار. ففي السيارة انتبهتُ إلى يديه، الطريقة التي لم تتوقفا فيها عن الحركة على عجلة القيادة. ربما كنتُ مُخطئة. ربما سوف أُقتَل. كلا الاحتمالين انعكسا خارجاً. أعطاني عوداً من العلكة بلون بنفسجي زاه وسيجارة وسمح لي أن ألتقط المحطة في الراديو.

كنتُ قد خرجتُ ماشيةً من دش الفندق الأول ولبستُ علبتي المعدنية الصغيرة في رقبتي من جديد فيما كنتُ لا أزال رطبة. لبستُ ثوب الحمام النظيف من خلف الباب. المعطف المقاوم للماء الذي سرقتُه من محطة

خدمة سيارات قبل بضعة أسابيع في الغرفة الأخرى، مُنثنٍ على أحد الكراسي. مشط صغير جداً. عيدان نبش الأسنان. براعم قطن لتنظيف الآذان. استعملتُ فرشاة الأسنان برهةً طويلة.

كان الرجل جالساً على السرير لمّا خرجتُ، مستنداً للوراء إلى الوسائد كلّها ويُشاهد برامج التلفيزيون. كان قد فتح زر ياقة قميصه الأبيض وعلّق جاكتته السوداء المصنوعة من السويدي في خزانة الملابس. جاء دوري، قال، وهو يبتسم بسمة صغيرة. دخل إلى الحمّام وأغلق الباب إلّا أنه لم يقفله بالمفتاح. تنقلتُ بين قنوات التليفزيون. نظرتُ إلى لائحة خدمة الغرف.

إنّكِ طويلة القامة بالنسبة لعمرك، قال لي لمّا رجع إلى الغرفة، مبلل الشعر، المنشفة حول خصره. حوّلتُ بصري عنه. لم يكن الأمر يبدو أنني لم أتخيّل سيناريو مشابهاً، إلّا أنه في أخيلتي الجامحة كان هنالك وقوف تحت القمر سَلَفاً، والنجوم تُشير إليّ. ربما، أيضاً، ثمة وردة في صندوق أبيض طويل. هنا، لا توجد نجوم. كانت هنالك زهرة مُزخرفة مصنوعة من الورق وملوّنة على الحائط. خارطة قديمة للمنطقة، البحيرة اختارت لوناً أزرق مخضراً.

سار في اتجاهي وسألني ما إذا كان بوسعه أن ينظر إلى العلبة المعدنية الصغيرة المُدلاّة من عنقي. قلتُ نعم. ركع أمامي، فتحها، رأى اللون الأزرق، وأغلقها من جديد. مسّ مساً خفيفاً خصلة شعر ندية من خدي. ألَنتِ جائعة؟ سألني وأومأتُ برأسي علامة الإيجاب؛ كنتُ جائعة فعلاً. رفع سماعة الهاتف وطلب شطيرتي همبورغر مع الجبن. وصلتا إلى باب غرفة الفندق بانسيابية، في غضون دقائق. امكثي في الخلف، قال لي قبل أن يجيب على قرع الباب، وهو لا يزال يلبس المنشفة. أكلنا الطعام جالسين على الأرض. نبيذ أبيض سبرايتزر[1] لي، وبيرة له.

هل لدَيّ مانع إذا ما استلقى هو على السرير، سألني بعدها، بطريقة تبريرية تقريباً. فتح الثوب المطوي. جرّبت أن أقبّله كلّما يكون فمه قريباً من فمي، بطريقة متشنجة للغاية، مثل طير يحاول أن يأكل. ومن ثم أشحتُ بصري عنه

1- نبيذ أبيض سبرايتزر white wine spritzer: كوكتيل خفيف يُخلَط فيه النبيذ مع ماء الصودا ويُقدّم مع مكعبات الثلج-م.

ناظرةً إلى السقف المحشو بنفاية القطن بدلاً من ذلك، وأنا أشعر بالخجل من نفسي، وبالخجل منه. سوف أصطحبكِ بالسيارة أينما تُريدين أن تذهبي، قال لي تالياً، وفعل، في الصباح، بعد أن نمتُ في سرير ذلك الفندق الأول. في المرة الأولى أخذني جسدي إلى مكانٍ ما. أحسستُ بتعبٍ ساحق للغاية بحيث إنني لم أستيقظ إلا حين لمس علبتي المعدنية الصغيرة المُدلاّة من رقبتي صباحاً - برفق، إنما مع ذلك أحسستُ بلمسته.

في السيارة لم نتكلّم. اغتسلنا بالدُش معاً من جديد وكان شعره لا يزال رطباً، مفروقاً بعناية. في الدش انكفأتُ ولمستُ أصابع قدمي، وبقيت معلّقة هناك وسمحت للجاذبية أن تشتغل عليّ إلى أن أحسستُ أني سأسقط. لم يكن نجماً سينمائياً دون سن الرشد، على أية حال. حاولتُ أن أقرر ما إذا كان بوسعي أن أكون مُغرمةً به. أعطاني مُفكّرة هشة، كبيرة الحجم. كوني بأمان، قبل أن يباشر بقيادة السيارة. كنا في بلدة قريبة من المدينة. بعد أن غادر اشتريتُ ليتراً من عصير البرتقال وفستاناً جديداً، وقفتُ خارجاً في رقعة من نور الشمس وقرقرت نصف العصير مباشرةً في جرعة واحدة. في حمّام أحد المقاهي غيّرتُ الفستان، كان قطنياً وبلون الخوخ، وبعدها خرجتُ وجلستُ وطلبتُ كوباً من القهوة والورق.

في ذلك الفستان مشيتُ عبر المدينة. أخبرني هو أنه ليس في مقدوري أن أدخل سيارة أيّ شخص آخر. يتعين عليّ أن أمشي على قدميّ. لي شقيقتان، قال لي. كان لا يزال بوسعي أن أشمّ رائحة الفندق تفوح مني. الشامبو الصغير، الشبيه بالدمية في يدي الرطبة الذي غسلتُ به شعري ذلك الصباح مرةً، مرتين. بوسعكِ أن تأخذيها كلّها، قال لي، ولمّا مشينا مارين بالاستقبال رفس قلبي، إذ حسبتُ أنهم سيرون أني لصّة، عبوات غسول الجسم ومكيفات الشعر الشديدة الصغر في حقيبة الظهر العائدة لي ترتطم واحدةً بالأخرى، إلّا أنه لم يُوقفني أحد.

كلّ الأشياء السيئة التي عرفتُها سأفعلها في المستقبل الممتد أمامي، وبطريقةٍ ما كانت احتمالات امتلكت سحرها المُنحرِف. أظهرت لي أني مؤهلة. لم أشعر بأني حزينة أو خجولة أو مُستغَلة. بطريقتي الخاصة، بطريقة ستُصبح مألوفةً بالنسبة لي في وقت عاجل بما يكفي، أحسستُ أنني بخير.

الفصل الثاني عشر

تركتُ جهاز التليفون في مكانه، استحممتُ بالدش، وضعتُ أحمر الشفاه الداكن وخرجتُ ماشية من حجرتي، متجهةً إلى المصعد الكهربائي. السجادة سميكة وناعمة إزاء قدميّ الحافيتين، بلون بُني أقرب إلى لون الخوخ. لا وقت لدَيّ كي انتعل حذائي. لا وقت لدَيّ كي أنتظر المصعد الكهربائي، لذا نزلت بيت السلّم. ضوء بارد مرتعش. كان البار في الفندق خالياً تقريباً. طلبت كأس ويسكي وجلست إلى طاولة في الركن، مكوّرةً قدميّ العاريتين تحتي. أخذتُ قارباً ساحلياً في رحلة قصيرة ذهاباً وإياباً، وهذه خصلة تعلّمتها من (ر). كان المركب الساحلي يوزّع إعلاناً عن بيرة مُغتنية بالحديد. مزقتُه، قليلاً، فقط لأني قادرة على ذلك. أحسستُ بأن أسناني كبيرة جداً بالنسبة لفمي، وصلبة. كنتُ المرأة الوحيدة. اختاري رجلاً، أيّ رجل، حدّثتُ نفسي. افعليها. نظرتُ إلى رجل قصير القامة ذي شعر داكن يجلس إلى البار على ستول. كان البار أخضر كالنعناع ومن الرخام المزيف، أما المقاعد فمن (ال ڤنيل). لا أعتقد أنه يشبه شرطياً سرياً، لكن بعدئذ، مَن يستطيع أن يجزم. كنتُ مُخطئة فيما يتصل بأشياء كثيرة جداً وسأظل على خطأ. ظلّ يلتفت كي ينظر إليّ، وفي خاتمة الأمر جاء إليّ.

أين هو حذاؤكِ؟ سألني. ابتسمت.

أكلتُه، أجبت.

أشار الرجل إلى النادل، الذي أومأ برأسه علامة الإيجاب وأنزل كأسين من أحد الرفوف. راقبتُه فيما هو يصب الأشياء. كان يُعِدّ كأسين من المارتيني. جلبهما إلينا على صينية نحاس مستديرة. شرائح ليمون خفيفة

كالورق. كانت الكأسان باردتين للغاية. كان المارتيني ألذ شيء شربتُه في حياتي كلّها.

ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ سأل الرجل.

كلّ شيء، قلتُ. «أُمّ سيئة، أُمّ سيئة».

إنكِ لستِ مستعدة كثيراً لتقديم المعلومات. إنكِ لا تتحدّثين كثيراً جداً، قال لي. إنكِ لا تُعطينني شيئاً كي أعمل عليه.

حسناً، ليس لديّ أشياء كثيرة كي أقولها، قلتُ.

ربما أنتِ شخصٌ من النوع الذي يتكلّم فقط حين يكون لديه شيء يقوله. أو ربما أنتِ مشغولة بأشياء أخرى، بدلاً من التكلّم.

أعتقد أنكَ ربما تكون على حق، قلتُ له. فيما يتصل بالأشياء الأخرى.

أتريدين أن تعرفي عني؟ سألني.

لا، لا في حقيقة الأمر، قلتُ له، وضحك. بدت ضحكته فاتنة بفعل قسوتي، ولم تكن ضحكةً غاضبة. أخذتُ جرعة أخرى ملء الفم من مشروبي. في موضعٍ ما في الخلفية كانت هنالك امرأة تُغني بمصاحبة أوركسترا. أتت الموسيقى من سمّاعة فوق طاولتنا. رفعتُ عينيّ من تحت أهدابي، وسمحتُ له أن يرى الخط الواضح لحنجرتي.

لكن ما الذي جرى لحذائكِ، حقاً؟ سألني.

سأحكي لك سراً، قلتُ له، وأنا أميل إليه. لم يسبق لي أن انتعلتُ زوجاً من الأحذية في حياتي. كنتُ أمشي على الدوام هنا وهناك بقدميّ الحافيتين. جلدي قوي بصورة غير طبيعية. لم أكن بحاجة إليهما.

أنتِ إذاً أُعجوبة طبية؟ قال لي.

هذا صحيح، قلت له. في ولادتي صرّح الطبيب بأنه حَدَثٌ غير مسبوق. حملني شخصياً حول المستشفى كي يستطيع أن يراني الجميع.

هل بوسعي أن أرى هاتين القدمين السحريتين؟ سألني.

أرجحتهما في حضنه، حضن سرواله الناعم. يقيناً، قلتُ له. لا تُجهِد نفسك.

راقبنا النادل من الموضع الذي يقف فيه، كما لو أنه يُراقبنا رقابةً شديدة.

توقفت قصتي - لم تكن قدماي تبدوان كقدمي شخص لم يسبق له أن انتعل زوجاً من الأحذية. كانت أصابع قدميّ مُرصّعتين بالجلد الغليظ، الأحمر والمتورّم، مع أنها في الأقل لم تعُد تنزف. باستطاعتي أن أرى الآن أنّ اثنين من أظافر أصابع قدميّ الأصغر قد سقطا، بالطريقة التي اختبرتُها سابقاً بعد ستة شهور من الركض في زوج من الأحذية الرياضية الضيقة للغاية من دون مُبالاة. الرجل داعبهما على أية حال، كما لو أنه لا يوجد فيهما شيء خاطئ. هذا الأمر جعلني أحس بالسأم لدى رؤيتي إياه وهو يلمسني بتلك الطريقة، وهو يُمسك بتلك الأجزاء القبيحة مني بإجلال كبير. جعلني أحس أني قاتلة، كما لو أنه بوسعي أن أسحقه كما أسحق حشرة وهو يشكرني على ذلك. سحبتُ قدميّ وأبعدتهما عنه إنما بعدها انحنيت عليه كي أقبّله بدلاً من ذلك.

تعالي إلى حجرتي، قال لي. مشينا خارج البار معاً. كنتُ أرتجف. تبيّن لاحقاً أنّ المصعد الكهربائي عاطل، لذا مشينا. في بيت السلّم المظلم عصرني حيال الحائط المطلي بصورة سيئة. أتى إلينا صوت المصعد وهو يحاول ويخفق في الحركة. الأشياء كلّها تفوح برائحة القاصر. ربتُ على يديه كي يُبعدهما عن علبتي المعدنية الصغيرة وتحركتا بدلاً من ذلك إلى سروالي (الجينز). توترت أعصابي فيما كانت يداه تمران بخفة على بطني، وعلى خصري.

استلقِ على الأرض، قلتُ له.

هنا؟ سألني، لاهثاً.

أجل، هنا، قلتُ له. استلقِ وأغمض عينيك وتظاهر بأنك ميت.

استلقى على السجادة وأغمض عينيه. باعدتُ بين رِجليه وأنا واقفة فوقه وفتحتُ إبزيم حزامه. ارتعش جلد أجفانه الخفيف. وتحت لحيته الخفيفة كان جلده أحمر اللون، والأوردة والدم مفعمة بالحيوية. ارتعشت شفتاه في بسمة.

إنكَ لا تتظاهر بأنكَ قوي بما يكفي، قلتُ له.

أردتُ أن أكون نشيطة، أردتُ أن يرجع العنف الذي تحت جلدي ويُخبرني ماذا أفعل، كي يوجهني. أردتُ أن أضاجِع وأن أضاجَع إلى درجة الهذيان، أردتُ برميلاً من الكحول، أردتُ أدويةً تُغيّر العقل، أردتُ أن أحزّ حنجرته - إلّا أن ذلك كلّه دلف إلى عالم آخر.

تركتُه وشأنه. جلس وقهقه، إنما من دون خُبث. أخذني إلى حجرته. كانت أفضل من حجرتي. علينا أن نُطفئ المصابيح كلّها، قلتُ له. سوف أنتهي من المسألة. أطفئ المصابيح، قلتُ له، وأخيراً فعل ذلك.

على الفراش بكيتُ، بهدوء، لأنه لم يكن بمستطاعه أن يراني. لأنه ما من شيء من شأنه أن يجعلني أشعر بأني أحسن، ما من شيء من شأنه أن يكون كافياً. بكيتُ بسبب غياب النساء اللائي شاهدتُهن على الطريق، وتعيّن عليّ أن أفعل هذا وحدي. بكيتُ لأنّ (ر) لم يشأ أن يُنجب طفلاً مني ولأنّ الطبيب أ كان خصمي ولن يُنقذني أو يُعالجني.

من فضلكِ لا تبكي، قال الرجل، برقة. لا يتعلّق الأمر بقدميكِ الجميلتين. بل بجسمكِ الأعجوبة.

ركعتُ في الظلام وانتظرت. راحتاي على الساتان. من أيّ زاوية يأتي الرجل، ماذا سيفعل بي أولاً، ماذا يُريدني أن أفعل. طفا دماغي كالبالون. انتبهي إلى ما تفعلينه حالياً، حدّثتُ نفسي، الارتباط هو الارتباط. يده ناعمة على مؤخرتي. لم تكن يداه غير لطيفتين. كنا جسدين ضائعين نتكلّم اللغة ذاتها، أو نتكلّم لغة مُشابهة. ومع ذلك، كنتُ أرغب بكأس مارتيني ثانية. أردتُ أن يكون هنالك دزينة من الأشخاص في الغرفة، يراقبون ويمارسون. لم أكن متأكدة ما إذا كنت سأصل إلى النشوة الجنسية إلّا أنني وصلت، على الفور تقريباً، على الرغم من شعوري بالخجل، أو ربما بسببه. فكرتُ في الطبيب أ على حين غرة، فكرت في القرف السريري الذي سوف يحس به لو كان باستطاعته أن يُشاهدني الآن. شرعتُ أبكي من جديد ولم أكترث ما إذا كان الرجل قد رأى ذلك أو أحس به.

أنا ذاهبة، قلتُ، وأنا أزحف عن حافة السرير وأنزل على الأرض. تحسستُ هنا وهناك بحثاً عن ملابسي وسحبتُها ولبستُها.

لا تذهبي، لا تذهبي، قال لي، وهو يُشعِل المصابيح. لقد بدأنا تواً.

لا، قلتُ، وأنا أبعده عن طريقي، لقد انتهت علاقتنا، شكراً على الشراب.

أمسك بذراعي ورفّت عيناه طويلاً، مستجمعاً صبره. ولمّا فتح عينيه كانتا قاسيتين. نلتُ كفايتي من كلامكِ الفارغ، قال لي. كنتُ طيباً معك ولا أستحق أن تعامليني بهذه الطريقة.

رفع يده وصفعني على وجهي، من دون تردد، لكمة ضعيفة. الوجع غيّر لوني باستمرار غصباً عن نفسي ومن حين عاد إليّ لوني، إلّا أنني أحسستُ أني في حالة أسوأ وأخبرتُه بذلك -حدّقتُ في عينيه مباشرة وقلتُ له، «تلك الصفعة حتى لم تؤذني»، الدم يقطّر حاراً على شفتي العليا، يتجمع ومن ثم يتدفّق بحرية في داخل فمي. بدا مذاقه جيداً- مُغذياً، مُطمئِناً، على غرار رائحتي الوسخة في الصباحات. على حين غرة أضحى تركيزي شديداً. لم أهتم بما يكفي فيما يتصل بنفسي إلّا أني اهتممتُ فيما يتصل بالطفل الصغير. فتحتُ الباب وشرعتُ أركض.

إلى أين أنتِ ذاهبة؟ سمعتُه يصيح. بدا بائساً. ارجعي، ارجعي!

قفزتُ، طرتُ عبر الهواء، وجدتُ درجات السلّم، وجدتُ الباب، وجدتُ أرضي، لم أتوقف، فتحتُ بابي بمحاولة واحدة وصفقتُه ورائي. جلستُ على الأرض واستمعتُ إلى صوته وهو يطوف هنا وهناك كالثور.

أين أنتِ؟ إنه يجأر. إلى أين تذهبين؟

في الواقع لا أعرف حتى المكان الذي أذهب إليه.

هل هو خارج نظامكِ الآن؟ سألتُ نفسي، وأنا أزحف بعيداً عن الباب على يديّ وركبتيّ. هل انتهيتِ؟

البياض وحده في الفراغ بين أفكاري. انفلاق ضوء في العتمة، تحت الباب. بدا شيئاً جيداً أن أهوي إلى الأرض.

تحرّك أبعد إلّا أنه لا يزال باستطاعتي أن أسمعه. «المرء ينبغي أن يختلي بنفسه»، فكرتُ مع نفسي، بحذر شديد لا أفكر في ما يُمكن أن يحصل إذا لم يفعل أحدٌ شيئاً، وفي الختام حلّ السكون. ربما أكون مومساً، ربما

أغويتُه في ظلّ ادعاءات زائفة، إلّا أن هذا شيء مقبول، هذا شيءٌ ليس شيئاً لا يُغتَفر مثل الطريقة التي حملتُ فيها بطفل. كنتُ أنزف قليلاً، قليلاً، في داخل فمي. سمحتُ للّعاب الوردي أن ينسكب على السجادة، ومن ثم على ملاءات السرير. لم أمسح لون أحمر الشفاه والدم وصل إلى الأمكنة كلّها، إلى كلّ مواضع غطاء الفراش ذي الشعور الغالي، اللطيف، كما لو أنني مزقتُ شيئاً ما.

الفصل الثالث عشر

أصبح الوقت فجراً وعرفتُ أنه ينبغي علي الذهاب. الزمن يتخذ سبيلاً لولبياً بعيداً عني. وفيما كنتُ أنزل ممرات الفندق أحسستُ بالوجوه ذات النظرات الخبيثة للأشخاص وراء الأبواب، أشخاص يأخذون استراحة من انحطاطهم كي ينظروا عبر ثقوب الأبواب ويراقبوا خطواتي.

ترددتُ عند أسفل درجات السلّم، غير راغبة في أن أمضي قُدُماً إلى مكتب الاستقبال في حالة وجود الرجل هناك، مع أنه لم يكن ثمة أحد في الجوار في وقت مبكر جداً. بدلاً من ذلك تملّصت واجتزتُ الممرات الخلفية إلى أن وصلتُ إلى باب الهرب في حالة حدوث حريق وشققتُ طريقي إلى الهواء المنعش، رائحة عفنة حلوة من صناديق قمامة الفندق التي تتكدّس فيها النفايات. ثمة ثعلب يشك في كيس بلاستيكي يفرّ بعيداً. قفزتُ فوق سياج منخفض إلى حديقة شخص ما، ومن ثم إلى حديقة أخرى، إلى أن وصلتُ إلى الشارع مُجدداً. كان الصباح نقياً ومشرقاً وحاولتُ أن أستمتع به، مهما كان نوع الشعور الجيد بوسعي أن أتدبّر الأمر، إلّا أن ذلك لم ينجح. شفتي تؤلمني وبدا مذاقها معدنياً. كان جسمي يُريد أن تطوّقه ذراعا (ر). رائحة عنقه. إنها كلّها ذكرى عضلة، الإفراط العاطفي من أجل شيء لم يحصل فعلاً. ذكّرتُ نفسي بذلك، مع أن الحقيقة تلدغ.

كانت الحافلة التالية خاليةً إلا من امرأة عجوز ورجل آخر، هذا الرجل أصغر سناً بكثير، يترهّل في المؤخرة. ابتعدتُ عنهما كليهما لكن بالطبع تحرّك الرجل كي يجدني، كالسابق، وتمايل فيما هو يمر بممشى الحافلة. كنتُ أشتعل. الأدرينالين فتح السحاب عند سطح جلدي.

مرحباً، ما اسمكِ؟ سألني. ابتسم بسمةً عريضة وجميلة. أحد أنيابه مفقود.

لا اسمَ لي، قلتُ، هذه المرة.

ماذا جرى لوجهكِ؟ سألني.

لمستُ شفتي المشقوقة. إنها هكذا على الدوام، قلتُ له.

ابتسم بسمةً جميلة ونقّب في كيس حِمل خيش. سلّمني قطعة مربعة من ورق بنفسجي. وليس تذكرة زرقاء. حملتها في راحة يدي.

لا يُمكنني أن آكل هذه، قلتُ له.

بحوزتي ثلاث منها أصلاً، قال لي، الأمر الذي فسّر بؤبؤيه المشوّشين، ووجهه الرطب. إنه السبيل الوحيد للسفر بواسطة الحافلة، قال لي، وضحك كالضبع. كان أصغر سناً مما حسبتُ أولَ مرة، ولعله في أواخر سني مراهقته. بفمه المفتوح بدا أشبه بطفل نما أكثر من اللازم، أطول بثلاثة أقدام مما يجب أن يكون عليه.

قُل لي ماذا ترى، سألتُه.

أشار إلى مقعد الحافلة الشديد الشحوب قبالته. الجذور انبثقت خارجاً، قال لي. الزهور كلّها في المرج وهي تبلغ السماء. ترقص بسعادة هنا وهناك كما تشائين.

مشى متثاقلاً إلى النافذة وضغط وجهه على الزجاج. وانظري، قال لي. الكون في الخارج، وسائر السيارات الأخرى تطير. إنها أشبه بطيور فوقنا.

حين أبعد وجهه ترك لطخةً خفيفة على الزجاج من خدّه الذي ينز عَرَقاً.

نظرتُ خارج النافذة إلى ناحيتي. كنتُ أرغب برؤية ماذا بوسعه أن يرى، بدا ذلك أفضل من عالَمي، إلّا أنني لن آخذ اللقب – مع أني أعرف أنّ الأم لن تفعل ذلك. المرأة بالتذكرة البيضاء نزلت من الحافلة أصلاً.

رأسكِ هو زهرة عبّاد الشمس، قال لي. إنه شيء لا بأس به، طمأنني. مع ذلك باستطاعتكِ أن تبقي حية. إنه شيء يُناسبك.

مدّ رِجليه ونظر إلى قدميه برهةً. كان ينتعل حذاءً رياضياً أبيض قذراً، بأصابع قدمين حُمر. راقبتُ وجهه يتحرّك عبر الخوف والقبول ويعود إلى البسمة الجميلة، قبل أن يلتفت إليّ من جديد.

دعينا نلعب «حجر ورق مقص»[1]، قال لي، إلاّ أننا لا نستطيع أن نصل إلى مكان بعيد للغاية لأنه ظلّ يتوقّف كي يحدّق في يديه ويديّ.

إلى أين أنتَ ذاهب؟ سألتُه فيما هو يقبض على رسغي ويتفحص أصابعي. رفعها إلى وجهه مباشرةً، وراح ينظر إليها عن كثب ويتنبه لكلّ تفاصيلها.

إلى البيت، قال. إلى البيت!

لكن أين هو ذلك البيت؟ سألتُه.

في مكان قريب، قال لي.

أخلد إلى النوم، توهّج خدّاه. كان ابن شخصٍ ما. شخص ما هناك أبقاه في مأمن. في الخارج كانت السماء تمطر الآن، الماء يتدفق أسفل الشبابيك. كانت رحلتانا مختلفتين إلّا أنهما تتقاطعان بصورة موجزة. تمنيتُ له كلّ الأشياء الحسنة. تمنيتُ أن أُبقي فرداً ما آمناً أيضاً.

1- حَجر وَرَق مِقص rock paper scissors : ربّما بترتيب مغاير فيُقال «ورق مقص حجر»: هي ملاعبة يدويّة بين شخصيْن، تكون بأن يعُدّا حتى ثلاثة فينطق كلاهما اختياره (وهو إمّا أن يكون «ورَقة» أو «حجَر» أو «مقصّ») مع تمثيله بيده بالتمثيل المتعارف عليه، والاختيار يحدد الفائز بحسب القوانين التالية: الحجر يهزم المقص (بكسره) والورق يهزم الحجَر (بتغطيته) والمقص يهزم الورق (بقصّه)، وبذلك فأيّ اختيار يهزمه اختيار آخر، ويمكنه هزم الاختيار الثالث. قد تستخدم هذه اللعبة بوصفها لعبة منفصلة أو تستخدم باعتبارها أسلوباً للاختيار في الألعاب الأخرى (بطريقة مشابهة لاستخدام القرعة، أو استخدام النرد أو الزهر) ولكن على العكس من استخدام النرد الذي يكون في العادة عشوائيّاً بالكامل فإنه باستخدام هذا الأسلوب يستطيع اللاعب أن يكتسب المهارة للفوز بها. ابتدعت لعبة «حجر ورق مقص» في بلاد الصين، وتحكي الكتب الصينية عن ظهورها في عهد سلالة مينغ) منذ القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد)-م.

الفصل الرابع عشر

في محطة خدمة السيارات تفرّقنا في الجمهور المتناثر. لم تكن مكتظةً في ذلك الوقت من النهار. أبقيتُ عينيّ مفتوحتين على وسعهما، واتخذتُ طريقي نحو الحمّام وجلستُ في حجرة صغيرة، وتنفست. أتت تنهيدة خفيفة من الشخص المتاخم لي. راقبتُ الظلال التي كانت تُلقيها أقدامه فيما كان يتحرّك. بدت الحجرة الصغيرة آمنة، لم أشأ أن أغادرها وأرجع إلى العالَم. كنتُ أُريد فقط الفورميكا الرخامية البيضاء، مشمّع الأرضية المتآكل عند الحافات، فضاءً ضيقاً ونظيفاً.

لمّا استجمعتُ قواي كي أغادر الحجرة الصغيرة، كانت هنالك امرأة ذات شعر أسود طويل تغسل يديها في حوض. كانت لديها طريقة منهجية في الغسل – تضع رغوة الصابون على راحتيها، وأعلى معصميها، ومن ثم تنزل من جديد كما لو أنها تُفرّش شيئاً ما. تغسل وبعدها تضع رغوة الصابون ثانية. كان باستطاعتي أن أراقبها طوال اليوم. اتخذتُ موضعاً عند حوض بجوار حوضها وحاولت الاعتداء على استغراقها في التفكير. التقت عيوننا في المرآة ونسيتُ ما يتعلّق بغسل يديّ. ماريسول، قلتُ. كانت ثمة لطخة تراب عند صدغها. عبّر وجهُها عن دهشةٍ موجزة لكن عميقة. غسلت يديها آخر مرة ومن ثم انحنت على المغسلة وغسلت وجهها برشاقة.

إنكِ تتذكرين اسمي، قالت لي.

هل تتعقبينني؟ سألتُها. حاولتُ أن أبدو مُهدِّدة إلّا أن تهديدي لم يصل إلى الساحل.

ينبغي لي أن أسألكِ السؤال ذاته، قالت لي. مَن الذي يتعقبكِ؟ إنكِ حتى لا تملكين الخارطة الصحيحة.

بحوزتي واحدة الآن، أجبتُها.

ابتسمت لي. أحسنتِ صنيعاً، أحسنتِ صنيعاً، إنكِ تستحقين نجمةً ذهبية.

ذهبنا معاً إلى الغرف الرطبة من دون مناقشة الأمر. وضعنا القطع النقدية في الباب الدوّار، وخلعنا ثيابنا ومشينا تحت رشاشات الماء، الأجسام منفصلة بواسطة حاجز مُصفّح خفيف. التقارب بيننا جعلني أحس بالدوار. لم نتكلّم. الماء تجمع من جانبها إلى جانبي وانحنيتُ كي ألمسه، وراودتني الفكرة الجامحة بأني أرغب بشُربه. وبعدها فكرتُ، «آ، إني أدرك هذا»، وكان من المُضحِك أن أشعر بشيء آخر غير الخوف، اليأس، وأن أعرف أنّ أحاسيس أخرى لا تزال ممكنة. انحنيتُ على الحاجز وتخيّلتُ جسدها يفعل الشيء نفسه. ذراعاً بجوار ذراع. رِجلاً بجوار رِجل.

لمّا فرّشتُ أسناني في الدُش، بقوة بالغة، وبصقتُ على الأرض، كان هنالك دم في الرغوة وإحساسٌ رهيب بأنّ في فمي شيئاً مُرتخياً -- حصى، تُراب، عظم. يداي في فمي، وأنا مفزوعة. سنّي، صحتُ على ماريسول. ثمة شيء خاطئ.

لبسنا ثيابنا وتقابلنا خارج الكابينتين. مبلّلتي الشعر، حافيتَي الأقدام، وأمعنت النظر في فمي. هذا يحتاج إلى القلع، قالت لي. هل تُريدينني أن أقلعه الآن؟ بوسعي أن أنتزعه من فمكِ. إنه يؤذي إنما مدّة قصيرة ليس إلا. أُحب قلع الأسنان.

لا، قلتُ لها. سحبتُ منديلاً ورقياً من الجهاز الموزع[1]ووضعته على فمي كي أُوقف النزف.

إنه شيء طبيعي، قالت. إنه الشيء الطبيعي الجديد. الطفل الصغير يأخذ سناً. ألم يُخبرك أحد بذلك من قبل؟

لم يُخبرني أحدٌ بأيّ شيء، أجبتُها، والمنديل الورقي تبلل شيئاً فشيئاً بدمي. بم يُخبرني أيّ شخص ملعون بأيّ شيء! وعلى حين غرة أصبحتُ غاضبة جداً بسبب ذلك.

1- الجهاز الموزع the dispenser: جهاز يُوجد عادةً في دورات المياه أو الحمّامات يسحب منه المرء قطعةً من منديل ورقي كي يُجفف يديه أو وجهه-م.

انظري، قالت، وهي تكشف لثتها العليا والسفلى، فيها فجوات وثمة لون وردي في الخلف.

غادرنا الغرف الرطبة وخرجنا إلى منطقة ممر مُقنطَر، ألعابٌ إلكترونية تئز وتومض. انحنيتُ على أكثرها سطوعاً، وأنا أمسّ سني مراراً بلساني. سوف تفوتني حافلتي، قلتُ فيما كانت هي تدس قطعة النقد في داخل أحد الأجهزة وتسحب العتلة. ربما ذهبت الحافلة أصلاً.

ابقي معي، قالت لي، وجهها أُضيء باللون الأحمر والأصفر، عيناها تدرَّبتا على الصور التي كانت تدور.

ألم تكوني مع شخصٍ آخر أصلاً؟ سألتُها، ساعيةً لأن أبقى غير مبالية.

آ، ذَهَبت هي بعد مدة غير قصيرة من لقائنا، قالت لي. أفكارنا مختلفة. ربما الشيء نفسه سيكون صحيحاً بالنسبة لنا. إنما، دوماً، عقلان أفضل من عقل واحد.

حسناً، قلتُ، بعد أن فكرتُ في الأمر ثواني قلائل.

كان لا بد أن ترددي مدةً أطول، قالت لي. لا أزال قادرةً على أن أقتلك.

باستطاعتي أن أحمي نفسي، قلتُ لها.

تحرّكت فجأةً، عصرتني على الحائط والتفت يدها خلف ظهري. لم أشعر بالرعب بل بالاهتياج، تسارعت نبضات قلبي. برهني على ذلك، قلتُ لها.

ما من شخص آخر كان في مقدوره أن يرانا في تلك الزاوية. جسمُها يضغط على ظهري.

فمها بدا قريباً من رقبتي، نَفَسها حار على جلدي. لم يكن باستطاعتي أن أرى ما إذا كانت تحمل سكيناً. ركلتُ للوراء غريزياً، انتزعتُ ذراعي وأمسكتُ بسكيني، دُرتُ كي أواجهها. كانت مُخضبة بالاحمرار، تدعك قصبة ساقها في الموضع الذي لامستها فيه قدمي، عينها على سكيني التي كانت ترتجف في الهواء. هنالك ضوضاء الناس الذين يمرون بنا على بُعد بضعة أمتار، يحملون الطعام، أجهزة الممر المُقنطَر تغني بصوت عال.

حسناً، قالت لي. اعتبريني مقتنعة.

نَفَسي ثقيل وكلّ أجزاء جسمي دافئة. الجهاز الأقرب إلينا أمطر وابلاً من القطع النقدية. غرفتها ماريسول ووضعتها في يديها، جيوبها، بسعادة قليلة إنما واضحة.

دعينا نذهب إذاً، قالت لي. تحرّكت بطريقة حاسمة خارجاً نحو موقف السيارت، ولم تنظر إلى الوراء كي ترى ما إذا كنتُ أمشي وراءها.

الفصل الخامس عشر

ماريسول أفضل فيما يتصل بالبقاء مني. كانت قد نصبت خيمتها الأولى في حقل وتركتها هناك في أثناء ساعات البداية العصيبة، واشترت خيمةً جديدة، خاكية اللون جرى إصلاحها. قادت السيارة الأولى إلى داخل إحدى البحيرات وسبحت حتى السطح بشكل من الأشكال، متمنيةً أن يُراقبها الناس ويحسبون أنها ميتة. كانت قد أبرمت صفقة، تجارة، من أجل السيارة الثانية، إلّا أنها لم تتقن العمل.

إنكِ تحتاجين لأن تتذكّري كيف فعلتِ ذلك من قبل، قالت لي فيما كنا راكبتين في السيارة. النظام خذلنا. إلّا أن جسمينا أتيا بنا إلى هنا أولَ مرة. باستطاعتنا أن نبقى، إنكِ تعرفين أنّ بوسعنا أن نبقى، نحن دليلٌ حيّ.

ماريسول فتاة ريفية أيضاً. في رحلتها أدّت دور الأم، مع أنها واحدة من أصغر الفتيات سناً، ودهمها البلوغ تقريباً قبل أن يكون لديها الوقت كي تتعوّد على فكرته. بينما كنتُ أدع الفتيات يرحلن وحيدات حاولت هي أن تحشد الجميع معاً، وهكذا تحرّكن في أرجاء الريف. أحسستُ بالخجل من مسألة كيف أنني لم أبالِ فيما يتصل بما يُمكن أن يحدث للفتيات الأُخريات. سمحتُ لهن أن يذهبنَ في حال سبيلهن. سمحتُ لهن أن ينخرطن بسهولة في أيّ كارثة تنتظرهن مهما كان نوعها. لكنهن بعدئذ فعلن الشيء ذاته معي، أيضاً.

نظريتي، قالت لي، هي أنهن يراقبن كلّ حركة نقوم بها، وأنهن يرغبن بأن يرين درجة نجاح عملنا. إنهن لا يرفعن أبصارهن عن ذلك. لدينا شيءٌ كثير كي نُثبته.

قدنا السيارة طوال الليل بأكمله، الجبال تفسح المجال إلى غابة ملتوية.

كان الجو دافئاً للغاية. كدّست ماريسول قناني الماء في كل مكان بالسيارة؛ كانت تتدحرج تحت المقاعد، وتتحرّك من جانب إلى آخر. بحوزتها قنينة ماء مفتوحة بين فخذيها، ولمّا جاء دوري كي أقود السيارة كانت تمد يدها دورياً وترفع القنينة وتقلبها في فمي. كنتُ واعيةً للغاية حين تقرّب يديها من شفتيّ.

بين حين وآخر كنا نتوقف كي نتبول معاً، نفتح بابيّ السيارة كي نعمل حاجزاً. كنا نخجل فيما يتعلّق بهذا في أول الأمر إلّا أننا توقفنا عن الخجل. كان جسمانا معاً يبدوان وظيفيين وعدوانيين في آن. ثمة شخصٌ ما في داخلكِ، قلتُ لماريسول، وردت عليّ بوقار، «وفي داخلك».

دميتان روسيتان، قالت لي، حين توقفنا عن الضحك. نحن نستمر ونستمر. هل سبقَ لكِ أن فكرتِ كيف سيكون شكل الطفل الصغير؟

ليس لدي إطار مرجعي، قلتُ لها.

إنهما غريبان يأتيان لمقابلتنا، قالت لي. يا تُرى، هل أنتِ خائفة فيما يتصل بذلك؟

أنا خائفة حالياً، قلتُ لها.

تخيلتهما ليس كطفلين صغيرين بل كشكلين بشريين طويلين، وغامضين يسيران في اتجاهنا من منظر طبيعي شبيه بالقمر.

حين ركنا السيارة، أرتني ماريسول ماذا يوجد في صندوق السيارة. طعام مُعلّب، علب المعكرونة والشوفان، الحليب المُجفف والصابون، موقد غازي وعلب صغيرة احتياطية، وعلبة تحتوي على أشياء مختلطة من دون نظام. حملتُ علبة مبهمة، لا توجد عليها علامة. شوكولاتة ساخنة، قالت لي. مادة يستعملها الجيش. غنية بالسعرات الحرارية. لم أسألها من أين حصلت عليها.

نمنا في السيارة بعد أن أوقفناها بعيداً عن الشارع. ماريسول أمالت مقعد السائق إلى الخلف جزئياً. أنا أفضّل أن أنام وأنا جالسة، بهذه الطريقة، قالت لي. بعدها إذا جاء الغريبان لن تقابليهما وأنتِ في وضع غير موات.

هل شاهدتِهما؟ سألتُها، وأنا أصنع مأوى في الخلف خارج حقيبة النوم العائدة لي.

في بعض الأحيان أعتقد أني شاهدتُهما، ردّت عليّ.

هل أنتِ خائفة؟ سألتُها.

في بعض الأحيان فقط، قالت لي.

تباطأ تنفسها. لم يكن بوسعي أن أنام وهي هناك. تفحصتُ بسرعة تفاعلاتنا، المرات التي لمستني أو نظرت إليّ فيها، بيان مفصّل لما حصل بيننا، وأنا أسعى إلى حلّ مسألتها. ما من شيء يُمكننا أن نعدّه مفروغاً منه. شعرها مال على مِسند الرأس، وجمجمتها مائلة في زاوية. أحسستُ أني مصونة تجاه رقبتها. مددتُ يدي كي ألمس أطراف شعرها ودهمني النعاس، أخيراً، مُكوّرةً كما لو أنني في البحر البارد.

الفصل السادس عشر

توقفنا في بار يقع في جانب الطريق في الليلة التالية كي نستعمل مرحاضاً حقيقياً ونأكل شيئاً من الطعام. طلبت ماريسول كأسين من البيرة الضعيفة. إنها بيرة رائعة، قالت لي، حين لمحتني وأنا أبدو مضطربة. إنها طُعم. رفعت كأسها وجرعت نصفها دفعةً واحدة، بسلاسة، وحنجرتها تهتز.

رشفتُ كأسي وألقيتُ نظرة عامة على الغرفة من منضدتنا الواقعة في الركن. البار مكتظ في ذلك الوقت من الليل. والرجال يكبروننا سناً، مُنحنون على كؤوسهم، في بُرك من ضوء المصابيح البرتقالي. لا توجد هنا أضواء براقة، ولهذا اختارت ماريسول هذا المكان. ثمة امرأة تجلس في طرف البار، جسدها مُغطى بفستان داكن غير أنيق يصل إلى كاحليها، شعرها خفيف في جديلة، وفكرتُ أنها من المحتمل أن تكون واحدة منا، أوحيتُ بذلك إلى ماريسول فالتفتت إليها، قطبت حاجبيها، وهزت كتفيها بلا مبالاة. جاء طعامنا، لحم مطبوخ وخبز صلب، ومخلّلات. شكراً، قالت ماريسول. بسمتها مُشرقة، باردة وصادقة. هي بحاجة إلى أن تُراقب بسمتها، فكرتُ مع نفسي. كان النادل قد أذهلته البسمة. دعوني أعرف أيّ شيء آخر تحتاجان إليه، أيتها الفتاتان، قال لنا. أيّ شيء مهما كان. رجع إلى البار إلّا أني أستطيع أن أجزم أنه كان يُراقبنا. تحت المنضدة، خدشتُ الخشب مرةً واحدة ثم مرتين بالسكين التي أخرجتها من جيبي، قبل أن أُعيدها إلى موضعها. أنا ذاهبة إلى الحمّام، قلتُ لماريسول.

فتحتُ باب الحمّام وفجأة وجدتني على الأرض. طوّقتني ذراعان، وثمة يد على فمي. حاولتُ أن أعضّ إلّا أن أسناني لم يكن بمقدورها أن تمسك بقوة. جلد كريه الرائحة، وأفعالي اللاإرادية كانت دون المستوى.

أعرف ما أنتِ، قال صوت امرأة. انتقلت يدها إلى حنجرتي وعصرتها، أصابعها في الأمكنة الناعمة تحت عظم فكي. قاومتُ بجسدي، وحاولتُ أن أثنيه إلى النصف كالحصان الذي يرمي راكبه. لامس مرفقي بطن المرأة ونخرت، وارتخت قبضتُها قليلاً. فعلتُ ذلك ثانيةً، ودفعتُ جسمي بعنف على جسمها، فيما كانت تتدحرج، عقفتُ ذراعي بقوة جديدة حول عنقها. رفعت جسمينا معاً وخربشتُ بحثاً عن السكين في جيبي، وضغطتُها بفظاظة على حنجرتها. كانت هذه المرأة الشقراء من البار. ثمة ضوء ضارب للاخضرار من بصلة مصباح، كلّ ذلك الظلام في الخارج مضغوط في نافذة رفيعة قريبة من السقف، وليس ثمة سبيل للخروج من هنا. كنتُ أرتجف. التقت عيوننا في المرآة. وجهها ملتوي القسمات جراء الألم، وكانت تهمس لي.

تأرجح الباب ودخل شخصٌ ما. كانت ماريسول. ساعديني، خاطبتُها، ينبغي لكِ أن تُساعديني. تجمدت ماريسول. كافحت المرأة وهي بين ذراعيّ وفتحت فمها، إلّا أنني قرّبتُ السكين وضغطتُها أكثر. أحدثي صوتاً ولن أتردد، همستُ. راقبتُ في المرآة نصل السكين وهو يبعج الجلد اللين. لو أنني قطعتُ حنجرتها فعلاً لا يُمكن إنكار ذلك، سأراقب نفسي وأنا أفعل ذلك، وتساءلتُ ما إذا كانت هذه المسألة في داخلي، أن أُخرج أحشاء أحدهم أو تُخرج أحشائي بالفعل الذي انعكس عليّ، الخوف في عينَي المرأة، الدم ينسكب على يديّ، وفكرتُ «نعم، نعم أفعل هذا، من المحتمل أنني لم أفعل ذلك دوماً، إلّا أنني أفعله الآن».

ساعديني! توسّلت إلى ماريسول مُجدداً. لماذا أنتِ واقفة هناك لا تُحركين ساكناً؟

رفّت عينها، ومن ثم انطلقت تعمل فجأة، نزعت حزامها. يداكِ خلف ظهركِ، خاطبت المرأة قائلة. لفت الحزام حولها معصميها المرة تلو المرة، شدّته بإحكام قدر استطاعتها. دفعنا المرأة معاً نحو الأرض وأبقيتُها هناك بثقل جسمي، جسم الحامل. حدّقت فيّ المرأة مباشرة. كانت تهمس بكلمات لم يكن بمقدوري أن أسمعها ولم أشأ أن أسمعها، كما لو أنها تُصلّي أو تشتم. اخرسي، قالت لها ماريسول من دون أن ترفع عينيها عن عملها اليدوي. ولمّا فرغت من عملها، بدأت المرأة تتلوّى حالاً في محاولةٍ منها للهَرَب، غير

أنها لم تنجح إلا في أن ترتمي بقوة على بطنها. سحبت ماريسول وتداً من المناشف الورقية من الجهاز المُوزع ودفعته في فم المرأة كي تمنعها من الكلام أو الصراخ. أسنانها عضت على المناشف، وبللها اللعاب وحوّلها إلى مهاد صلب. سحبناها بشيء من الصعوبة إلى غرفة صغيرة. كانت رِجلاها بارزتين من الأسفل، إلّا أننا لم نستطع مُعالجة هذا الأمر.

رَكَلتها ماريسول. هذا هو ما يحصل لكِ حين تكونين عاهرة ملعونة، قالت لها، بلطف، كما لو أنها تناقش المناخ. ركلتها من جديد، بنحو أقوى.

هذا يكفي، قلتُ لها.

كانت عينا المرأة واسعتين ومليئتين بالحيوية. غسلنا أيدينا وخرجنا ماشيتين من الحمّام والتقطنا حقيبتينا. دفعت ماريسول الفاتورة، الجو شديد البرودة، في حين بدأتُ بتشغيل مُحرّك السيارة، وأمسكتُ بعجلة القيادة إلى أن أصبحت أصابعي خَدِرة.

الفصل السابع عشر

انطلقنا في السيارة، وقطعنا مسافات طويلة، وكنا ننام فترات قصيرة. عدم الارتياح الناجم عن السيارة ربما كان مشكلة لو لم نكن مُرهقتين للغاية، جسمانا عملا في أوقات إضافية. في أثناء الليل كان ينبغي لنا أن نُنزل نوافذ السيارة إلى الأسفل كي نجعل الهواء البارد يُلامس وجوهنا كالماء، نُشغّل المذياع، ونشغّل الأشرطة الصوتية القديمة التي اكتشفناها في صندوق تحت مقعد السائق. أوتار وضربات غريبة. موسيقى تنتمي إلى زمن بعيد. تبادلنا قيادة السيارة وأخذ قسط من النوم، وجهٌ مُركّز على الشارع في حين الوجه الآخر ناعم ورخو، المصابيح الأمامية تشطر الريف إلى شرائح. كلّما تكون هنالك سيارة خلفنا كنا نُبرز رقبتينا كي ننظر. انتصرنا على أنفسنا، سلكنا طرقاتٍ مهجورة ومسالكَ مُعذِّبة. كانت الرحلة مُرهِقة.

في أحد أوقات ما بعد الظهر، أوقفت ماريسول السيارة ولَكَمت الخارطة. نحن نُنهِك قوانا، قالت. نحن بحاجة إلى مكان كي نستلقي فيه، كي نرتاح ونُعيد التقييم، وأن نجد مكاناً آمناً. مدة ليلة واحدة أو ليلتين لا غير.

تقصدين أن نجد مكاناً أشبه بفندق؟ سألتُها.

لا فنادق بعد الآن، قالت لي. لا أزال غير قادرة على أن أُصدّق أنكِ كنتِ تستعملينها.

أعتقد أني أُحب فقط أسلوب الحياة المُترَف، قلتُ لها، وضحكت، بحدّة، عليّ.

في حافة امتداد واسع من غابة ما أوقفنا السيارة. ماريسول رزمت أشياءَها بكفاءة؛ وأنا جرفتُ أشيائي ووضعتُها في حقيبة الظهر العائدة لي من دون عناية.

لا يوجد مطر، قالت. باستطاعتنا أن نُخفي مساراتنا. نحن نعرف كيف نفعل هذا.

مشينا زمناً طويلاً. كانت أصوات السناجب عالية، وجعلتنا حركاتها المُتخبطة نتوقف. لم نتكلّم، بل كنا نغمغم بالكلمات فقط ونُشير بأيدينا. هنا؟ أبعد؟ أين؟

وصلنا إلى جدول ونصبنا خيمتينا على الأرض الصلبة بجواره. أشعلتُ ناراً وغليتُ الماء كي أُعدّ الشاي وحساءً من إحدى العلب، فيما كانت ماريسول تستعرض المنطقة المحيطة بنا. كانت سريعة وحادة كالطائر. رأيتُ احتمالات طريقة جديدة ورحبة الصدر في البقاء بالطريقة التي وضعت فيها يداً على جذع شجرة كما لو أنها تطلب الموافقة من الجذع.

كيف تخلّصتِ من جهاز منع الحمل[1]؟ سألتُها، لمّا أصبحت النار جمراً بشكلٍ رئيس. كان بوسعنا فقط أن نرى قليلاً من السماء في الموقع الذي كنا فيه. كان شكلها داكناً على الجانب الآخر مني.

شخصٌ ما فعل لي ذلك[2]، قالت. هذا بسبب والد الطفل. كنا أحمقين. تخليتُ عن كلّ شيء. أفنيتُ حياتي بمقدار حبي له، بفكرة كوننا نشكّل أسرة واحدة. إلّا أنه لم يستطع أن يتعامل مع الواقع، ما هو الشيء الذي نعمله ويُلاحقنا. لم يُحِب ما أحدَثه الواقع في داخلي. ولهذا السبب أنا هنا.

تساءلتُ مع نفسي ماذا سيفكر (ر) لو استطاع أن يراني الآن، هزيلة وذات عينين متوحّشتين، وآليات النجاة تُظهِر مفعولها فيّ. إلّا أنه في حينها لم يكن يعرفني قبل الإحساس الكئيب. امرأة التذكرة الزرقاء التي ظنّ أنه كان آمناً معها هي على الدوام شيءٌ آخر من الداخل، الغريزة تتلوّى تحت السطح، وتُحرّك الأشياء.

1- جهاز منع الحمل: وردت في النص كلمة (wire)، أيّ السلك (coil)، أو اللولب كما يُسمى في بلادنا، على سبيل المثال–م.

2- شخصٌ ما فعل لي ذلك someone did it for me: هنا المعنى أنّ هذا الشخص (رجل أو امرأة) رفع السلك، أو جهاز منع الحمل لها. ربما يكون هذا الشخص ممرضة أو طبيبة أو طبيباً–م.

تساءلتُ مع نفسي ماذا أحست نساء التذكرة البيضاء. هل كن مُشبَعات ومرتاحات البال في هدفهن، أم أنهن، أيضاً، يُبصرنَ العالَم بوصفه شيئاً حاداً، قاطعاً؛ هل لديهن، أيضاً، شعورٌ كئيب تحت جلدهن، ينبض بالعنف؟ هل وحّدتنا تغيّراتنا، هل جعلتنا كُلاً واحداً، أن تُصلِح كلّ ما هو مفقود في داخلي؟ أم أني سأكون دوماً أقل؟ كم عدد الطرائق التي تكون فيها المرأة أُمّاً؟

حدّقت فيّ ماريسول. بدا أنه ما من أحد فعلَ هذا من قبل في حياتي، وأنّ أيّ نظرة أخرى كانت قد قشطت جلدي حصراً كما النسيم. ما من مكانٍ آخر كي أختبئ منها إلّا أنه لم يكن لديّ الدافع كي أهرب.

تبدين حزينة، قالت لي.

شيءٌ من هذا القبيل، قلتُ لها.

اقتربت مني ووضعت يديها على وجهي برهةً وجيزة، ومن ثم التقطت علبتي المعدنية الصغيرة المُدلاّة ووضعتها على سطح بلوزتي الصوفية المُحاكة وفتحتها من دون أن تطلب مني ذلك. استنشقتُ الهواء، إلّا أنني لم أمنعها. أخرجت القصاصة البيضاء المجعدة، بَسَطتها، ووضعتها في راحة يدها. عبَست برهة قصيرة، وبعدها ابتسمت.

هِي، قالت. فهمت. غير أنكِ لستِ بحاجة إلى هذه. أعيدي التذكرة الأخرى إلى المكان الذي تنتمي إليه.

استخرجتُ التذكرة الزرقاء وأعدتُها، بعناية، إلى موضعها المناسب. طوال الثانية التي كانت فيها العلبة المعدنية الصغيرة مفتوحة وفارغة، أحسستُ أني طليقة ومؤذية، ومُتحررة لدى معرفتي أن باستطاعتي أن أكون أيّ شخص.

مزقيها، قالت لي، وهي تُعطيني التذكرة البيضاء. مزقيها إلى قطع صغيرة قدر استطاعتكِ. إنكِ لستِ واحدة منهن.

راقبنا فيما كانت القطع الصغيرة تطير وتسقط على الأرض كالثلج، كالنثار[1].

في الصباح غسلتُ فمي بالماء وكانت السن أكثر رخاوةً من أيّ وقت

1- النثار confetti: قصاصات من الورق الملوّن تُنثر على الناس في الكرنفالات والأعراس-م.

مضى. مشيتُ بعيداً عن الخيمتين وركعتُ في ورق الشجر والتربة، وانتزعتُ السن بأصابعي. آذتني بنحو أقل مما توقعتُ. امتلأ فمي بالدم الذي لفظتُه خارجاً. سكبتُ الماء على السن التي في راحة يدي إلى أن أصبحت هي ويدي نظيفتين. ولمّا رجعتُ أريتَها لماريسول بوصفه دليلاً من نوع ما.

السنّ تميمة، قالت لي، وأنا أثني أصابعي عليها. أبقيها في أمان.

إذاً دسستُها في جيبي بجوار السكين، وكان الشيئان يصطدمان أحدهما بالآخر، بنوعهما الخاص من المشاركة. الهشاشة مع الحافة الصلبة. ما الذي فقدتُه، ما الذي وجدتُه.

المقصورة

الفصل الأول

وجدنا المقصورة في وقت ما بعد الظهر، ولم تكن بعيدة عن الماء. ضوءٌ أخضر، مُكتسية بالعشب أكثر من اللازم. في أول الأمر حسبنا أنها سراب. دُرنا حول المحيط الخارجي، أزلنا العشب الطويل وأوراق النباتات. كان الباب مُقيّداً بسلسلة إلّا أن ماريسول استعملت دبوس شعر كي تفتح القفل. أرتني كيف فعلت ذلك، ذكّرتني، أني في يومٍ من الأيام عرفتُ تلك المهارة أيضاً.

النباتات المتسلّقة نمت عبر نافذة مكسورة في غرفة نوم خلفية شديدة الصِغر، إنما في غرفة النوم الثانية كان الزجاج باقياً، وكانت هنالك أفرشة وحيدة تفوح بالرطوبة في كلتا الغرفتين. أما الغرفة الرئيسة فمزوّدة بمغسلة وخزانة مبنية في الجدار، خالية باستثناء قفاز وردي، مهجور. وثمة حمّام أشبه بحمّام المنزل الذي نشأتُ فيه. تُراب مليء بالغرين وعفن على حافة النافذة. عناكب طويلة تركض في طريقها إلى ثقب نقطة التوصيل الكهربائي لمّا دخلنا الحجرة. سمحت لنفسي أن أقف في السكون كما لو أنني في حالة نشوة. سأظل أرجع إلى الأبد على الضد من مشيئتي. سأظل أغادر وأعود طوال حياتي. ركض صرصار عبر الأرض؛ نزعتُ حذائي وسحقتُ بدنه.

في تلك الليلة راقبنا السماء وهي تغدو معتمة شيئاً فشيئاً. وأبقينا الجو في الداخل معتماً أيضاً، وهيمن علينا جنون الارتياب فيما يتعلّق بجذب الانتباه. لا توجد عيدان ثقاب. كانت ماريسول تضع أصبعها على شفتيها كلّما حاولتُ أن أتكلّم. هدوء، هدوء، كانت تقول. تصدّقت بورق اللعب الذي

أخرجته من علبة وَجَدتها في صندوق القفازات[1] في السيارة. أردتُ أن أسأل أكثر عنها إلّا أنني استلقيتُ على حقيبة النوم العائدة لي، ضغطتُ بيديّ على شفتيّ كي أحتفظ بالكلمات. خمّني، قالت لي ماريسول، وهي تُشير إلى ورق اللعب، قبل أن تقلبه. حصلتُ على ورقتين صحيحتين. ورقة الملكة. ثلاث ورقات من نوع الديناري. لَمَست شعري. أصبح المكان شديد الظلمة بحيث لم يكن بوسعنا أن نرى ودخلنا في حقيبتَي النوم العائدتين لنا. كان بوسعنا رؤية القمر عبر النافذة، وثمة ريح واهنة. بقيتُ صاحية أستمع إلى أنفاسها أطول مدة ممكنة.

فيما كنتُ راقدة هنا فكرتُ في ما يُحتمل أن رآه اليانصيب أو لم يره في داخلي. ما الذي دُوّن ولوحظ وجرى التعليق عليه طوال حياتي كلّها؛ المرات التي رفضتُ فيها اللعب، أو أن أسحب شعر فتاة أو امرأة ما، أو أدفن الدُمى في التراب. هل كان هنالك شخصٌ ما يُراقب حين قطعتُ الديدان إلى النصف كي أراها تتجدد؛ أو لمّا لمستُ نفسي تحت أغطية سريري في ذلك الكوخ الذي نشأتُ فيه، خجولة ومُخجِلة، ولم أكن قد نزفتُ بعد، موكب من الصور الغريبة والعميقة على غرار حركة الماء؛ أو حين دخلتُ الغابة وبكيتُ ودفعتُ قبضتي في عُقد لحاء الشجرة، خدشتُ جلدي بالعليق، ضغطتُ نبات القرّاص على قصبتَي رِجليّ وكاحليّ؟ هل كان ذلك مُقدّراً لي حتى في ذلك الحين؟

كان ينبغي لي أن أقضي وقتي في تأمل هادئ ومساعٍ صحيّة. كان ينبغي لي أن ابتسم أكثر، أن أضرب على يد الصبي في صالة السينما وأُبعدها عني، وأن أكون أقل من تلك المرأة الصغيرة الغامضة، المحترسة، والمنتظرة، الوسخ تحت أظافرها. طريق حياتي كان قد انطلق أصلاً.

في الصباح قستُ نبضي فوجدتُ أنه ممتلئ كالطبل. مزيدٌ من الدم في جسمي. رِجلاي مضتا بنحو أسرع. كان لديّ سببٌ وجيه للهَرَب. كان يتعين

1- صندوق القفازات glove compartment: هذا الصندوق يوجد في لوحة أجهزة القياس dashboard، أمام سائق السيارة وتحت الحجاب الزجاجي الواقي من الريح والمطر. يُسمى باللهجة العراقية الدارجة بـ(الدشبول). ويُسمى صندوق القفازات باللهجة العراقية الدارجة (چكمچة)–م.

عليّ أن أرتدي سروالي النايلون القصير وأدور مراراً حول الغابة، متحاشيةً الحفر والجذور، مختبرةً القابلية الجديدة لرئتيّ في جسدي المتغيّر. لا بد أني أحببتُ أن أعيش هذه الحياة الجديدة في نطاق حياتي القديمة. أن أنتظر (ر) يأتي إلى بابي وهو يحمل زهوراً صفراء، وسلّة من التفاح. عربة الأطفال جاهزة في الرواق. حياتنا تتوسَّع كي تُناسب الشكل الجديد.

لكن هناك لا شيء سوى هذا.

الفصل الثاني

كنا نروم أن نقضي ليلةً، وربما ليلتين. فجأةً مكثنا هناك طوال أسبوع، وبعدها مدةً أطول من ذلك. تسلل التكاسل إلى عظامنا. كان يشق علينا أن نتحرك من مكان كهذا. من السكون الذي خيّم على الأشجار بعد هطول المطر، تلفّعت الأرض بأوراق بُنية وإبر الصنوبر.

في كلّ يوم كانت ماريسول تقول إنه آن الأوان كي نفكر في الرحيل، إلّا أنه لمّا يحين موعد الذهاب فعلاً تكون غير مقتنعة مثلي. دعينا نحتجب عن الأنظار، قالت، أخيراً. شيءٌ ما يقول لي أن أمكث.

هكذا؟ قلتُ لها متحدية. ما هذا الشيء الذي يقول من خلالكِ؟

غير أني من جانبي لم أرغب بالذهاب أيضاً. كنتُ أريد أن أبقى هنا إلى الأبد، في الحالة ذاتها من شبه الأمومة. حالة من الاحتمال بدلاً من كونها حالة من الواقع.

حلمتُ ذات ليلة أني أتقيأ أربعة أشياء ملفوفة في أغلفة ذات بريق لؤلؤي، كلّ واحد من الأشياء الأربعة يتلوّى. كلّ غلاف يحتوي على كائن صغير شائك يدفع نفسه نحو العالَم. كانت أشياء بنفسجية داكنة، شبيهة بالخنافس. فيما كنتُ أراقبها هَرَبت بعيداً إلى العشب والتربة. استغرقتُ برهة طويلة كي أُدرِك أنه حلم، وليس شيئاً حصل فعلاً. كان باستطاعتي أن أشعر بتلك الأشياء في حنجرتي، وأكاد أتذوقها. ولم يكن ذلك ليُثير عجبي حتى. لم يكن بمستطاع جسمي أن يفعل شيئاً كي يُثير عجبي، الآن.

أحد هذه الأشياء الأربعة يُمثلك، قالت لي ماريسول، لمّا حكيتُ لها عن الحلم. أحدها يمثّلني، الشيئان الآخران يُمثلان طفلينا الصغيرين.

انصرفت عني كي تفعل شيئاً. كي تصب الماء في كأس ضبابي وجدناه تحت المغسلة. أحسستُ بالذهول من كلّ حركة قامت بها. لم تكن حركاتها غير سارة.

ربما، قلتُ لها.

فكرتُ في أن أهوي على الأرض وأُقبّل قدميها، أُقبّل كلّ أصبع من أصابع قدميها. كانت مُتدفّقة، ومرتاحة البال. كما لو أن هذا موقعٌ عَرِفته. حنجرتها تتجعد لمّا كانت تشرب الماء.

دعينا نقيس أنفسنا، قالت لمّا أنزلت الكأس. دعينا نحتفظ بسجل كي نرى مقدار نمو الطفلين الصغيرين.

ليس بحوزتنا شيءٌ نقيس به، لا يوجد لدينا شريط أو مسطرة، لذا استعملنا أصابعنا، من مفصل الإصبع إلى طرفه، وهي وحدة أمومية خاصة للقياس. أحصينا محيط وَرَمينا. سبع وثلاثون إصبعاً، قلتُ.

تسع وثلاثون، قالت ماريسول، أنا أكبر حجماً منكِ. سأكبر وأكون ضخمة كالعالَم. أبرزت ذراعيها وفكرتُ في جسدينا كشيء مُشترك. فكرتُ فيهما وهما يُطلقان إشارات تُحاكي إشارات الحيتان أو الخفافيش.

يومٌ آخر، ونحن مستلقيتان وأرجلنا متباعدة في العشب الطويل حيث التقت حديقة المقصورة المفرطة النمو بالغابة. بمستطاعنا أن نتنفس هنا، قالت ماريسول. هذا شيء ذو أهمية. متى كانت آخر مرة تنفسنا فيها فعلاً؟ متى كانت آخر مرة حسبنا فيها حسابنا؟

لذا حسبنا حسابنا. توَغّلنا في الغابة، وكنا نتكلّم فيما نحن نتحرك، لذا كان يسهل علينا نطق الكلمات.

اسمي كالا، وأنا سأنجب طفلاً. في القريب العاجل. اسمي كالا وهذا الطفل هو طفلي.

اسمي ماريسول وأُريد أن أجلب شيئاً إلى العالَم، قالت. أجلب شيئاً حقيقياً.

اسمي كالا، وأُريد أن أكون أُماً لأني. لأني.

رفعتُ بصري إلى السماء، إلى ورق الشجر، باحثةً عن السبب الأفضل. كان يشق عليّ أن أفكّر لماذا فعلت ذلك. يتعيّن عليّ أن أهجم فجأةً على حائطه، حتى لو عرّضتُ نفسي لخطر التحطم.

لأنّ كلّ شيء كان يقول لي إنه الشيء الصحيح الذي ينبغي القيام به. كلّ خلية من خلايا جسدي، قلتُ. حاولتُ.

حسنٌ، قالت ماريسول. إنّ إنجاب طفل هو القرار الأكثر عقلانية واللاعقلانية الممكن، في هذا العالَم. هذا العالَم اللعين، المروّع والجميل، الذي لا أستطيع التوقف عن حبّه، مع أنني أخذته بعين الاعتبار، قدّرتُ وأحصيتُ الأساليب.

توقفت وركلت جذع شجرة.

أتمنى فقط لو أني عرفتُ أكثر، قلتُ لها.

ما الذي غيّر رأيكِ؟

فكرتُ في الإحساس الكئيب. لا، أنا لا أفكر هكذا، قلتُ.

اسمي ماريسول وأنا أعرف أني سأكون أُماً حنوناً. أعرف هذا. أعتقد أني أستحق هذه الفرصة.

اسمي كالا وأُريد أن أختار.

كم يبدو شيئاً عبثياً أن أفكر في نفسي بوصفي أُمّاً حتى قبل بضعة أعوام خلت. فيما يكون معصماي ضعيفين مثل دجاجة مربوطة، ويكون قلبي أجوف. كنتُ مُتعبة طوال الوقت. لم أُبدّل ملاءات سريري. أكلتُ الطعام كما لو أن أحداً ما يُراقبني. خلسةً، واقفة على المغسلة.

أن تفكري في نفسكِ هكذا يُمكن أن يكون نبوءة بتحقيق الذات، قالت لي ماريسول حين شرحتُ. هذا لا يعني أنكِ لا تستحقين ذلك.

تحرّكت ببطء، بوهن، عبر رقعةٍ من نور الشمس. عُدنا إلى المقصورة وفي الحمّام تجرّدنا من ثيابنا وتفحصنا جسدينا بحثاً عن حشرات القراد[1]. وجدتُ قرادة خلف ركبتها ورفعتها بالملقط بحركة تشبه حركة العتلة،

1- القرادة tick: حشرة تمتص دم الحيوانات-م.

وبعدها سحقتُها بظفر إبهامي، تاركةً لطخة دم على جلدها. كنتُ أُريد أن أضغط خدي الحار على مؤخرة فخذها وأغمض عينيّ، وأجعل نفسي ترتاح هناك على مدى ثانية، وفعلتُ هذا.

آ، الأشياء التي لا تزال أجسادنا تُريد أن نفعلها، الأمل الذي بقي في الرغبة. كنتُ أعرف أنّ الحزن مخزون في داخلي كالماء الذي تسلل خلسةً تحت الأرض كي يكون فخاً. كنتُ أعرف أني لن أكون كما أنا عليه، مهما حصل من أحداث. إلّا أنني لا أزال على قيد الحياة. لا أزال أعدو مع الدم. أنا حساسة حيال العالَم، رُعبه، لكن حيال جماله أيضاً. «دعيه في داخلكِ»، فكرتُ هناك، في اللحظات قبل أن تسحبني إلى الأعلى وتُقبّلني في فمي أولَ مرة. دعيه في داخلكِ.

الفصل الثالث

امرأةٌ أخرى جاءت بعد ذلك بوقت غير طويل. وصلت تقريباً كما لو أننا استدعيناها. كان اسمها ليلا والنظرة في عينيها غير ودية. سمعنا صوت اصطدام في الأجمات وهرعنا صوب الضوضاء شاهرتين مُسدسينا. هوت على ركبتيها. أرينا تذكرتكِ! صحنا عليها، ولوّحنا بالمسدسين على رأسها.

فتحت علبتها المعدنية الصغيرة المُدلاّة في رقبتها ورأينا التذكرة الزرقاء. رفعت بلوزتها الصوفية السميكة ورأينا اللحم المقوّس هناك. وضعت وجهها على الأرض وذرفت دموعاً حارة على الأرض.

لا يُمكننا أن نرفعكِ، شرحنا لها. يتعين عليكِ أن تمشي معنا.

كلّ واحدة منا أمسكت بإحدى يديها وساعدناها كي تتهادى عائدةً إلى المقصورة. اسمٌ جميل، قلنا لها ما إن استلقت بأمان في الداخل. ازدردت الشوكولاتة الحارة التي أعددناها لها. ربتنا على شعرها الخفيف. لا بأس، لا بأس، قلنا لها. قدّمنا لها العون في أن تدخل إلى مغطس الحمام الأصفر وأن ندعكها برغوة الصابون بشكل واقعي مع الماء الذي سخناه على موقد التخييم، ماريسول دعكت جسمها من الأمام وأنا دعكت جسمها برغوة الصابون من الخلف. ارتعشت في الهواء، وبزاوية أحاطت جسمها بذراعيها. ارفعيهما إلى السقف، قلنا لها. مدديهما. غسلنا إبطيها، ومؤخرة عنقها، برفق قدر استطاعتنا.

ليلا لم تكن أطول منا كثيراً. خمس وثلاثون إصبعاً لا غير. كانت تحاول أن تعي الحقيقة، وتعرف مُجريات الأحداث، إلّا أنها لم تكن متيقنة من الدقة. أريناها كيف تقيس وتدوّن نتائجها في دفتر الملحوظات. مع أن أيدينا

كلّها بأحجام مختلفة، قالت لنا. ثلاثتنا ضغطنا براحات أيدينا معاً كي نُقارن. لا يوجد اختلاف كبير بينها، قالت ماريسول، التي كانت يداها هما الأصغر.

في دفتر الملحوظات دوّنت لوائح الأسماء التي لم يعد يجب عليّ أن أرميها. كتبتُ كلّ الأسماء التي عرفتُها، كلّ كلمة فاتنة خطرت ببالي. اختلقت كلمات لمجرد أن أملأ الفراغ. أردتُ أن أخربش هذه الأسماء على طول الجدران.

«أوپال[1]، كلاود[2]، سيدار[3]، سپارو[4]، رين[5]، إيكو[6]».

إنكِ تقريباً تملكين اسماً مختلفاً، قال أبي ذات مرة. إنه ليس مناسباً، قال لي، إلّا أنه لم يقل لي ما هو هذا الاسم، أو كيف بوسعه أن يذكره حين كنتُ جديدة للغاية وغير متكوّنة، كيف يكون الطفل الصغير قادراً على أن يهز كتفيه دون أن يكترث لاسم ما. هذا الأمر أقلقني. كيف يكون الطفل الصغير هو نفس شخصه، نفس لغزه، يكون شيئاً يتعين عليّ أن أصونه بكلّ ما أملكه.

1- أوپال opal: حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً–م.
2- كلاود cloud: تعني غيمة–م.
3- سيدار cedar: تعني شجرة الأرز–م.
4- سپارو sparrow: تعني عصفوراً–م.
5- رين rain: تعني مطراً–م.
6- إيكو echo: تعني صدى–م.

الفصل الرابع

كانت ليلا هي الفضلى في لعبة الورق. حين بسطت ماريسول مجموعة ورق اللعب على الأرض، كانت قادرة على أن تُخمن بنحو صحيح نصف الوقت تقريباً. في بعض الأحيان كانت تحصل على خمس أو ست أوراق على التوالي. كنتُ غيورة من حدسها ومن الاهتمام الذي منحته إياها بسبب ذلك، إلّا أنها تخلّصت منه. إنني أخمن فقط، قالت ماريسول، وهي تختفي في غرفة النوم التي تنام فيها الآن.

يومياً، تأتي حيوانات معينة إلى داخل الحديقة. ليس بحوزتنا طعام حقيقي لها، بل مجرد بقايا ما التصق بالمقلاة، الذي كنا ننفضه في داخل العشب. بعض الحيوانات كنتُ أميّزها وبعضها الآخر جديدة بالنسبة لي. بعضها مألوفة إلّا أنها بلون خاطئ، بيضاء أو ذهبية في حين توقّعت أن تكون رمادية اللون. كانت صغيرة الحجم وأشبه بالقوارض. ليست أرانب.

الجوقة الحيوانية، تسميها ماريسول. كان يحلو لها أن تمضي وتراقب اقترابها. لم نفكر في الإمساك بها أو أكلها. كانت أنوفها ترتجف. الحيوانات لها أرواح أيضاً، كما تعرفين، قالت ماريسول. إنني حتى لستُ متيقنة مما إذا كنتُ مؤمنة بالأرواح؛ أو، إذا كانت موجودة فعلاً، وإذا ما كنتُ أملكُ روحاً أنا نفسي، وما إذا كان الطفل الصغير يملك روحاً أيضاً. جلستُ على الأرض وراقبتُها وهي تُراقبها، ولما استدارت ولمحتني تخضبتُ بالاحمرار. كانت تعود إلى السيارة كلّ بضعة أيام كي تتفحصها، كي تحرّكها، وكي تحضر مزيداً من الطعام. في كلّ مرة كان باستطاعتي أن أجعل نفسي مسعورة تماماً حيال الفكرة القائلة إنها من المحتمل ألا ترجع، إلّا أنها كانت ترجع دوماً، في غضون ساعات.

لم تُقبلني ثانيةً ولم نتكلّم حول الموضوع. غير أنها ذات مرة، لمّا كنا نُصنّف أوراق الهندباء معاً، وضعت يديها على يديّ. وهكذا، قالت، وهي تُريني، مُغطسةً الأوراق في الإناء مع الماء، وتُدعكها برفق كي تُزيل منها التراب. وضعت رأسها على كتفي على مدى ثانية، وأنا نفسي أحسستُ فجأة أني جميلة، مثل اشتعال ضوء.

حين كنتُ أُمشّط شعري في الصباحات لاحظتُ أنه ينمو للخلف بنحو أسرع مما توقّعتُ. بسكيني الصغيرة نظفتُ، بدقة شديدة، ما تحت أظافري. كنتُ أعرف أنه سلوكٌ حيواني أن تُهيئي نفسكِ كونه نشاطاً يتعلّق بتهدئة النفس، وكونه فسحةً حيادية بين القتال والهَرَب.

الإحساس الكئيب لا يزال هناك في داخلي. كان أهدأ، إلّا أنني عرفتُ أنّه، أسفله، نبضُه ينمو فيما كان حَمْلي يتقدّم. فهمتُه الآن ليس بوصفه خصماً، بل بوصفه نوعاً من التكافل. في بعض الأحيان كنتُ أتخيّل الإحساس الكئيب بوصفه حيواناً في داخلي. سيكون مثل دخان يُصبح حقيقياً، لكن مع الفراء، الأسنان. لم يكن يبدو نظرياً حصراً، بالطبع، ذلك أنّ هنالك حرفياً حيواناً آخر في داخلي أصلاً. تخيّلتُهما هما الاثنين يستوطنان معاً في الكهف الأحمر الدافئ العائد لجسدي، مُغرمين أحدهما بالآخر وأليفين.

الفصل الخامس

ثلاثتنا بقينا هادئات ومتفانيات في النهارات، واقفات كالحارسات. لكن حين تحرّك الطفل الصغير أول مرة، لم يكن باستطاعتي أن أبقى صامتة.

انظرا! صحتُ على المرأتين. انظرا!

لا يوجد شيء كي ترياه، في الحقيقة، لكنني سحبتُ بلوزتي الصوفية وقميصي القطني فوق رأسي ومشيتُ في الحديقة بحمالة الصدر العائدة لي، اقشعر جلدي بشكل غريب. حركة مُزبدة، مُرتعشة، إلّا أنه لا توجد انبعاجات أو أشكال تدفع جلدي إلى الخارج.

أُقسمُ أنه شيءٌ يحدث لي، قلت لهما حين وَصَلتا. ماريسول وضعت يديها على بطني. ليلا تراجعت للخلف. شعرها رطب. كانت تستحم في الجدول، غير أنها أسرعت طوال الطريق لمّا سمعتني أصرخ. باستطاعتك أن تلمسيني، إلّا أنها كانت خجولة وربما خائفة.

طفلي الصغير لم يتحرّك بعدُ، قالت لي.

ولا حتى طفلي الصغير، قالت ماريسول. في القريب العاجل سوف يتحرّكان.

إنه لمن الغرابة أن أكون الأولى، مرةً واحدة فقط. وطوال بقية الصباح حاولتُ أن أُحدِث استجابة من الطفل الصغير. قفزتُ برفق على البقعة ومددتُ جسمي على الأرض، وقفتُ وكاحلاي في الجدول البارد، آملةً بأن تُثير درجة الحرارة المنخفضة شيئاً ما في داخلي.

في وقت ما بعد الظهر سرتُ وحدي عبر الأشجار، شاردة الذهن، متلهّفة للإحساس بالحركة من جديد. متلّهفة للدليل، لما له صلة بالعالَم الآخر.

رفعتُ وجهي وغرستُه في النور. تذكرتُ أنّ هذا أشبه بتلك المرة حين كنتُ في الغابة في وقت مضى. مُتلَهّفةً لأن أستلقي على الأرض، على التراب وأوراق الشجر. مُتلهّفة لأن أنام زمناً طويلاً تحت الأوراق.

في تلك الليلة، ماريسول أخيراً أتت إليّ وضغطت بجسدها على جسدي. وضعتُ يدي في داخلها؛ ضغطتُ وجهي في الفراش وسمحتُ لكتفيّ أن تنسدلا بعد أن كانتا ملتفتين، ولذراعيّ أن تمتدا إلى رأسي. كانت تفوح منها رائحة الليمون، رائحة البيرة اللاذعة. همست بضعف من خلال أسنانها كما لو أني عضضتُها، وهكذا فعلتُ هذا. إذا ما لمسني أحد فهذا شيءٌ موجع وقاسٍ في غرابته. بكيتُ بعدها، وربتت على شعري وانبرت قائلةً، لا بأس.

هل فكرتِ فيّ حين كنتُ أفكر فيكِ، على الطريق؟ سألتُها لمّا توقفتُ عن البكاء.

أجل، قالت، كنتُ أفكر فيكِ.

الكلمات لا تعني شيئاً، ما زلتُ أعرف ذلك، إلّا أنها منحتني الراحة على أية حال.

في الصباح، نظرت إلينا ليلا خِلسةً، كما لو كنا أبويها. أنا وماريسول لم نتحدّث عن الموضوع. ما من حاجة إلى ذلك. كان الطفل الصغير هناك لا غير. إنه جزءٌ من كلّ شيء يحدث بطريقة طبيعية ومن دون مشاكل.

أو، إذا ما نظرنا إليه بطريقة أخرى: بدا أنه شيءٌ حسن للغاية حتى أن ينظر إليه المرء بشكل مباشر، لذا لم أسمح لنفسي أن أنظر إليه. سمحتُ له أن يجلس هناك. سمحتُ له أن يبقى حياً لا غير.

الفصل السادس

كنتُ أستحم يومياً في مغطس الحمّام: خرقة ندية، يغدو جسمي أملس بصابون ماريسول الأصفر، وانزلاق كمية قليلة من الماء المغلي، أقل عمقاً من البوصة. دخلت ماريسول كي تجلس معي. كان يحلو لها أن ترى جسدي في الضوء الكائن تحت الماء المخضَر للحمام بسبب أوراق الشجر النامية في الخارج. لم أقلْ لها أن تتركني وحدي، ولا حتى مرة واحدة.

وحش المستنقع، قالت ماريسول، وهي تدعك الصابون في شعري. مَلِكة النمل.

كوّرتُ يديّ في داخلِ فكيّ، ومن ثم اللوامس. رششتُ الماء عليها إلى أن نقعت، إلّا أنها ظلّت غير متذمرة. تمددت ونزعت فستانها، فستان الشمس القطني الخفيف، الوردي الباهت، الذي أصبح قاتماً أكثر في الموضع الذي لامسه فيه الماء. لم تكن ترتدي أيّ شيء تحته. الشعر الذي ينزل من سرّتها ويُغطي رِجليها كان فراءً مُريحاً. دخلت في مغطس الحمّام بصحبتي بشيء من الصعوبة. كان بطنانا يبدوان خياليين أصلاً، حيث كان شعرها الطويل مشدوداً فوق رأسها بحيث بدت أبعادها حتى أكثر غرابة. لم أكن أعرف كم يجب أن يتمدد جلدي كي يُصبح مشدوداً. لم أكن أعرف متى يأتي الطفل الصغير. لم أكن أعرف شيئاً. في بعض الأحيان يُمكن أن يبدو هذا الشيء مُعتِقاً.

هل أحببتِ الأب؟ سألتني ماريسول.

لستُ متيقنة، قلت بصدق. وأنتِ، هل أحببتِه؟

أجل، قالت. حركت الماء بسرعة بيديها بحركة دائرية، ووضعتهما على قصبتَي رِجليّ. هل أنتِ غيورة؟

لا، قلتُ لها، وثانية كانت هذه هي الحقيقة. حرّكت يديها إلى الأسفل صوب كاحليّ وتركتهما هناك، قبضت عليهما كما لو أنهما معصمان، كما لو أنها توشك أن تقودني إلى مكانٍ ما.

هل تعتقدين أن الأب يفكر فيكِ وفي الطفل؟ سألتني، وهي تميل عليّ.

لا، أجبتُها.

تمنيتُ لو أني كنتُ أمتلك إشارةً من نوع ما لمّا حدث ذلك طوال تلك الشهور المنصرمة كلّها. نوعاً من الاعتراف بالسحر الغريب للحَمْل. شرارة نار على أوراق نباتية يابسة. الأشياء التي حصلت لجسدكِ من دون أن تعرفي ذلك.

ربما أحببتُ فعلاً والد الطفل الصغير قليلاً، قلتُ. إلّا أنه لم يستطع أن يُحبني.

قبّلت شعري الندي. طبعت قبلة على فمي بفمها المفتوح.

بوسعه أن يذهب ويضرب رأسه بالحائط، قالت حين ابتعدت عني. الآباء كلّهم، باستطاعتهم أن يذهبوا ويضربوا رؤوسهم بالحائط.

الفصل السابع

ماريسول تشتهي الفراولة، لذا أخذتُ ليلا كي نجد بعضاً منها، كي يكون ذلك بوصفه مفاجأة. وفي أثناء بحثنا سمعنا حفيفاً، شمّاً. حسبنا أنه من المحتمل أن يكون ذاك حيواناً وكدنا نركض، إلّا أنه تالياً سمعنا أنيناً بدا بشرياً للغاية. شققنا طريقنا ووصلنا إلى أرض مقطوعة الشجر ووجدنا امرأة، مستلقية على الأرض. بدت مُصابة بالأذى في أول الأمر، غير أنها كانت ضائعة فحسب، مُصابة بالجفاف، تغلبت عليها هذه الأشياء كلّها. صرخت علينا كثيراً، بخوف ومن ثم بارتياح. أعطيناها الماء وساعدناها على المجيء معنا، بشيء من التردد. أنا تيريزا، قالت لنا من دون أن نحثها على ذلك. أنا حامل.

حسناً فعلتِ، لا تُخبري أحداً بذلك، قالت ليلا، فيما كنا نجرّ المرأة الجديدة التي وصلت إلينا عبر الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة.

لم تقل ماريسول شيئاً فيما يتعلّق بالخطر أو ما يتعلق بالموارد، مع أن فماً آخر سيكون فرضاً علينا. وبدلاً من ذلك فحصت العلبة المعدنية الصغيرة المُعلّقة في عنق تيريزا. مرةً أخرى غلينا الماء فيما كانت المرأة جالسة، عارية وتحس بالبرد، في مغطس الحمّام. ومرةً أخرى غسلنا جسمها معاً، بخفة. الزجاج اكتسى بالضباب. كانت متوترة الأعصاب في أول الأمر لكنها سرعان ما استرخت. شكراً، قالت، فيما كنتُ أغسل شعرها بالماء. قطعتُ مسافةً طويلة جداً، إنكما فعلاً لا تصدقان الرحلة التي قمتُ بها. إلّا أنني بوضوح لم أكن أرغب بمعرفة ما يتصل برحلتها، ولزمت الصمت، وسمحت لنا أن نُنهي عملنا.

فيما بعد، جلسنا أربعتنا في الفضاء المظلم من الغرفة الرئيسة. حياتنا القديمة بدت كأنها تبعد عنا بمسافة طويلة. بدت المدينة أشبه بشيء من فيلم

سينمائي، في مكان لم يسبق لي أن كنتُ فيه فعلاً. فكرتُ أني من المحتمل أني لم أغادر البلد الوحشي على أية حال، وأنّ حياتي في المدينة كانت وهماً حفّزه كائن طفيلي، وأنني منذ البداية التي كنتُ فيها في الأسفل كنتُ هنا.

في ندى الصباح البارد، أنا وماريسول مضينا خارجاً وحدنا، قبل أن تفيق المرأتان الأخريان. جلسنا على العشب وتبادلنا القبلات. كانت الطيور تُغني، وغناؤها عذب، وغير خائف. صوّبت ماريسول مسدسها إليها إلّا أنها لم تطلق النار.

متى نذهب إلى الحدود؟ سألتُها.

في القريب العاجل، أجابت. إنما ليس اليوم.

ربما سأذهب بمفردي، قلتُ، غير مقتنعة حتى بنفسي.

آ لا، قالت. هيا. لا تتركيني معهما. جرّتني إلى الأسفل نحو العشب كي يستريح رأسي على ورمها. كان بوسعي أن أسمع قلبها، أو قلب الطفل الصغير، أو كليهما واحداً بعد الآخر.

لو تمكنت هاتان المرأتان من أن تجدانا، سيتمكن الشرطة السريون من ذلك أيضاً، قلتُ لها، أصوات جسمها تملأ أُذني، تُهدهدني رغماً عن نفسي تقريباً.

ثِقي بي، قالت، ثانيةً.

لمّا رجعنا، بادرتنا تيريزا بالكلام، طالبةً بعض الشعر. خصلات قليلة لا غير، قالت لنا. كانت عيناها براقتين جداً، الزرقة أشبه بزرقة عينيْ طفل صغير السن، وكانتا مليئتين بالماء. وحين سألناها قالت إنّ عليها أن تنفذ طقساً. أتينا إلى الخارج كي نُراقبها وهي تفعل ذلك، تحتضن بطنينا المكوّرين[1].

1- بطنينا المكوّرين bumps: سألت الكاتبة صوفي ماكنتوش عن معناها، فأجابتني في رسالة إلكترونية بتاريخ 12 أيلول/ سبتمبر2022 أنّ أصل الكلمة هو baby bump اللتان تعنيان «بروز بطن الأمّ الحامل وبشكلّ نموذجي لمّا يُلاحظه الأشخاص الآخرون أولَ مرة». لكنني آثرت في ترجمتنا هذه أن أستعمل كلمتيْ: «البطن المتكوّر» للإشارة إلى البطن البارز للمرأة الحبلى، ويُشار إليه عادةً في بريطانيا بـ baby bump، كما ذكرت الكاتبة الشابة–م.

سارت حول المقصورة ثلاث مرات وعيناها مُغمضتان، ببطء، وهي تتلمّس طريقها. أشعلت عود ثقاب وحملته إلى الشعر، أسقطته؛ صعد الشعر للأعلى بهيئة دخان في الحال وانقشع. فتحت عينيها لنا. انتهى، قالت. شممتُ الشرّ.

أين تعلمتِ ذلك؟ سألناها.

أنا الذي اخترعتُ هذا الطقس، قالت.

أتمنى ألا تشتمينا، قالت ليلا. جلست في الركن، رِجلاها الهزيلتان والقويتان ملتفتان كما لو أنها في حالة تأمل، تبري أشكالاً صغيرة من الخشب. فحصتها تالياً كي أعرف ما هي تلك الأشكال على وجه الدقة، حين تناثرت عبر الأرض - سمك، بأنواع مختلفة. كان كعبا قدميها قذرين.

حسناً بالطبع لن أشتمكن، قالت تيريزا، على الرغم من أنها بدت متوترة الأعصاب.

في ذلك المساء تشاجرت النسوة على الطعام. تيريزا أخذت أكثر من دون أن تطلب: الرز والطماطم المُعلّبة، كلّ حصصنا هي بالحجم نفسه من أجل العدالة، مع أننا كنا دليلاً حياً على كيف يُمكن أن تُخذل العدالة فرداً ما. خطفت ليلا القِدر من تيريزا ورمته على الأرض، فصرخت تيريزا.

أين هم آباء أطفالكم الصغار؟ سألت تيريزا، حين هدأت الأمور.

أبو طفلي تركتُه، قالت ماريسول باقتضاب.

أبو طفلي لم يأتِ على الإطلاق، قلتُ. إنه حتى لا يُكلّمني على التليفون.

أما أنا فلا أعرف والد طفلي، قالت ليلا، وهي تهز كتفيها تعبيراً عن عدم الاكتراث. أنا لا أميل إلى الأشياء الطويلة الأمد. إن كنتِ تعرفين ما أعنيه. في حقيقة الأمر أنا لستُ متيقنةً تماماً مَن يكون.

لا تستطيعين أن تحكمي، على ما يبدو، قالت ماريسول.

أبو طفلي الصغير سيأتي إليّ، مجتازاً الحدود، قالت تيريزا. سوف تكون لنا حياة جديدة معاً. قال لي إنه ينبغي لي أن أذهب وينبغي لي أن أكون جريئة، وسوف يجدني هناك.

بدت مُسالِمة. مالت عليّ ماريسول، بصورة غير محسوسة تقريباً.

رأيتُ حاجبيْ ليلا يرتفعان نحو خط شعر رأسها، إنما لم تقل أيّ واحدة منا شيئاً.

أحضرت تيريزا مبرد أظافر مصنوعاً من الزجاج الضبابي وقنينة وردية اللون من طلاء الأظافر. صبغت أظافر أيدينا لكنها لم تصبغ أظافر أقدامنا. أكره الأقدام، قالت لنا. إنها تُسبب لي الغثيان.

فكرتُ في الرجل في الفندق الأخير ووافقت. نفخت على أصابعي ومن ثم على أصابع ماريسول أيضاً، كي أجعلها تجف بنحو أسرع.

ألا يُذكّركِ هذا بالأيام الأولى في المدينة؟ سألتني ماريسول في تلك الليلة، فيما كنا مضطجعتين إحدانا جنب الأخرى. النافذة مفتوحة على وسعها والمكان شديد الظلمة بحيث بدا كما لو أننا تحت سطح الماء، لا نجوم في السماء. نحن النساء كلّنا في مكان واحد.

أنا بالأحرى أترك ذلك ورائي، قلتُ لها.

ذلك الشتاء الأول في المدينة – كان أشبه بوجبة طعام مُدّت لكِ. ماذا تُريدين أن تفعلي بحياتكِ؟ سألوني. أجريتُ الاختبارات المطلوبة في ردهة كبيرة بطلاء كريمي ذات نوافذ من البلور حارة بسبب الشمس، وثمة نساء أُخريات في نفس عمري تقريباً جالسات أمامي وخلفي في صفوف. من خلال وصولنا ونحن على قيد الحياة، برهنا على شيء ما يتعلّق بأنفسنا أصلاً. المعلمون الذين يُعطوننا الأوراق كانوا رقيقين معنا، يسمحون لأيديهم أن تتباطأ أكثر مما ينبغي على مناضد الكتابة الخشبية التي حُفرت عليها أسماؤنا. كانت هنالك أسئلة في الرياضيات والعلم لكن في الفلسفة أيضاً، والنظريات أصعب من أيّ شيء صادفته في المدرسة. بذلتُ كلّ ما بوسعي وفي الختام تلقّيتُ قصاصة ورق دُوِّنت عليها خياراتي. كان ذلك نوعاً من البدء من جديد. اليانصيب والرحلة واستعادة العافية كانت فضاءً ميتاً، تمتمةً، كابوساً لا غير. مجرد شيء ينبغي لكِ أن تنجزيه ومن ثم حياتكِ، الحياة التي تستحقينها، هي مُلكك من جديد.

كنتُ نائمة في ذلك الحين في مبنى مكتظ بفتيات التذكرة الزرقاء اللائي تعافين أيضاً من الرحلة. جدران حجرة النوم صفراء من أجل الصحة

الجيدة والعقل السليم. في كلّ وقتٍ بعد الظهر يُسمح لنا أن نستلقي هناك في استرخاء. ثبّتُ بالدبابيس صورَ أزهار قصصتُها من مجلة بمقص أمان، متوخّية العناية الفائقة حول الحافات، وكانت بحوزتنا شِباك بعوض فوق أسرّتنا. كانت هنالك سعادة قوية وثاقبة في تلك الغرفة. سعادة كونكِ صنعتِ تلك الغرفة، وأن تقضي بقية الحياة هناك وأنتِ تدخلين فيها مشياً على قدميكِ.

لم نعد في تلك الغرفة. لفت ماريسول نفسَها حولي. وضعت يدها على حنجرتي. لم أعرف كيف عرفت أني أحب ذلك. فيما بعد، حين قبّلت جبيني، كنتُ رطبة وخجولة.

الفصل الثامن

الآن الطفل يتحرّك في أحشائكِ وينبغي لكِ أن تُعطيه اسماً، قالت النساء الأخريات لمّا استيقظتُ من النوم في اليوم التالي. كن قد تناولن طعام الفطور أصلاً وبدا أنهن كنّ يتناقشن بشأني. بوسعكِ أن تسميه «الطفل» فقط.

بوسعنا أن نساعدكِ على اختيار اسم، عرضت تيريزا، مُبشرةً بالأمل. تبعتني أنا وماريسول هنا وهناك كما يفعل الكلب. كان يصعب عليّ أن أحبها، مع أني عرفتُ أنّ هذا تصرّف قبيح مني.

أمضيتُ وقتاً معيناً في السكون بعد ظهر ذلك اليوم مع قائمتي، في الحديقة، أبعدُ الذباب عن وجهي. بدا ذلك مثل قرار أكبر من أن يتخذه أيّ شخص، لكن هي ذي أنا، أتخذه.

اخترتُ، إلّا أنني لم أشأ أن أُخبر أحداً بالاسم، قلتُ حين رجعتُ ودخلت المقصورة، الباب يتأرجح خلفي. لن أعلن اسمه إلى أن يُولد. جميعهن هززن أكتافهن تعبيراً عن عدم الاكتراث، إلّا أنهن تركنني وحدي. أحسستُ أنه شيء حسن أن أحتفظ بذلك السرّ في داخلي – ما من شيء حقير، ما من شيء مؤذٍ. حجرٌ صغير دفأته الشمس في بطني.

أنا أمّكَ، قلتُ لطفلي سراً في وقت لاحق، إلّا أن ما خرجَ من فمي بدا مجرّد افتراضات. شخصٌ ما سوف ينادي عليّ في ما يخص هذا الموضوع. أماه، جرّبتُ ثانيةً، وأنا أتورّد وأصبح حمراء مُتقدة.

لمّا تذكرنا، قسنا بطوننا من جديد ودوّنا الأرقام. نصبنا خيمةً في الغرفة الرئيسة كي يكون هنالك مكانٌ للخلوة، جيبٌ من الخصوصية في رهاب الاحتجاز[1] العائد للكابينة. في الليل نمتُ على فراش عارٍ مُستنشقةً رائحة شعر ماريسول، قوام جمجمتها مدسوسٌ تحت ذقني.

1- رهاب الاحتجاز claustrophobia: الخوف المَرَضي من الأمكنة المُغلقة أو الضيقة-م.

الفصل التاسع

نحن بحاجة إلى مزيد من الإمدادات، قالت ماريسول في يوم من الأيام. علينا أن نجد سوبر ماركت. قد يستغرق ذلك بعض الوقت.

لا أُريدكِ أن تذهبي، قلتُ لها، على انفراد. المسألة غير آمنة. ابعثي واحدة من المرأتين الأُخريين.

بدأتُ أُداري حلمَ البقاء في الغابة إلى الأبد. وتنشئة طفلي على الأرانب الواقعة في الشِراك، التوت، ألواح الشوكولاتة بين الحين والآخر. تساءلتُ في سري كيف سيكون شكل الطفل، وما إذا كنا سنربّي أنا وماريسول طفلينا بوصفهما شقيقين أو شقيقاً وشقيقة أو شقيقة وشقيقاً، ونبني المقصورة من جديد ونحوّلها إلى شيء جميل، ونُخضِع المَشهد الطبيعي لحاجاتنا. كنتُ أحس بالحَرَج بسبب إفراطي العاطفي. كما لو أنها تُريد أن تفعل ذلك معي.

كلّنا نتضوّر جوعاً، قالت ماريسول. علينا أن نعتني بصحتنا. ولم يبقَ بحوزتنا سوى مُعلّبات قليلة في السيارة. لمست خدي بيدها. لا تقلقي، قالت لي، وهي تُقبّلني في زاوية فمي.

سحبنا أوراق العشب كي نقرر مَن التي ستبقى؛ أنا وتيريزا التقطنا أطول القطع. لوّحنا للمرأتين الأُخريين ونحن عند الباب.

ماريسول وليلا مضتا طوال النهار. جلست تيريزا على الأرض، عيناها مُغمضتان، كما لو أنها في حالة تأمل. خيّم الليل من دونهما وجلب عاصفة مُمطرة كشفت ثقوباً في السقف. وجدنا أنّ باستطاعتنا أن نجمع الماء، لدينا صفائح وأوعية فارغة، إلّا أنها لم تكن جيدةً إلى حدّ كبير. كانت تيريزا بطيئة، وفقدتُ صبري وصحتُ عليها. لم أكن أُحب دوماً تلك الصرامة في داخلي.

لا أعتقد أني كنتُ قاسية على الدوام. اعتذرتُ من تيريزا غير أنها تجهمت، وزحفت إلى داخل الخيمة، المنطقة الآمنة، ولمّا خرجت بدا كما لو أنها كانت تنشج. المطر لا يجرؤ على الدخول لو كانت ماريسول هناك، اعتقدتُ. سوف تصدّه، وتجعل الغيوم مُحكمة الإغلاق. في أثناء الليل فكرتُ باهتمام شديد في وجهها الجميل. أحسستُ أني محمومة، مُجهَدة. في الصباح كان لا يزال هنالك رطوبة في جميع الأنحاء؛ الأرض احتشدت بالنمل وتعين علينا أن نضربه ونقضي عليه بأحذيتنا. جوقة الحيوانات تجمعت في المرج غير أن ماريسول لم تكن هناك كي تُراقبها أو تُطعمها، ولهذا تفرّقت.

في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم، حين قضينا على النمل والسماء كانت رمادية إلّا أنها تحبس المطر، جلستُ على المشمع البرتقالي المُزبّد لأرضية الحمّام، وسروالي الداخلي الأبيض في يديّ. كان هنالك لونٌ وردي يلوّث القماش، بنفس الطريقة التي فعل فيها يومئذ في المدينة. سحبتُ ركبتيّ إلى الأعلى قدر استطاعتي إلى جسدي. الطفل لم يكن يتحرّك.

هذا كلّه من المفترض أن ينتهي هنا، أخبرتُ تيريزا بهدوء شديد حين جاءت كي تجدني بعد مضي ساعة، وتدق الباب إلى أن فتحتُه لها. سائر الأشياء التي تركناها خلفنا سوف تنتهي هذه النهاية.

ركعت تيريزا على الأرض معي. هيا. من الممكن أن يكون شيئاً طبيعياً، قالت لي، وهي تمد ذراعيها، وفاجأتُ نفسي لمّا سمحتُ لها أن تُمسك بي. من المحتمل فعلاً ألا يكون هذا شيئاً، كررت. مَن يعرف ما هو الشيء الذي من المتوقّع أن يقوم به جسدانا الآن حصراً.

هذا لأني غير مؤهلة لأن أكون أُمّاً، قلتُ لها. كنتُ أعرف أن جسدي سوف ينتصر في نهاية المطاف.

هذا شيء غير صحيح، قالت تيريزا. هذا شيء غير صحيح على الإطلاق.

كانت تلك أول مرة أقول فيها ذلك بصوت عالٍ إلى شخص ما. بالطبع. تقول تيريزا إنه شيء غير صحيح، لأنها كانت في المركب نفسه. إن لم يكن لدينا إيمان فنحن لا نملك شيئاً. كنتُ أكرهها كُرهاً قليلاً، ثانيةً، حتى مع لُطفها وشفقتها.

أخبريني بأسعد أيام حياتكِ، قالت تيريزا. كانت تقبض على يديّ بيديها، بإحكام.

حكيتُ لها عن اليوم الذي حصلتُ فيه على وظيفتي الأولى. كيف تلقيتُ المكالمة التليفونية ومن ثم مشيتُ عبر المدينة بالطريقة التي أصبحت فيها جزءاً من روتيني، وكان يوماً من أيام الصيف حيث يكون الهواء نقياً، وحين يكون هنالك وعدٌ بمساء طويل تتخلله السعادة. قابلتُ صديقةً في أحد البارات وجلسنا خارجاً. تحدّثنا طويلاً وأكلنا حبات الزيتون الصغيرة المُرّة. ملأني كلّ شيء. لم يكن ذلك اليوم يوماً استثنائياً. باستثناء الدفء؛ الاحتمال. تالياً سرتُ ناحية البيت بمحاذاة القنال. ثمة جمال في عزلتي. فكرتُ أني ربما ينبغي لي ألا أكون وحيدةً مرةً أخرى.

هذا يوم جيد، قالت تيريزا. يوم جيد.

لم يكن في اليد حيلة. لبستُ ثياباً داخلية نظيفة وأخذتُ الثياب الملوّثة بالدم كي أغطسها في الجدول. ومع المسدس البارد في يدي مشيتُ إلى مسافة بعيدة حيث الأشجار وضغطتُ به على رأسي. إنه مسدس حقيقي وهو صلب. فكرتُ في خياراتي. تأملتُ الفكرة التي جلبتُها لنفسي. سمحتُ للمسدس أن يسقط عائداً إلى جنبي. ولمّا أحسستُ أنّ الطفل يتحرّك، تعيّن عليّ أن أجلس وأنا مُصابة بالصدمة.

لا تفعل ذلك معي، قلتُ للطفل، سراً. كنتُ أتحدّث مع الطفل دوماً في ذلك الحين، بالطريقة التي تحدّثتُ بها مع نفسي من قبل. ربما كنتُ أتحدّث معه على الدوام.

لا يُمكنك أن تفعل هذا معي، قلتُ له. لا يُمكنك.



الفصل العاشر

وصلت ماريسول وليلا مع الطعام في رزمهما وثمة امرأة أخرى، إلّا أنها مختلفة هذه المرة. كان الدم عالقاً في صدغيها، عينها أرجوانية متوَرّمة، مع أنها بدت عدوانية بدلاً من أن تكون خائفة. ركزتُ نظراتي بشدة على إصاباتها واستغرقتُ برهةً طويلة كي أُلاحظ أنها لا تبدو حبلى. اقتادتها النسوة إلى الحمّام. اعترضت في أول الأمر فيما كنّ يجرّدنها من ثيابها ويخلعن حذاءها، تبدو جادة وعمليّة. صفعت يديّ لمّا كنتُ أفك أزرار ثيابها. لمحتُ المستوى الحاد لعظميْ وركيها. حسناً، افعلي ذلك بنفسكِ، قلتُ لها.

إنها ذات تذكرة بيضاء، شرحت ماريسول. وجدناها قرب الطريق.

مكثت ماريسول كي تعتني بها في الحمّام. في الحجرة الأخرى كنا نحن البقية نفتح أكياس الرز والمعكرونة، البرتقال والليمون كي نحمي أنفسنا من داء الإسقربوط، الطماطم المُعلّبة، والقطع الكبيرة من الشوكولاتة الداكنة، وسألت ليلا عما جرى.

كنا نقود السيارة، من الجلي، أننا قطعنا طريقاً طويلاً إلّا أننا وجدنا سوبر ماركت في النهاية، قالت. اشترينا ما نحتاج إليه. وبعدها في طريق العودة رأينا شيئاً على الطريق، أشبه بكومة من الخرق، وكانت تتحرك. أردتُ أن أنطلق بالسيارة مارة بها غير أنّ ماريسول أوقفت السيارة كي تستقصي. لم يكن في مقدورنا أن نتركها هناك.

دققتُ باب الحمّام ومعي ملابس نظيفة، وماريسول فتحته قليلاً. هل كلّ شيء تمام؟ سألتُها، وأنا أمرر لها الأشياء. أجل، قالت. كانت عيناها رقيقتين ونديتين. لم يكن بوسعي سماع الحركة المنبعثة من مغطس الحمام. أشاحت ماريسول وجهها، وأغلقت الباب.

امرأة التذكرة البيضاء اسمها ڤاليري. في ذلك المساء استعادت عافيتها بما يكفي كي تأتي وتجلس معنا. جلسنا بشكلٍ رسمي، ظهورنا مستقيمة. كنا حذرات. نَزَعت علبتها المعدنية الصغيرة المُعلّقة في رقبتها بوصفها تقدمة سلام، ووضعتها على الأرض قبالتها.

مررنها إلى الأُخريات إن شئتنّ، قالت. وفعلنا ذلك، مررناها من امرأة إلى امرأة، فتحنا الكلاّب ورأينا البياض النقي في الداخل. لم تحرقنا حين لمسناها. لم تترك علامةً ما.

البسنها، إن شئتن، كررت، وهكذا خلعنا علبنا المعدنية الصغيرة المُعلّقة في رقابنا واحدة واحدة وجرّبنا علبتها. بدت أثقل حول عنقي.

أأنتِ حامل؟ سألتها ليلا.

كنتُ حاملاً، قالت. إلّا أنني لم أعُد كذلك.[1]

هل تُريدين أن تكوني حبلى؟ سألتها تيريزا، وهي تميل إلى الأمام.

لا، قالت ڤاليري. على الإطلاق.

أخبرتنا كيف أنها، لمّا أدركت ماذا كان يجري، ذهبت إلى طبيبها، الذي أراها الطفل يتحرّك على الشاشة في العيادة الطبية. أراها الطبيب نبض القلب. وعلى خلاف الحوارات التي عرفناها، طبيب ڤاليري لم يفعل شيئاً فيما يتصل بالأمر. غير أننا نعرف أكثر من أيّ شخص آخر كيف أنّ هنالك طرائق تتعارض مع الجسد، طرائق من شأنها أن تُقدّم قرابين الدم.

كيف فعلتِ ذلك؟ سألت ليلا. بدت أشبه بالغول، نابضة بالحيوية أكثر من أيّ وقت رأيتُها فيه من قبل.

لا أود التحدّث عن ذلك، قالت ڤاليري.

جلسنا هناك واستمعنا إليها وكنا جامدات بلا حراك.

اكتشف زوجي. لم يُصدّق أنها حالة عَرَضية. كان مشمئزاً مني. إلّا أنه لم يكن جسده هو الذي يحمل الطفل في أحشائه.

1- كنتُ حاملاً، قالت. إلّا أنني لم أعُد كذلك (I was, she said. But I'm not any more) هنا تعني ڤاليري أنها أجهضت-م.

كانت تتكلّم كما لو أنها تقرأ من لائحة اطّلعت عليها مراراً، كما لو أنها تعوّدت أن تعرض مبرراتها، حتى ولو لنفسها فقط. ابتسمت ابتسامة موجزة، إلّا أنها لم تصل إلى عينيها.

سوف يُعيدني. ماذا يستطيع أن يفعل باستثناء ذلك؟

أمسكت يدي اليمنى بيدي الشمال بإحكام شديد. عظم على عظم.

كيف كانت الحالة بالنسبة لكِ لمّا عرفتِ بأنكِ حبلى؟ سألت تيريزا.

كانت أشبه بلا شيء، قالت. كانت مجرّد حالة أخرى من حالات الجسد. مرضتُ على مدى شهر. ومن ثم انتهى المرض، كما لو أنه لم يحدث قط.

إلّا أنّ شيئاً ما قد حصل فعلاً، قالت ليلا.

إلّا أنه بدا كما لو أنه لم يحصل أيّ شيء، قالت ڤاليري. أو ربما من المحتمل أنه كان هكذا. أن أكتشف بأني حبلى فهذه هي غلطتي الوحيدة.

كانت مفاصل أصابعها بيضاء.

توقفتُ عند ذلك الإبلاغ، قالت، مع أنه لا واحدة منا ارتابت فيه.

كوني لطيفة مع ڤاليري، قالت لي ماريسول تالياً، في السرير.

كانت ڤاليري نائمة في الخيمة. كانت تمثل الأسبقية الأدنى من الناحية الجسدية. هذا هو فقط ما أملاه علم الأحياء.

هي مثلنا إلّا أنها مختلفة، قالت. فعلت ما تعين عليها أن تفعله.

رأيتُ شرارة ذلك، صلة القرابة. كان هنالك حيوانٌ في موقع ما في ڤاليري أيضاً، إحساسٌ كئيب. كان قد فتح شيئاً ما لها، جعل قرارها مُمكناً. إلّا أنني لا أزال لا أثق بها.

بمقدوركِ أن تثقي بها، قالت ماريسول، لمّا عرفتُ أنها ستثق بها. لديّ غريزة فيما يتصل بمعرفة ذوات الناس وطبيعتهم.

الغريزة ليست صحيحة على الدوام، قلتُ مُعارضة رأيها. استندت ماريسول إلى مرفقها ونظرت إليّ في شعاع من ضوء القمر.

إذاً ما الذي نفعله هنا؟ قالت.

بشكلٍ من الأشكال نحن نُعارض غريزتنا الرئيسة للغاية، قلتُ. غريزة الحفاظ على الذات.

أنا لا أنظر إليها بتلك الطريقة، قالت.

الظلام البارد يطوّقنا، أصوات التنفس التي تصل إلينا من الغرف الأخرى.

أخبرتُ ماريسول بما يتصل بالنزف الذي مرّ بي بغتةً كما لو أنه عاصفة رعدية، كيف استنزفني الخوف، كيف ذكّرني بكلّ ما بقي لديّ كي أفقده. أخبرتُها بما يتصل بالشعور الكئيب. هل تحسين به أنتِ أيضاً، بطريقتكِ الخاصة؟ سألتُها، بلهفة، بلهفة كبيرة.

أخذت يدي. أجل، قالت، أنا أيضاً أحسّ به. أحس به في كلّ ثانية من ثواني اليوم. إني أحسّ به الآن. مثل قلبٍ نابض في داخل قلبي، يُصبح أقوى طول الوقت.

لم يُغمض لنا جفن. مضينا خارجاً كي نشاهد القمر، وجلسنا في العشب. مالت هي إلى الوراء، ودسّت قدميها تحتها.

لم يسبق لكِ أن أخبرتني عن حياتكِ الماضية، قلتُ لها. ترددت عن الإجابة على مدى ثانية، ومن ثم ثانية أُخرى.

أنتِ لم تُخبريني بما يتصل بحياتكِ الماضية، قالت لي.

في حقيقة الأمر لا شيء يستحق أن أرويه، قلتُ لها. أنتِ لم تسأليني قط.

أفترض أنّي أعتقد أنّ هذا شيء غير مهم، قالت. لا شيءَ من ذلك يهمّ فعلاً الآن.

لكن مع ذلك حكيتُ لها عن تعقيم صحون «بتري» الزجاجية الخاصة باستنبات البكتيريا، عن الذهاب إلى الحانات والسباحة في الماء الفيروزي البارد وقبعتي مسحوبة إلى الأسفل على أُذنيّ. حكيتُ لها عن المشي في أرجاء المدينة في الهزيع الأخير من الليل أو في الصباح الباكر، وكيف يكون الحال مع وقتي الأثير، حين يبدأ الفجر بتنقيط السماء وتلك المدينة التي أقمنا فيها كانت تبدو نقية وخالية، وشيئاً ينتظر أن يدخله المرء ماشياً.

تلك الحياة تبدو صغيرة للغاية، قالت لي. قصيّة للغاية.

أخبريني بشيء ما، قلتُ لها. شيء واحد لا غير.

أمعنت النظر في يديها. ثمة شيء يتعين عليّ أن أخبركِ به، غير أني لا أحب أن أفعل هذا. ربما تُغادرين إذا ما عرفتِ به.

لن أغادر، أُعطيكِ وعداً، بعجالة.

ربما ينبغي لكِ أن تفعلي، قالت. ترددت قليلاً، وأغمضت عينيها.

أنا طبيبة، قالت. لم تقل شيئاً على مدى ثانية.

جرّبتُ أن أتخيّلها في المعطف الطبي، وكان هذا شيئاً سهلاً. شعرها مربوط للخلف بعناية وتحت المعطف ملابس قطنية داكنة اللون. تلبس القفازين المطاطيين وتُهدئ الناس بكلمات رقيقة، يداها عند أصداغهم، تستنبط أسرارهم الخفية، تستنبط آراءهم المستترة[1]. كنتُ غبية لأني لم أرَ ذلك. فتحت عينيها ووجدت عينيّ، كانتا غامضتين. وضعت أصابعها على ذراعي.

لا تلمسيني، أرجوكِ، قلتُ لها. رفعت يدها حالاً.

انظري، الآن تُريدين أن تذهبي، قالت لي. بدت هادئة، لا مُبالية.

أود الذهاب فعلاً، أود الركض والتغلغل بين الأشجار وألا أرجع.

تلك هي حياتي القديمة، قالت لي. أنتِ أيضاً تركتِ الأشياء وراءكِ.

وقفتُ، وأخبرتُها أني مُتعبة وسأمضي إلى الفراش وأنّ باستطاعتها أن تتبعني إلى هناك، إلّا أنني أولاً أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير. اجلسي هنا وانتظري، قلتُ لها. لبثت في مكانها، ترنو ببصرها إلى السماء.

تالياً، حين كنتُ على وشك أن أنام، سمعتُها تأتي إلى السرير. سمعتُها تهمس، «ما من أحد مُحصّن، هذا ما يجب أن تفهميه، لم أشأ أن أكون على هذا النحو، لم أطلب أيّ شيء من هذا».

كيف يبدو الحال بالنسبة لكِ؟ سألتُها. كيف يبدو الحال فعلاً؟

شاقاً، قالت. كأنكِ تحملين ثقلاً وتمضين هنا وهناك على الدوام.

1- استعملت الكاتبة صوفي ماكنتوش فعل teasing out، ومن معانيه بحسب السياق أعلاه أنّ الراوية تتخيّل صديقتها الطبيبة ماريسول وهي تفصل الشعرات في منطقة الصدغين وفي الوقت نفسه تحاول استنباط أسرار مرضاها وأفكارهم غير الواضحة، أو المُبهمة-م.

الفصل الحادي عشر

إنه لمن الغريب أن نكون حول ڤاليري. لم يكن باستطاعتنا أن نمنع أنفسنا من الاستياء منها. على الفطور نظرنا إليها إلى أن لم تعد تنظر في عيوننا. كان مظهرها قد جلب معه أشياء تذكّرنا بالثياب التي نزعناها ورميناها جانباً؛ أصواتنا كُبتت لمّا كنا نتصارع مع الشيء الذي كانت تمثّله لمّا قلقنا بشأن حُكمها على شخصياتنا وسلوكنا.

المخاض هو نوع من الموت، قالت حين كنا نُراقبها. هل تنحين عليّ باللائمة لأني لم أرغب بتبني هذه المسألة؟

لم ترد عليها أيّ واحدة منا. حتى تيريزا لزمت الصمت. تناولنا الغرانولا[1] ممزوجةً مع الماء والحليب المجفف. حاولنا أن نشرح ل ڤاليري أننا يقظات داخلياً لأنها وُجدت جديرةً طوال كلّ تلك الأعوام الفائتة في حين أننا كنا نفتقد إلى الجدارة بشكلٍ من الأشكال.

أنا لا أنظر إلى الموضوع على هذا النحو، قالت. بالأحرى، أنا المرأة التي وجدوها تفتقر إلى الجدارة. طوال حياتي كلّها كانوا يقولون لي إني لا أكتمل إلا إذا أنبتُّ شيئاً ما في داخلي وجلبتُه إلى العالَم. في حين أنكن سليمات ومثاليات في وضعكن الحالي.

جاء نَفَسها في انفجارات قصيرة الأمد.

لم يسبق لي أن فكرت في الموضوع على هذا النحو، قالت ماريسول، باعتدال. شكري الجزيل على وجهة نظركِ.

1- الغرانولا granola: فطور يتكوّن من الشوفان المتكوّر، والفواكه المجففة والمُكسّرات والعسل أو السُكّر البُني-م.

بعد الفطور، أذاعت ماريسول الأنباء المتعلّقة بما كانت عليه.

اذهبن، إذا شئتن. فهمتُ الأمر.

ليلا وتيريزا تبادلتا النظرات، لكن ماذا في مقدورهما أن تفعلا؟ إلى أيّ مكان آخر تستطيعان الذهاب؟

حياتنا القديمة انتهت. دعونا لا نبقى في الحالة التي كنا فيها من قبل، قالت ماريسول.

راقبنا، عبر الشباك، ڤاليري وهي جالسة في الخارج على رقعة من العشب. كانت تدخن سيجارة ومن ثم تشعل سيجارة ثانية حتى قبل أن تنتهي السيجارة الأولى، تسحق عقبها في الأرض. ليلا واقفة بجانبي. وكانت تلعق شفتيها.

كان هنالك كثيرٌ من الإرضاء المباشر في تلك الحياة التي لم يعد في مقدورنا أن نختبرها، شرحت ماريسول.

إنكِ تقصدين أنه من الصعب أن تكوني بخير طوال الوقت، قالت ليلا. ابتسمت فجأة. تعوّدتُ أن أكون خشنة للغاية، قالت. أنا أيضاً، وافقتْها الرأي. أنا أيضاً، قالت تيريزا بصوت حاد، إذ لم تشأ أن تُترَك. حاولتُ أن أتخيّلهن يصرخن على سماء الليل، يشربن جرعات من الكحول الصافي، يرقصن إلى أن يهوين أرضاً. كان ذلك عسيراً. وجوههن مُجعّدة، شعرهن مسحوب بإحكام. جميعهن بدَون مُرهقات، بصرف النظر عن المدة الزمنية التي نمن فيها. لا توجد مرآة، إلّا أنني تخيّلتُ أنّ الشيء نفسه حصل لي.

في ذهني تصوّرتُ الأشياء التي من المحتمل أن يقولها الطبيب أ. «مَن هي المرأة التي ترغب بأن تجلب طفلاً إلى هذا العالَم؟ ماذا سيقول الطفل عنكِ؟"

أفترضُ أني أردتُ أن أترك شيئاً ما على هذه الأرض، قلتُ لشبح الطبيب أ.

«حاولي بجهد أكبر»، رد عليّ الشبح.

من الغرابة أن تعود أفكاري عنه إلى السطح. ربما الألفة تحت الإكراه بالتهديد التي تُساوي شيئاً ما على أية حال، قد جمعتنا بشكلٍ ما بحيث لم

يكن باستطاعتي أن أهرب منه. مع أنني لو كنتُ صادقة مع نفسي فربما من الصعب أن أتخيّل وجهه. كان هنالك حزن غريب كي أعرف ذلك، على غرار أن تمري مرور الكرام بشخص تعوّدتِ أن تُغرمي به، في الشارع.

في الليل استويتُ جالسة في السرير وفكرتُ بأنّ هنالك شكلاً داكناً يأتي إلينا، إلّا أنه لم يكن سوى ملاءة سرير علّقتها كي تجف. لم يكن ذلك سوى لا شيء على الإطلاق.

الفصل الثاني عشر

جاء دوري كي أذهب لشراء الإمدادات. النساء الأُخريات لم يرغبن بأن أذهب لأني أُظهر أكبرَ دليل على كوني حبلى، إلّا أننا لم نكن نمتلك ما يكفي من الطعام كي نكسب الوزن الذي من المفترَض أن نكسبه، وزيادةً على ذلك، كنتُ مستميتة من أجل الذهاب. حالات الاستئذان تضغط عليّ. أتت ليلا بصحبتي، لأنها كانت تعرف أين هي السيارة. لبستُ فستان الأمومة من البلدة ذات البحيرة، ولا يزال كبيراً جداً نوعاً ما بالنسبة لي، يتدلّى فضفاضاً على جسدي الجديد. شعري طويل فقط بما يكفي ل ڤاليري كي تسرّحه بحسب موضة التذكرة البيضاء – مشدوداً للخلف بإتقان عند مؤخرة العنق. يداها ناعمتان. في ذهني تلوثُ رقم هاتف ما. دوّرتُ الأرقام ذهاباً وإياباً كما لو أني أوقّع النغمات بسرعة على وتر ما، مثل أصابع تهبط على عمود فقري. راقبتني ماريسول فيما كنتُ أضع المسدس في جيب سترتي. النسوة لوّحن لنا مودّعات.

كانت ليلا متجهمة وصامتة في الغابة فيما كنا نمشي معاً. وبين الحين والآخر كانت تضع يداً على ذراعي وتُشير – «من هنا». أفسَحت الأشجارُ المجالَ لطريق وحقل بسرعة شديدة بحيث بدا ذلك أشبه بخدعة، ملاذنا رقيق مثل قطعة من الورق الكارتون. في السيارة ذاتها استرخت ليلا. تفحصت ما في صندوق السيارة وتحت المقاعد. أحسستُ أني عطوفة جداً على حين غرة، تجاه يديها القلقتين، جلدها المتشقق، الطريقة المُتمرسة التي تنتبه فيها وتسجل الملحوظات.

كانت ليلا تنقب في صندوق القفازات عن أيّ شيء مفيد ووجدت علبة

سجائر نصف ممتلئة. أحب واحدة من هذه السجائر، قالت، بحزن، وهي تتأمل الماركة التجارية.

دعينا نتقاسم واحدة في موقف السيارات، اقترحتُ عليها. يجب ألا يعرف أحدٌ سوانا.

وفعلنا ذلك، أشعلنا سيجارة واحدة وجلسنا معاً في السيارة، ورحنا نمرر السيجارة ذهاباً وإياباً، ونحن نُراقب الرجال والنساء يدخلون الأبواب الأوتوماتيكية. كان مذاقها قوياً للغاية وسرعة تدخينها جعلتني أنزّ عَرَقاً. الطفل في أحشائي ركل محتجاً. فتحت ليلا بابها، باب السيارة، أسقطت عُقب السيجارة على الأرض وسَحَقته بنحو حاسم تحت عُقب جزمتها، وأحببتُها أكثر من قبل.

في السوبر ماركت دفعنا عربة فضة كبيرة تحت المصابيح المتوهّجة. صرير العجلة ظلّ مسموعاً حتى مع دوي الموسيقى المُبهِج. بدا ذلك أشبه بتنافر النغمات، أنا التي تعوّدتُ كثيراً على السكون. لم يكن هنالك شرطة سريون يؤدون واجب الحراسة في هذا المكان القصيّ. في مجاز الحبوب كذبتُ على ليلا بشأن حاجتي إلى دخول الحمّام. بالطبع، قالت لي. كان الحمّام خارج السوبر ماركت، في مرحاض خارجي من القرميد. ترنّحتُ عند الباب وبعدها سرتُ نحو كُشك التليفون المصنوع من البلاستك البرتقالي بجانبه، وكنتُ أعرف أني سأفعل، وأدرتُ الرقم.

حسبتُ أنكِ قد فارقتِ الحياة، قال الطبيب أ حين جاء إلى الخط وكلّمني. استحوذ عليّ الارتياح. جعل رِجليّ ترتعشان.

ما هو شعوركَ إذا ما فارقتُ الحياة؟ سألتُه، وأنا ألفّ سلك الهاتف حول يدي، معصمي، وأقطع دوران الدم.

لا، أنا أسأل كيف تشعرين، قال لي.

لكنكَ لم تشعر، أجبتُه. تذكرتُ أفضل أيام ممارستنا، لمّا كان بمقدوري أن أطرح فكرتي المُناهِضة كي أسمع ردّه عليها، لمّا كان بمقدوري أن أُحرّض وأُعنّف بقسوة، وهو يجلس هناك من دون حراك.

هل يجعلكَ هذا تشعر بالحزن؟ سألتُه. أردتُ منه، بنحو مُلِحّ للغاية، أن

يغضب علي، وأردتُ منه أن يهتم. ظللتُ أراقب الأبواب مخافة أن تظهر ليلا فجأة.

أنا محترف، قال لي. أشعر بأني مُنصف بشأن ذلك. أشعر، من وجهة نظرة احترافية، أنه عار، لستِ غير قابلة للإصلاح.

أعتقد أني تخطيتُ الإصلاح منذ أمد طويل، قلتُ. سماع صوته جعلني أشعر بالدوار.

لعلكِ تحسبين أنكِ مؤهلة للبقاء إلّا أنكِ ميّالة لارتكاب الأخطاء، قال لي.

ألهذا السبب أنا بتذكرة زرقاء؟

لديكِ عقل ضيّق.

لكن هل هو هكذا فعلاً؟

إني أُدلي بالحقائق فقط، قال لي. أُحاول أن أقدّم لكِ العون من خلال عزل تصرفاتكِ. إني أعكس نفسكِ عليكِ، بالطريقة التي دأبتُ عليها.

هل أنتَ مُغرمٌ بي؟ سألتُه.

بقدر ما هي وظيفتي أن أُحب الكائنات البشرية كلّها، قال. بقدر ما هي وظيفتي أن أحترمهم وأرشدهم عبر ظلام أيامهم.

كلام فارغ، قلتُ له، وأقفلتُ خط الهاتف.

استغرقتُ ثانيةً كي أجلس القرفصاء وأدفن وجهي، مدةً وجيزة جداً، في يديّ. لا راحة، أقل من الراحة. لم يُساعدني ذلك على الإطلاق وأحسستُ أني مخدوعة بواسطة حوافزي، بواسطة ترقّبي المضطرب في أن أسترجع رقمه طوال الرحلة، وأن أتلوه بصمت كما لو أنه يحمل أيّ إجابات.

غير أنه ليس ثمة وقت كي أُضيّعه. ذهبتُ ووجدتُ ليلا، كانت واقفة، حائرة، عند كاونتر اللحم، وفي إحدى يديها علبة تحتوي على شريحة لحم البقر وفي يدها الأخرى علبة مقانق. انجذبت عيناي إلى القطع الرخامية الحمراء، إلى الدم الذي ينز. كان ينبغي لي أن أتنفس في جرعات كي أتفادى محاولة التقيؤ.

أنا أتضور جوعاً، قالت لي ليلا. كانت تتكلّم كالطفلة، عنادُها كلّه ذاب،

وأدركتُ بنوعٍ من الاستغراب أنها من المحتمل أن تكون أصغر سناً منا بكثير؛ وأحسستُ بغتةً بالحاجة إلى أن أسألها لماذا وكيف وأين، غير أنّ ذلك على الضد من صفقتي الخفية، وأنّ حياتنا القديمة تعود إلينا وليس لها أيّ صلة بحياتنا الحالية.

في مقدوري أن آكل حصاناً، قالت لي، في مقدوري أن آكل ذئباً. بوسعي أن آكل أيّ شيء. أكره هذا.

وضعتُ يديّ على كتفيها.

انظري إليّ، قلتُ لها. تنفسي بعمق. دعينا ندفع ثمن السلع التي اشتريناها. دعينا نذهب.

يبدو أنّ المرأة التي كانت تمرر الماسح الضوئي على طعامنا قد بوغتت حيال الخيارات والكميات. تذكرتُ أنّ كلّ مغامرة في العالَم الخارجي هي اختراق، مكالمة هاتفية أو ليست مكالمة هاتفية. كانت عينا ليلا مُحمرّتين.

أرجوكِ احزمي الأشياء الثقيلة، طلبتُ منها، كما لو أن كلّ شيء طبيعي، كما لو أن أيّ شيء سيكون على ما يرام ثانيةً. يا له من جو جميل هذا الذي نملكه الآن. يا له من عشاء لذيذ هذا الذي سنعده حين نصل إلى البيت.

الفصل الثالث عشر

حدّثيني عن الموت والعودة إلى الحياة، طلبتُ من ماريسول في تلك الليلة.

في الأشجار التي من حولنا تخيّلتُ الشرطة السريين، وهم يقتربون منا. تخيّلتهم وهم يُطلقون إشارات ضوئية برتقالية اللون على الغابة في المكان الذي نختبئ فيه. سمحنا لأنفسنا أن نحس بالأمان، إلّا أنه في حقيقة الأمر لا يمكن العثور على الأمان، وربما لم يكن هنالك أمان في أيّ وقت مضى.

حوّلتُ شعوري بالخسارة إلى لمسِها، رسمتُ خارطةَ جسدها، ووضعتُ يديّ على قفصها الصدري الرقيق، قصبتيْ ساقيها، بطنها. الطاقة العصبية استبدلت مكانها، تغيّرت. إنكِ تُتعبينني، خاطبتني قائلة.

أخبريني، طلبتُ منها مرةً أخرى.

كانت مستلقية على الفراش بكامل ثيابها، ذراعاها ملتفتان خلف رأسها. مدحتني. حسناً، قالت في الختام. إذا كنتِ متأكدة من كونك تُريدين أن تعرفي.

حكت لي عن الذراع الممدودة إلى طبيب آخر، الذراع الأخرى ذات أنبوب الزرق في الوريد. كان هنالك كيس يحتوي على سائل، سائل بنفسجي محقون في المجرى الدموي العائد لها.

كنتُ نائمة، قالت، ومن ثم استيقظتُ في مكان أبيض نظيف. كانت غرفة نوم طفولتي إلّا أنها كانت خالية تماماً نوعاً ما، وكلّ شيء مليء بالضوء. أتت إليّ أمي وقبضت على يدي. لم أكن قد رأيتُها منذ زمن طويل. ذهبتُ إليها فعلاً وزُرتها بعد أن أقمتُ في المدينة، مرةً واحدة أو مرتين، إلّا أنها لم تكن كما كانت عليه لـمّا كنتُ طفلة. في الحلم أحبتني من جديد.

في هذه الحجرة هنالك بيضة رمادية على منضدة بيضاء، استطردت في حديثها. مضيتُ إلى البيضة وأمسكتُ بها بيديّ، ونَبَضت القشرة. بات من الضروري جداً أن أكسر البيضة. رفعتها عالياً بيديّ كلتيهما ووضعتها على سطح المنضدة، وشرعتُ ألتقط قطع القشرة. إنما قبل أن أتمكن من رؤية ما في الداخل، عُدتُ إلى الحياة.

في حالات نادرة جداً أرى أحلاماً من شأنها أن تُعيدني إلى الحجرة، قالت. في كثير من الأحيان أكون على حافة رؤية ما يوجد في داخل البيضة. أنا متيقنة أني سأتمكن من رؤيتها قبل أن أفارق الحياة. وأنا خائفة من رؤية ما في داخلها، إلّا أنني أيضاً انتظرتُ طوال سنوات حياتي كلّها.

استوت في السرير ومدّت يدها إلى المشط. بدأت تحرّكه بضربات طويلة، مدروسة، ساحبةً شعرها على إحدى الكتفين.

فكرتُ أنه لو كان في مقدوري أن أكون طبيبة وامرأة بارعة سوف يغيّرون تذكرتي، قالت. حسبتُ أنّ هنالك طريقة كي تُبرهني أنكِ جديرةٌ بذلك. وأنهم في يوم من الأيام سوف يقودونني إلى داخل غرفة أخرى، غرفة مليئة بالضوء على غرار تلك الغرفة التي رأيتُها، وسوف يقولون إني حصلتُ على حقي في الاختيار. بذلتُ قصارى جهدي كي أُبيّن جدارتي، حاولتُ أن أكون أمومية في كلّ فرصة من الفرص. لكن لم يكن هنالك اختيار.

هذا يكفي، قلتُ لها. وضعتُ كلتا يديّ على وجهها.

هل تُحبينني، سألتني لاحقاً، بعد أن مارسنا علاقتنا الحميمة. كنا نتنفس بصعوبة كما لو كانت كلّ واحدة منا تُطارد الأخرى. بدا ذلك أشبه ببوح، وليس سؤالاً.

لم يكن بوسعي أن أُجيب بطريقة مُرضية. لم أكن أعرف كيف أفسر أن حبي كلّه مُكبّل في بطني، وأنه ملوّث بالخوف.

هل تُحبينني، كررتُ بدلاً من ذلك، مُقلّدة نبرة صوتها، إلّا أنها كانت قد غطّت في النوم أصلاً.

في الصباح، قبل أن تستفيق أيّ واحدة أخرى، سمعتُ كلباً وحشياً. كان في الحديقة وكان يُطلق صوتاً منبعثاً من حنجرة شيطان. اخرس، همستُ

عبر النافذة. كان في مقدوري رؤية أسنانه المكشوفة. راقبتُه وهو يأتي أكثر إلى داخل الحديقة، باحثاً عن نقطة دخول، وعرفتُ أنه سوف يدخل إلى المقصورة، عيناه واسعتان، وهو جاهز لأن يمزقنا كلّنا إلى قطع صغيرة، نحن اللواتي كنا في عِداد الأموات أصلاً. «انصرف، انصرف». لم تستيقظ أيّ واحدة من النسوة، أنا المرأة الوحيدة التي استيقظت. مسدس تيريزا على المنضدة، إنه مطروح هناك لا غير. رفعتُه، مترددة، ومن ثم هرعتُ إلى الخارج. واجه أحدنا الآخر، حيوانان. التقت عيوننا. سوف يقفز الكلب ويقبض على حنجرتي. سحبت إصبعي الزناد، ولم يكن يبدو ممكناً أنه يعمل، إلّا أنه عمل.

الصوت صمّ أذنيّ مؤقتاً، كان أعلى مما تذكرت من تلك الأيام حين أراني أبي كيف أطلق النار على الطيور التي كان شكلُها يشبه دولاب الهواء في السماء وأرديها قتيلةً واحداً بعد الآخر. هوى الكلب ميتاً. ضبابٌ خفيف داكن يُخيم على الغابة؛ لهاث مُرهَق على مدى لحظات قلائل، ومن ثم حلّ السكون. فكرتُ في طرقاته المُفضية إلى الخارج من مقصورتنا إلى العتمة. النسوة الأُخريات وجدنني هناك، وجمدن من الخوف.

إنه عفريت، شرحتُ لهن. إنه يشبه أحلامي.

إنه مجرّد كلب، قالت ماريسول، وهي تجثو على الجسم اللامع. إنه مجرّد كلب، والآن انتهى.

الفصل الرابع عشر

من دون أن أُفرّغ أفكاري للطبيب أ، بدأ عقلي يحس بأنه ثقيل ومتبلّد. كنتُ أنام عادةً، في بعض الأحيان أحتاج إلى قيلولة حتى قبل أن تصل الشمس إلى نقطة منتصف النهار في السماء، أحلم بأمّيْن وجهاهما مندمجان أحدهما مع الآخر، وأستيقظ من النوم على تسارع نبضات قلبي. في بعض الأحيان كنتُ أستيقظ على ماريسول وهي تقيس نبضي، وعيناها، عينا القطة، تدرّبتا على وجهي. ثمة ضغطٌ على صدري.

الحب الحقيقي هو حَظّ من القيمة، قالت لي ماريسول ذات صباح. إنكِ تفعلين أيّ شيء من أجل طفلكِ، وأعني أيّ شيء. أشياء أسوأ من كلّ ما سبق لكِ أن تخيّلتِه.

كان كلامها ينزلق نحو بناء الجُمل لدى الأطباء، إيقاعات إشعاراتهم. لم يكن في مقدوري الكف عن رؤيتها وهي في تلك الصورة الآن. حين كانت تقوّس ظهرها، تتنهد، تكون هنالك حِدّة من الاشمئزاز قتلت رغبتي وشحذتها في آن. لم أعد أشعر أني آمنة فعلاً، لم أعد أشعر أني معافاة فعلاً، إلّا أنه لم يكن باستطاعتي أن أُشيح بوجهي عنها أو أتجاهلها أو أرحل عنها. ولمّا فكرتُ في المغادرة كلّ ما أستطيع أن أراه هو نفسي وأنا أزحفُ عبر الغابة، على قدميّ ورُكبتيّ، نحو المصيبة.

وضعت يديها في داخل فمي كي تفتش عن أسنان أخرى متخلخلة. دعيني أقلعها، توسّلت إليّ، غير أني لم أسمح لها بأن تفعل ذلك، عضضتُ أصابعها برفق، إلى أن حرّكتها خارجاً، ومرّرتها على حنكي، ورقبتي.

في الصباحات تكون مُضيئة، مع أنها لم تكن تبدو أنها نامت ساعات

أكثر. تتحدّث بكلمات خالية من المعنى مع الطيور خارج شباكنا، تخرج عند الفجر كي تتلقّف نشيد جوقة الحيوانات، اهتمامها به لم يعد يبدو حذلقة جميلة.

باستطاعتي القول إنّ النساء الأُخريات تكلّمن عنها، وعني. غضبتُ لأننا استقبلناهن، كي لا يقلن أيّ شيء عنا، لن يكون في مقدورهن أن يحكمن علينا أو يتحدثن عنا همساً. سحبناهن إلى ملاذنا، عالَمنا الهادئ، وينبغي لهنّ أن يكنّ مُمتنات على هذا العمل.

صباحات زُرق. بدأت ليلا تمشي في نومها، تتخبط في أثناء كوابيسها. كنا نجدها واقفةً عند عتبات الغرف، أو نجد الشبابيك والأبواب مفتوحة حين نستفيق من النوم، سامحةً بتدفّق تيارات الهواء الرطبة.

ربما السبب هو الطفل الذي في أحشائها. إذ بدأ طفلها يتحرّك الآن - ركضت فيما بعد ظهيرة أحد الأيام، شعرها وثوبها مُبللان بالعَرَق، وملتصقان بها مثل منديل ورقي. يبدو أنه أشبه بالسحر، قالت، وهي تُمسك بطنها. أشعر أني مُصابة بدوار البحر.

أقدم سحر في الأزمنة كلّها، قالت ماريسول، وهي تأتي من الموقد كي تتحسس ركلات الطفل.

ليلا سمّت الطفل (ريڤر). ربّتنا على بطنها عبر فستانها القطني الرمادي. نحن كلّنا مُشاركات ومُنافسات. ثمة وجع مُباغت حيال الفكرة القائلة إنّ طفلها ربما يعملها وطفلي ربما لا يعملها، يضغط إلى الأسفل حالاً قبل أن يتمكن من الظهور بجلاء تام.

أخبرينا بقصة ما يحدث حين نصل إلى الحدود، ليلا سألت ماريسول، التي عادت إلى الموقد وكانت تُمعن النظر في المقلاة.

إنكِ تجتازينها، قالت، من دون أن ترفع بصرها.

لكن كيف؟ سألت ليلا.

إنكِ تمشين فقط وتجتازينها.

لا يُمكن أن يكون ذلك سهلاً للغاية، احتجت قائلة.

نحن جميعاً نستمع الآن إلى الحديث الدائر بينهما.

يُمكن أن يكون سهلاً، قالت ماريسول، إلّا أنها لا تزال لا تستدير كي تواجهنا. راقبتُ كتفيها وهما تصعدان وتنزلان.

إنكِ تجتازين، وبعدها تنزعين العلبة المعدنية الصغيرة المُعلّقة في عنقك. لا أحد يبعث أولاده إلى داخل البلاد أو يتعقب أيّ شخص آخر هنا وهناك. لا أحدَ يتعين عليه أن يزور الطبيب طوال الوقت. فقط إذا كنتِ ترغبين في ذلك. فقط إذا كنتِ مريضة.

مضيتُ في إحدى الإجازات عبر البحر في مرة من المرات، المرة الوحيدة التي وافق فيها طبيبي على تأشيرة الدخول العائدة لي. في حينها، كان الطفل هو آخر شيء يخطر ببالي. لم أكن لأبدأ حياةً جديدة، وسعيدة في نهاية القصة وأُصبح حبلى، وبعدها لا أعود إلى حياتي السابقة، كانت الفكرة مُضحكة. أخذتُ قطاراً تحت سطح الماء. في أحيان كثيرة جداً يأتي حارس هنا وهناك كي يُدقق تذاكر وأوراق ورُخص الجميع. بدا فتح علبتي المعدنية الصغيرة المُعلّقة في رقبتي شيئاً أليفاً للغاية. أكره أن يُنظَر إليّ من الأعلى إلى الأسفل. لقد فتشوني أصلاً قبل أن تصدر أوراقي، رِجلاي في الرِكابين[1]، طبيبي القديم يمسّ بهدوء عنق الرحم العائد لي.

نمتُ طوال رحلة القطار، رأسي يستند إلى الزجاج غير الشفاف للنافذة. في الخارج، الأرض حمراء، كما لو أننا بزغنا في كوكب آخر. كان الجو حارّاً هناك، أكثر حرارة مما هو عليه في بلادنا. رأيتُ زواحف شديدة الصغر ذوات أسنان حادة في الأرض السبخة وفي الشواطئ. في الليل، الفراشات تلتصق بالمصابيح كلّها، بعضها ذات أجسام كبيرة بحجم إبهامي. احتسيتُ مشروبات زُرقاً رخيصة على الشاطئ ومشروبات كحولية نقية ورخيصة في حجرتي بالفندق، كنتُ أسكبها في الكأس التي من المفترض أن تبقى فرشاة أسناني فيها.

1- الرّكابان stirrups: الرِكاب هو رباط طوقي يُحيط القدمين أو الساقين. في النص أعلاه، طبيب الأمراض النسائية والتوليد يفحص أعضاءها التناسلية، بعد أن تُطوّق ساقاها بالرِكابين-م.

ما من امرأة كانت تلبس العلبة المعدنية الصغيرة وتعلّقها في عنقها هناك. تحدّث إليّ الناس بفضول، وسألوني ما إذا كان بوسعهم أن ينظروا في داخل علبتي المعدنية الصغيرة، وحتى إنهم سألوني ما إذا كان في وسعهم أن يُخرجوا تذكرتي من العلبة كي يروا من أيّ مادة صُنعت، إلّا أنني اجتذبتُ الحبل. كانوا يُريدون أن يعرفوا طبيعة شعوري حيال ذلك وقلتُ إنه شعور رائع، كنتُ سعيدة للغاية في حقيقة الأمر، ذلك أنه غالباً ما يكون الخيار ليس جميلاً أو ضرورياً بل مُحيّراً، وأني عشتُ حياةً كريمة من دون أن أفكر «ماذا لو، ماذا لو». في بعض الأحيان حين أكون ثملة بنحو استثنائي أنزع العلبة المعدنية الصغيرة من رقبتي وأسمح للناس أن يمرروها، كلّ واحد منهم يُمررها إلى الآخر. فتاةٌ صغيرة أصبحت مولعة بها، أبواها استعملا آلة تصوير للاستعمال الواحد كي يأخذوا لها صورة فوتوغرافية وهي تلبسها. تلك الصورة الفوتوغرافية ربما لا تزال موجودة في مكانٍ ما من العالَم. الدقائق التي لا تكون فيها من حول رقبتي جعلتني أحس بأني حرّة وعارية. كان الجميع لطيفين للغاية معي. في مقدوري أن أستعيد الطفل هناك، ربما.

هذه الفكرة جعلتني مُستثارة. روّجتها للآخرين كي يؤيدوها. سوف يكون باستطاعتنا أن نمضي إلى أيّ مكان لو شئنا ذلك.

وقت الفطور، قالت ماريسول، يجلب إلينا رواسبنا الطينية. لنكن هادئات في الوقت الحاضر. سيكون هذا في المستقبل أيضاً. البقاء هو بلادٌ أخرى أيضاً، وعلينا أن نصنعه هناك أولاً.

الفصل الخامس عشر

في الليل وفي ساعات الصباح المبكرة بدأتُ أرى أشياء غريبة. أحلاماً تجعلني أفيق من النوم، وأشعة ضوء. كانت الظلال في زوايا حجراتنا تتحرك وتنحت نفسها من جديد. سحبتُ السكين خلال الظلام كما لو أنه يُمكن الإمساك بشيء ما على النصل. أيّ شيء يحصل لليلا يحصل لي أيضاً. إنه نوعٌ من العدوى، حمى خفيفة. لم يكن في مقدورنا أن نجزم أنه شيء طبيعي، شيءٌ مُتوَقّع. ما هي الأمراض أو الحالات الأخرى التي تجعل براعمنا الذوقية تتغيّر، تدفع قلوبنا على رئاتنا، تجعل أمزجتنا تتأرجح بنحو مُتطرف؟ وجدتُ أني لم أعد أرغب بمعرفة تفاصيل ما يجري في داخلي، حتى لو كان ذلك مُمكناً. إنه شيءٌ ساحق للغاية أن أفكر بالبروز خارج نفسي بنحو مُفاجئ، أن أكون امرأة ذات دم جديد ومُتحوِّلة. ولمّا خفضتُ بصري ناظرةً إلى جسدي، شُبه توقعتُ رؤية الريش، الحراشف.

لم أكن أعرف ما إذا كان الحمل هو نوعاً من الجرح، ماذا يعتبره الجسم: هل هو حالة من النعمة، حالة من الخطر، أم كليهما. لما لمستُ إبطي بأصبعي خرج صقيلاً من جراء العَرَق. انبعثت الحرارة مني كما لو كنتُ نجمةً في سماء داكنة.

عودي إلى الفراش، قالت ماريسول. إنكِ تحتاجين إلى مراقبة هذه التصرّفات. كان صوتها وديعاً غير أنها أمسكت بي بذراعيها مسكةً أشبه بمَسْكة مِلزمة[1] لذا لم يكن بوسعي أن أستدير إلى ما حسبتُ أنه موجود هناك. أنا قلقة بشأنكِ، قالت لي.

1- ملزمة vice: آلة يستعملها النجار لكبس قطعتين من الخشب بالغراء. تُسمى باللهجة العراقية الدارجة (فخّة)-م.

لستُ قلقة بشأني، أجبتُها، وأنا أحس أني قوية ونظيفة وجاهزة.

إنكِ تنزلقين بعيداً عنا.

لا، قلتُ. أنا هنا أكثر من أيّ وقت مضى. أنا حامل لا غير.

لم أعد خائفة من التلفظ بالكلمات، في الأغلب. «حامل»، قلتُ لنفسي كما لو أنه نوعٌ من التحدّي. «أُمّ. أُمّ. أمّ».

انتبهي إلى نفسكِ، قالت ماريسول. هذا هو كلّ ما أقوله.

انتظرتُ إلى أن انقلبت على جنبها وعادت إلى النوم. ظللتُ مستيقظة. السكين لم تكن في يدي إلّا أنها مُلقاة على الأرض، حيث كان باستطاعتي أن أمدّ يدي إليها بسهولة لو كنتُ أحتاج إلى ذلك. أطراف الأصابع تمس المقبض، النصل مسّاً خفيفاً.

طوال الليل تخيّلتُ طفلي. مستدير الشكل، ناعماً كالخوخ. كيف أنه حتى أسوأ صرخاته هي أشبه بعزف نغمة موسيقية أحتفظ بها في داخلي أيضاً. والسكين على الأرض، كي تحميه. يداي، يدا الراحة، قادرتان على تمزيق الأعداء إرباً إرباً. كانت هنالك وحشية في الطريقة التي صرختُ فيها على الأطفال من قبل، في المدينة، الطريقة التي كنتُ أُريد أن أهرب بها ويكونون هم في ذراعيّ. والآن هذا الحافز، أن أُبقيهم آمنين مهما كلّف الثمن: لا يوجد شيء لطيف فيما يتصل بذلك الدافع. الآن أنا هناك، تقريباً هناك، أستوعبه، فكرة الرقة بدت مُضحكة.

الفصل السادس عشر

بدأت ماريسول تُعطي دورات تعليمية للنساء الأُخريات. ربما تسمحن لي أيضاً أن أقدّم لكُنّ المساعدة، قالت. ويا لدهشتي كلّهن قلن نعم، حتى ڤاليري. أما أنا فقد رفضتُ، بطبيعة الحال. ما الذي تفكرين فيه، قلتُ لها، وردت عليّ قائلةً، إني أفكر بالخير الذي بوسعي أن أفعله، في أثناء وجودنا هنا. إني أفكر في مسألة ماذا يعني لنا أن نكون وحيدات وخائفات وكيف إذا كان في مقدورنا أن نتكلّم فقط، إذا كان في مقدورنا أن نفك أنفسنا، فربما يعود علينا ذلك بالفائدة.

ماريسول في غرفة خضراء كالنعناع، تقيس وزن إحدى النساء، تثبت الوزن المقابل وتقرأ النتائج بصوت مرتفع لشريط التسجيل. ماريسول تُلاحظ، كما لو أن الدماغ يُمكن وضعه في راحة المرء ويُقرأ كالكتاب. ماريسول تُجري مكالمات هاتفية، بأناقة وبأقل ما يُمكن من الهرج والمرج، مع السلطات الضرورية. في أثناء هذا الوقت كلّه، التذكرة الزرقاء حول رقبتها؛ عارفةً بأنّ تلك التذكرة لم تكن الشيء الذي تُريده، لا بد أنها كانت قادرةً على إدراك حقيقة نفسها من البداية، إلا إنه حتى الأطباء كانت لديهم بقعة محجوبة هناك. تساءلتُ مع نفسي كيف كانت تحس فيما يتعلّق بسيطرة العقل على الجسم، فيما يتعلّق بمسألة كيف يستطيع الاثنان أن يعملا معاً. مع أنها لم تكن مرتبطة بعلاقة غرامية مع شخص ما – كان ذلك هو سبب سقوطها، وثمة راحة في تلك الفكرة، كيف لا يُمكن أن تكون هنالك راحة؟

فكرتُ في ذلك أكثر فأكثر. وفكرت في أشياء أبكر أيضاً. أحد أصدقاء أبي في مدخل باب غرفتي، ذو صورة ظلّية، فيما أنا أتظاهر بالنوم. أولئك

الصبيان على الطريق. كيف سبحتُ في مهاد الأوراق الميتة والتراب. كيف جعلتُ الأشياء التي كنتُ خائفة منها أشيائي. كيف لو أن باستطاعتكَ أن تفعل ذلك، لن تستطيع أن تؤذيكَ كثيراً. أُلفة يدَي شخص ما قريبة من وجهكِ. الدم على فخذيّ وأنا أُسائل نفسي «أيّ نوع من البشر أعتقدُ نفسي». الأشياء التي لم أشأ أن أتحدّث عنها مع الطبيب أ. الأشياء التي أحسستُ بها ربما تؤكد له مَن أنا، ربما أُعطي اسماً وسبباً لشرّي.

ثقل الهواء ضغط للأسفل عليّ، ومع ذلك كنتُ أطفو. انتظرتُ النساء أن يعُدن إليّ. هناك في الخارج، في الغابة، كن يؤدين اعترافاتهن. انتظار أن تُبرّأ ساحتهن، هي الطريقة الممكنة الوحيدة. جلستُ وسط الأعشاب الضارة في الحديقة أو أستلقي على الفراش الذي تقاسمته مع ماريسول وسمحت لنفسي أن أخلد للنوم، وأن أستيقظ فجأةً. كلّما أستيقظ من النوم أبقى هناك جامدةً بلا حراك على مدى دقائق قليلة، أستمع إلى أيّ شيء من شأنه أن يُشير إلى اقتراب عدو ما، إلّا أن كلّ ما أستطيع أن أسمعه هو صفير الأوراق النباتية، وصراخ الطيور فوقي.

الفصل السابع عشر

كنتُ قلقة طوال الوقت، الحمى منخفضة المستوى. استيقظتُ في وقت مُبكر للغاية صباحَ يومٍ ما ومضيتُ كي أمشي في الغابة، غير أنّ ڤاليري كانت قد استيقظت أيضاً، وهي جالسة بمفردها خارجاً في العشب. سآتي بصحبتكِ، ينبغي لنا ألا نذهب وحدنا، قالت لي، قبل أن أتمكن من اختلاق عُذر. المطر يُطقطق على العشب والأوراق النباتية، مُبللاً شعر رأسينا، إلّا أن أيّ واحدة منا لم تتذمر.

فيما كنا نمشي تساءلت عن الطفل وما إذا كان الطفل يحسّ أو يرى، أيّ أحلام غريبة تلك التي تتحرّك عبر عقله، وما إذا كان على غرار أولئك الأطفال الذين اختبرتهم، الأطفال الذين تم إضعافهم وتنقيتهم من خلال دمي. الأشجار التي تحفّ بي ظلّت تتنقل بين الجمال والخُبث في الضوء الرمادي للصباح الباكر. غمغمت ڤاليري بلحن صغير. من الغريب أن أختلي بها. تقوّس عنقها. جلدها، حتى تحت الكدمات، كان ناعماً للغاية. لم تكن تبدو مختلفة جداً عني. ربما في مقدورنا أن نُبادل نفسينا، أن نمضي ماشيتين خارج الغابة مع الحياتين اللتين نُريدهما. حدود لحمنا بدت قابلة للنفاذ. شققتُ طريقي عبر الأغصان. الشمس طالعة؛ بمستطاعي أن أشعر بالانفجارات الصغيرة الأولى بالحرارة على وجهي. أدركتُ أنّ الوقت قد تجاوز منتصف الصيف، وأني كنتُ أنضج، أمضي نحو الكمال أو التفسخ. الطفل يتحرّك، توقفت عن المشي، ورحتُ أربّت على بطني، مجرّبةً أن أُهدئه.

هل باستطاعتي أن أتحسسه؟ سألت ڤاليري، وهي تُشير إلى بطني، ورفعتُ قميصي القطني لها. وَضَعت يداً واحدة على جلدي. آ، هذا شيء

مروّع، قالت، وهي تشرع في الضحك، الأمر الذي جعلني أبدأ بالقهقهة أنا أيضاً. فجأةً بدا أنّ أكثر الأشياء تسليةً في العالَم، هي أن يكون شيء حيّ في داخلي. وهو شيء مروِّع أيضاً. كان وجهها ناعماً.

لا أفهم لماذا تُريدين أن تجعليه يُختطف بهذه الطريقة. أن تُقبلي على خطرٍ من هذا النوع. كنت سعيدة الحظ في ألا تُقطفي، كما تعرفين.

لا أحس أني سعيدة الحظ، قلتُ لها.

أنتِ سعيدة الحظ بلا ريب، قالت. سحبت يدها من بطني.

هل تفعلين هذا ثانيةً؟ سألتُها. ضرب قلبي بعنف، كما لو أنني فعلاً لا أُريد أن أسمع الجواب، لكنني أريد فعلاً أن أسمعها تقول ذلك، أردتُ أن تقول الشيء الذي لا يُمكن وصفه، أردتُه أن يملأ الغابة، الفراغ الذي بيننا.

نعم، قالت. لن أتردد.

لا يتعين عليكِ أن تنجبي طفلاً، قلتُ لها. النساء ذوات التذكرة البيضاء موجودات على كوكب آخر فيما نحن نمر إحدانا بالأخرى في الشارع، حتى ونحن نحدّق كلّ واحدة منا في عينَي الأخرى، وتتلامس أيدينا في البارات أو المقاهي.

نعم لا يتعين عليّ، قالت لي. الجميع يتوقّعون هذا. الأطباء. الزوج. لا أُريد أيّ طفل من هؤلاء الأطفال. بالأحرى أفضّل أن أموت. إنه أسوأ شيء بوسعكِ أن تفعليه حيال نفسكِ.

شيءٌ ما فيكِ، قلتُ لها. أحسستُ بأنّ فمي جاف وصعب الانقياد، لم أعد أرغب بالنظر إليها. ثمة شيء فيكِ لا يوجد فيّ.

أنا لا أراه، قالت. رفعت يدها بغتةً، ضغطت براحة يدها على راحة يدي بقوة ناعمة. هل ترين ذلك؟

لا توجد شرارة بيننا نحن الاثنتين، لا يوجد اضطراب جوّي. لا توجد إشارة إلى النقص. بدت أشبه بالساحرة. بدت متعنتةً وناكرة للجميل. أن يتم اختياري باعتباري امرأة بتذكرة بيضاء وألا أفهم ذلك، ولا أقدّر ذلك. أشحتُ بصري عنها. أنا عائدة، قلتُ لها.

توقعتُ أن تكون النساء الأُخريات لا يزلن نائمات، لكنني لمّا اقتربتُ من المقصورة شاهدتُ شكلين بشريين في الخارج. كانا يُخفضان أبصارهما ناظرين إلى شيء ما. حيوان، نوع من الخضار، معدن. راجعتُ الخيارات. قُتل العدو. شيءٌ ما أتى إلينا أخيراً. إحداهما أو كلتاهما كان يصرخ، جلبة خفيفة. أنا و ڤاليري كلّ واحدة منا نظرت إلى الأخرى، ترددنا، قبل أن نقترب أكثر.

لحم لدن، عشب رطب. شاهدتُ الشكل البشري يضطجع على الأرض وهويتُ على ركبتيّ. أدركتُ، ببطء شديد، أنها تيريزا.

هذا حلم، قال صوت ليلا بجانبي. هذا أحد الأحلام التي رأيتُها في منامي.

هذا ليس حلماً، قالت ماريسول، من الجانب الآخر.

بطنها للأسفل على الأرض وذراعاها مندفعتان خارجاً كما لو أنها تسبح، شعرها الطويل يجعلها مجهولة، مُتناثرٌ على الأرض. من حولنا، الطيور كلّها كانت تغني كما لو أن ذلك بمنزلة إخطار. إنها تعي العالَم.

الفصل الثامن عشر

أول شيء، أسوأ شيء، هو أن نناقش مسألة ما إذا كان باستطاعتنا أن نُنقذ الطفل. أن نقلبها ونضع أيدينا على بطنها ونتحسس باحثين عن الحركة، عن شيء لا يزال يسبح في دمها. كان من الصعب أن نجزم. واحدة من النساء أحضرت سكيناً من المقصورة وتخيّلتُ أنفسنا ونحن نفصل الطفل، نحمله من كاحليه، نحرّك الهواء في داخل رئتيه. رفعت ماريسول أيدينا من جلد تيريزا، برفق، واحدة بعد الأخرى.

على مهل، جمعنا أجزاء الدليل. حجرٌ كبير الحجم، حاد وملطّخ بدمها. الحفرة في الطين حيث انزلقت قدماها، الأرض رخوة بفعل المطر. جلست ليلا على الأرض، ووضعت ذراعيها حول رِجليها ونظرت إلى الجثة.

ماذا جرى؟ سألت ماريسول، وهي تجلس القرفصاء بجوارها.

استيقظتُ هنا، قالت ليلا. لا أعرف كيف وصلتُ إلى الخارج. لا بد أني سمعتُ شيئاً ما، ومن ثم وعيتُ عليها وهي في هذه الحال، ساقطة على الأرض. أسنانها تصطكّ، وعيناها تدوران. كانتا تركزان عليّ وتعيّن عليّ أن أشيح نظراتي عنها.

آيا إلهي، قالت، وهي تنظر ثانيةً إلى الجثة. وضعت رأسها بين يديها.

أخذت ماريسول التراب الكائن بجوار ليلا، حيث كانت السكين من طقم النجاة العائد لها مهجورة في الطين. مجرّد حادث طارئ، قالت بثبات. مضت مباشرةً إلى ليلا، وضعت يداً تحت ذقنها ورفعت وجهها إلى الأعلى كي يكون بوسعها أن تُحدّق في عينيها. إنه حادث طارئ، كررت قائلة.

أومأت ليلا برأسها، كما لو أنها في حالة نشوة.

أمضينا بقية النهار نحفر قبراً. نظفنا الدم من على أيدينا ورُكبنا، وغطينا تيريزا ببطانيتها. قدما تيريزا برزتا من تحت البطانية، إلّا أننا لمّا عدّلنا البطانية تكشّفَ جزءٌ آخر بدلاً منه. وفي النهاية تركنا البطانية على حالها، أن نرى أصابع قدميْ تيريزا أفضل من أن نرى وجهها.

ليلا لم تنبس ببنت شفة. جرفت التربة كما لو أن ذلك هو ما وُلدت كي تفعله، كما لو أن هذا هو مجرد قبر آخر يُضاف إلى مئة قبر كانت قد حفرتها. لم يكن بوسعنا أن نجعله عميقاً جداً. وفيما يتعلّق بمسألة حمل الجثة إلى الخارج، لم تكن هنالك طريقةٌ مُبجلة للقيام بذلك. ڤاليري، بوصفها المرأة غير الحامل الوحيدة، تحمّلت الجزء الأكبر من العبء، رفعتها من تحت إبطيها. ماريسول وأنا أخذنا الرِجلين. ليلا أسندت الجذع، البطن المنتفخ. ولمّا وصلنا إلى القبر، كانت ڤاليري هي التي أدخلتها فيه، وهي تنز عرقاً، تدفع، وتسحب.

بدا دفنها شيئاً غريباً ومُخزياً. أردتُ أن أدع تيريزا تطفو عبر الجدول. أردتُ أن أضرم النار فيها. ماريسول قالت كلمات قلائل.

فيما يتصل بتيريزا. التي كانت صديقتنا. نحن متأسفون على ما جرى. عَرِفت هي ما الذي ألمّ بها، مثلما عرفنا نحن جميعاً ما الذي ألمّ بنا. إذاً بينما لم يكن بوسعها أن تتنبأ بهذا، نحن نعرف أنه كان يجب عليها أن تفهمه.

أطلقت ليلا لهاثاً صغيراً، مُختنقاً، ودست يديها في فمها كي تُكبِته. أحنيتُ رأسي. كلّ واحدة منا رمت حفنةً من التراب على الجثة التي كانت مُغطاة جزئياً، بالطريقة التي رأيناها في الأفلام السينمائية.

ربما أنا لستُ مثلكِ على أية حال، قالت ڤاليري فيما بعد، لمّا أصبحنا في الداخل وغسلنا التراب العالق بنا بأفضل صورة ممكنة. بدت مُشمئزة. ربما أنا لا أشبهكِ في أيّ شيء، والاختلاف الذي يتكلّمون عنه موجود على كلّ حال. أنا لا أرتكب أخطاءً كهذه مع حريتي، كنتُ فعلاً غير مبالية، متهورة جداً. لن أكون في ذلك الأسلوب.

اجتمعنا معاً، نحن النساء بالتذاكر الزُرق. حسناً، قلنا لها. آمني بما تشائين.

هل تعرفين أنه، حتى في الوقت الحاضر، طفلكِ يُسيطر على جهاز الدوران العائد لك؟ يُسيطر على دماغكِ، على هورموناتكِ؟

أنا وليلا هززنا رأسينا. لم نكن نعرف هذا الشيء. نظرتُ إلى ماريسول، متمنيةً رؤية إشارة ما، إلّا أنها لم تُعطِ أيّ علامة في كلتا الحالتين.

طفلكِ يُحوِّل إمداد الدم العائد لكِ، قالت ڤاليري. جسمكِ في حالة خطر إلّا أن الطفل يجعلكِ تتجاهلين هذا الأمر. الطفل يُريد أن ينجو مهما كلّف الأمر، الطفل لا يأبه بكِ. إنه شيء مُثير للاشمئزاز. إنكِ تحسبين أنّ بحوزتكِ وكالة، غير أنّ الأمر كلّه مجرد علم الأحياء.

ألا تعتقدين أنكِ ميلودرامية بعض الشيء؟ سألت ماريسول، وفي صوتها سمعتُ صدى الطبيب أ.

لهذا السبب تشعرين كما لو أنكِ مُسيطرٌ عليكِ، قالت ڤاليري، وهي تتجاهل سؤالها. ولهذا السبب تُريدين أن تدسي التراب في فمكِ أو تلعقي الملح أو تستهلكي اللحم النيء. هذه هي طريقة الطفل في أن يُخبركِ ما هو الشيء المفقود، في أن يُخبركِ بما يحتاج إليه.

تنهدت ماريسول. لا تسمحي لها أن تُزرع فيكِ الخوف، قالت.

ماذا بعدُ؟ سألتُ على أية حال.

الطفل يُغيّر كلّ جزء من أجزائك، قالت ڤاليري. هنالك نساء أطفالهن يجعلونهن كئيبات أشد الكآبة. ثمة نساء لن يكن كما عليه في ماضيات الأيام. نساء يمتن وهن يدفعن الطفل إلى الخارج. الطفل يُمزق عضلاتكِ ويكسر عظامكِ.

هزّت ماريسول رأسها. الأمر ليس على هذا النحو على الإطلاق، قالت. كانت تهمّ بأن تقول المزيد، بعدها توقفت، هبّت واقفة وغادرت الحجرة.

لا أعرف لماذا تُريدين أن تفعلي هذا. لا أعرف لماذا أقلعتِ عن هذا كلّه، استطردت ڤاليري. كلّ ما أُريده هو الحرية، كلّ ما أُريده هو أن أعرف أنّ حياتي لا تتحرك نحو هذا الطريق المسدود، إلّا أني عرفتُ أنها كذلك، منذ أن كنتُ في سن الثانية عشرة. عرفتُ شكل حياتي قبل أن أفهم ماذا كانت تعني حتى.

هبّت واقفةً على قدميها، ضمت يديها في شكلِ قبضتين. أنا أكرهكِ بشكلٍ من الأشكال، قالت، وجهها مُشرق. أكرهكن جميعاً. إنكِ تعتقدين أن سرّ السعادة أو سرّ أيّ شيء يكمن في ما يُسمى بإنجازنا. إنكِ تعتقدين أنّ الأسرة ترتب كلّ شيء، وها أنا ذي أقول لكِ الآن إنها لا تفعل هذا، وأنا متأسفة لأن أحطمها لكِ، أنا متأسفة أنّ جسمكِ قام بعمل خطير جداً، قام بخدعة لعينة قذرة، وأنكِ لا تستطيعين أن تتراجعي. سوف تندمين على ذلك في كلّ يوم من أيام حياتكِ.

في الصباح كانت قد ذهبت. أخذت معها بطانية، حقيبة نوم، وكيساً من المعكرونة، وعلبة من الصابون بهيئة مسحوق.

تخلّص جيد، قالت ماريسول. بعد كلّ ما فعلناه من أجلها.

وهكذا عُدنا من جديد ثلاث نساء. أو ستة أشخاص، وفقاً للطريقة التي ننظرُ فيها إلى الأمر.

الفصل التاسع عشر

توقفت ليلا عن الكلام تماماً بعد ذلك. كانت تقضي معظم وقتها في الخيمة أو في الأسفل عند الجدول. راقبناها أنا وماريسول خلسةً من مسافة كي نتأكد من أنها لن تُغرِق نفسها. تعقبنا شكلها البشري غير الواضح حين كانت راقدة على العشب، ثيابها مثنية للأعلى كي يستطيع أن يصل نور الشمس إلى جسمها. دخلت في الجدول إلّا أنه لم يكن عميقاً بما يكفي كي يُحدِث أيّ ضرر.

لا بد أنها كانت تمشي في نومها، قالت ماريسول، عيناها تدرّبتا عليها. لعلها ظنت أنّ تيريزا شرطية سرية، في الظلام، في نومها، وكانت تُطاردها. ليلا المسكينة. لا بد أنها ظنّت أنها عدوة. إلّا أنها كانت على خطأ.

لكن كيف تكون خاطئة، تساءلتُ بصمت مع نفسي. على العموم.

فكرتُ في كلمات وداع ڤاليري، وفي ما يُمكن أن يحصل لجسدي من أشياء لم أكن قد خططتُ لها بالضرورة. إلّا أنها في حينها حصلت أشياء كثيرة لجسمي لم يسبق لي أن خططتُ لها.

خرجت جوقة الحيوانات وارتبكت ماريسول. مرحباً، كائناتي الجميلات، قالت لها. لكنها فرّت مذعورة لمّا اقتربت منها، كما لو أننا لم نعد جديرين بالثقة.

ابقي مستيقظة، قالت لي ماريسول في أثناء الليل. بقيتُ بمفردي.

لكنني لم أستطع؛ عيناي أصبحتا ثقيلتين حتى حين قرصتني بقوة كافية كي تُحدِث كدمات في أعلى وأسفل ذراعيّ.

ما الذي يفعلونه بنساء التذكرة الزرقاء اللائي يقبضون عليهن، سألتُ ماريسول. إنكِ، يقيناً، تعرفين؟

لا أعرف، قالت. إنهم لا يُخبروننا كلنا.

إنكِ تكذبين، قلتُ لها. انصرفتُ عنها ولم تُحاول هي أن تُهدئني، لم تطوّقني بذراعيها.

أنا لا أكذب، قالت لي. إن كنتِ تعرفين شيئاً واحداً عني في الوقت الحاضر فهو أني لستُ كاذبة.

كانت في منتهى الهدوء دوماً، وهذا الهدوء قتلني. في بعض الأحيان لا أُطيق أن أنظر إليها.

إنهم لا يسمحون لكِ أن تحتفظي بالطفل، على ما أعتقد، قلتُ لها.

لا، قالت. إنكِ تعتقدين بشكل صحيح.

هل سبق لكِ أن تعاملتِ مع امرأة بتذكرة بيضاء؟ هل سبق لكِ أن أنجبتِ طفلاً؟ سألتُها.

لا، قالت لي. لم يكن مسموحاً لي.

بوسعي أن أحس بعجزها، الإحباط الناجم عن معرفة شيء ما، إنما ليست معرفةً كافية. لم أكن قد تعوّدتُ على رؤية ذلك الشيء فيها، وسرعة تأثره ثبّط همّتي قليلاً.

لا بد أنهم رأوا ذلك فيكِ، خاطبتُها قائلة، راغبةً في أن أؤذيها. الضعف. عرفوا أنكَ لستِ النوع المناسب.

سمكة باردة، سمّتني في وقتها. لم أعد وحش الأرض السبخة. لم أعد ملكة النمل.

إنكِ تعرفين أنكِ لا تقدرين أن تمحي نفسكِ بعد الآن، قالت لي. لقد وُهبتِ ذلك الحق. خذي أقراص الفيتامينات العائدة لكِ. وضعت قرصين في راحت يدها ودستهما في فمي وابتلعتهما من دون ماء.

إلا إنني لم أُخبرها أني حين فكرتُ في الولادة كلّ ما رأيتُه هو نفق من ضوء أبيض لامع، ووراء أنقى انسداد لم يخطر لي على بال، أي بمعنى أنّ كلّ الأشياء التي صنعتني أنا نفسي سوف تسقط ومن ثم تعود معاً، يُحسب حسابها من جديد، مُزيفة في توقّد نوعٍ من الحب لم أفهمه حتى الآن.

أي بمعنى أني أحسب أني فكرتُ بأنّ ذلك سيكون أشبه بالاحتضار، إلّا أنه عديم الجدوى بنحو أقل. شيءٌ من شأنه أن يجعله جديراً به.

في مقدوري أن أسمع رد الطبيب أ في رأسي بكلّ معنى الكلمة كما لو أنه واقف في الغرفة. «هذا هو على وجه الدقة نوع الشيء الذي لا يُفكر فيه إلا المرء الذي ليس له أطفال».

غالباً لا أزال أرغب بأن أسأله ما إذا أن أعيش حياتي على الفطرة ليست هي الطريقة التي تعيّن عليّ أن أعيش بها حياتي برغم كل شيء. الركض، الاندفاع، نحو الإحساس الكئيب.

عادت إليّ ذكرى من الطريق. ليلةٌ ماطرة، مظلمة، وجرّبتُ أن أبني ملجأً صغيراً عند زاوية حقل ما بشيء من القماش المُشمع وجدتُه، إلّا أني كنتُ خائفة جداً ومبللة جداً بحيث لم يكن باستطاعتي النوم. سمعتُ مجموعة من الصبيان في وقت سابق يُصيحون أحدهم على الآخر فيما هم يسيرون، ولم أشأ أن أسترعي انتباههم. طوال ساعات الليل تطاير عليّ الطين والماء. كان القماش المشمع بالياً. سرقتُه من فتاة أخرى لمّا نامت، وبدا كما لو أن العار لن يُفارقني أبداً، ولم أكن أستحقه حتى، لأنه لم يفعل ما يُفترض به أن يفعله. أصابعي أضحت بيضاء اللون عند الأطراف. كلّ شيء تفوح منه رائحة التعفن، حتى أنا نفسي.

ومع ذلك. «كلّ شيء يُوصلني إليك»، فكرتُ ويداي على بطني، مع شيء ما أقرب إلى المفاجأة. «الأشياء كلّها، الجيدة والسيئة أو لا هذه ولا تلك، تُوصلني إليكَ طوال الوقت».

الفصل العشرون

المكان الآمن لم يعد آمناً؛ نحن هناك منذ زمن طويل جداً، أطلنا مكوثنا. كلمات ڤاليري ملأت السكون الجديد حيث اعتادت ثرثرة تيريزا أن تملأه. لم يكن بمقدوري سوى أن أمُعن النظر فيها لمّا أستيقظ في الصباح الباكر: تيريزا على الأرض والطين يُلطّخ ثيابها، ثياب الحمل التي كانت بمنزلة بديل مؤقت. وحتى الصوت المُريح للأوراق النباتية بات منحوساً. الأرض نفسها انقلبت علينا.

يتعين علينا أن نُذكّر أنفسنا بهدفنا، قالت ماريسول. لن يُنقذنا أحدٌ من الناس. يتعين علينا أن نُنقذ أنفسنا.

تركنا السيارة في المكان الذي أوقفناها فيه عند حافة الغابة، خالية من طعامنا، وبدلاً من ذلك مشينا مباشرةً من نقطة المقصورة، حين خيّم الظلام. كان من الغرابة أن نتحرّك من جديد. بطني كَبُر، وأحسستُ أنّ جسمي أضعف، كما لو أن عضلاتي نسيت كيف تُسيّرني. في الظلام أيّ شيء يُمكن أن يحصل من حولنا. كلّ واحدة منا تُساعد الأخرى لما كنا نعثر.

انبلج الصباح وبدأت تمطر. نصبنا خيامنا - أو بالأحرى صنعتُ خيمتي وماريسول فتحت سحّابها من دون أن أطلب منها ذلك، تسللت بطريقة ملتوية إلى جواري. كنا أكبر حجماً من أن نتكيّف بصورة مُريحة وتذمرتُ. وضعت ماريسول يدها على فمي. اسكتي، قالت، عيناها تشتعلان خارج وجهها، وسمحتُ لها. لاحقاً دهمنا النعاس وبدا كلّ واحدة منا على بطن الأخرى واستيقظتُ مُرتبكة، لا أعرف أيّ الجسمين هو جسمي، وأيّ طفل هو طفلي. كنتُ قد رأيتُ في نومي حلماً عن غرفة بيضاء وبيضة كبيرة على منضدة وأنا أكسرها وأفتحها.

دفعتُها وأيقظتها من نومها. اخرجي، خاطبتُها قائلةً، أُريدكِ أن تخرجي. ما الخطب؟ سألتني، غير أني لم أكن قادرة على أن أُبيّن، ثمة خوفٌ لزج يُسيطر على كياني كلّه. يداها ضاقتا على بطني إلى أن دفعتهما بالقوة. هنالك علامات حُمر ناجمة عن أظافرها التي كانت على جلدي.

لم تتحدّث أيّ واحدة منا فيما كنا نواصل المسير بعد غروب الشمس. كانت ليلا تنقل نظراتها مني إلى ماريسول من حينٍ إلى آخر، كما لو أنها كانت تُريد أن تطلب شيئاً ما، وبعدها أرسلت نظراتها إلى الأرض. استمر هطول المطر. الجلد الذي يعلو بطني يؤلمني ألماً شديداً من الموضع الذي ضُغِط عليه، مع أن العلامات الحُمر كانت قد تلاشت أصلاً، ولم يبقَ منها أيّ أثر.

في اليوم الثاني تركتني ماريسول وحدي. نمتُ والسكين في يدي، وأنا أغطس في وعيي وأخرج منه. ولمّا مددنا رأسينا خارجاً في الفجر الكاذب، وجدنا أن ليلا قد ذهبت. كانت قد أخذت الطعام كلّه. ركلتُ الأرض العارية في الموضع الذي نُصبت فيه خيمتها.

جميع النسوة يُغادرن، لاحظت ماريسول، ليس بطريقة كئيبة. كانت قد أخرجت لوحين من الحبوب، لوح لكلّ واحدة منا، كانت قد خبأتهما في حقيبة النوم العائدة لها. أكلناهما بصمت.

الفصل الحادي والعشرون

سرنا في أثناء الليل. ولمّا وصلنا إلى حافة الغابة، بعد الفجر، تعانقنا، وعلى مدى ثانية عاد كلّ شيء إلى وضعه القديم. ماريسول قلّما تكون مُتباهية، تمسني مساً عابراً في ذلك الحمّام الأول المظلم. ماريسول إزاء المصابيح المكسورة للعبة من ألعاب الصالات[1]، تمنحني الجرأة كي أقتلع أسناني من لثتي.

اختبأنا في الخندق الكائن في جانب الطريق. كان حيزاً عميقاً، كافياً لنا ولحاجياتنا. أنا قلِقة، مُتململة، شوكات ساخنة ناجمة عن التيار الكهربائي تجري على جلد بطني المنتفخ. كلّما تظهر سيارةٌ في البُعد ترفع ماريسول رأسها، وتنظر شزراً. لا، تقول، وهي تُخفض عنقها من جديد. ليست تلك السيارة. ليست تلك السيارة.

في الختام أتت سيارة صفراء صغيرة. كانت نظيفة ولوحة الرقم العائدة لها تُشير إلى بلدة في شمال البلاد. هذه هي السيارة، قالت ماريسول.

المرأة التي كانت تقود السيارة صاحت علينا ونحن نطلع أمامها، وجوهنا مُعفرة بالتراب، بطنانا بارزان، يدانا ممتدتان إلى الخارج كي نُخبرها توقفي، توقفي، توقفي. بدا مناسباً أن يكون الشيء الخطير. حرفت السيارة وخرجت

1- ألعاب الصالات Arcade Games: هي آلات تسلية تعمل باستخدام النقود المعدنية، وغالباً ما توضع في المراكز التجارية العامة مثل المطاعم والحانات وخاصة أمكنة الألعاب الإلكترونية. ومعظم ألعاب الصالات عبارة عن آلات ألعاب فيديو وآلات لألعاب الكرة والدبابيس وألعاب كهروميكانيكية وألعاب المكافأة وألعاب التجارة—م.

من الطريق تقريباً، إلّا أنها عدّلتها ثانيةً. مضت ماريسول إلى النافذة. صوّبت مسدسها على المرأة. انكمشت الأخيرة خوفاً وأغمضت عينيها.

خفضي هذه إلى الأسفل، قالت ماريسول، وهي تضرب النافذة بقوة بقفا يدها. إنه شيء لا يُصدّق أن يرى المرء قسوتها. تلك القسوة أرسلت كِسراً من الجليد عبر أنحاء جسمي، أحسستُ أني فخورة وخجولة في آن.

خفضت المرأة نافذة السيارة. ينبغي لكِ أن تصطحبينا إلى مكان ما، قالت ماريسول. افتحي الأبواب، بسرعة.

ضغطت المرأة على زر ما وأومأت لي ماريسول. ادخلي، ادخلي، قالت لي.

حملتُ حاجياتنا وفتحتُ باب السيارة. شكراً، قلتُ ببلاهة للمرأة. فتحت ماريسول باب الراكب وجلست بجانبها.

سوقي، قالت، وفعلت المرأة ما قيل لها.

فتحت ماريسول المذياع. أنا مُغرمة بهذه الأغنية، قالت. تمتمت بكلماتها. نظرتُ إلى مؤخرة رأسها. تساءلتُ كم عدد الماريسولات الساكنة في داخلها، وما إذا كان أيّ شيء لا تستطيع هي أن تنقله أو تعكسه. كانت المرأة تنظر أمامها مباشرةً إلى الطريق.

معذرة على ذلك، قالت ماريسول، السحر كلّه ثانيةً. نحن فقط بحاجة إلى مساعدتكِ. لقد تعرّفنا إلى أُم زميلة. كنا نعرف أنكِ سوف تقفين إلى جانبنا. كم عدد الأطفال لديكِ؟

طفل واحد، قالت المرأة، من دون أن تنظر إلينا. طفل واحد لا غير.

هذه هي أسرتكِ؟ قالت ماريسول، وهي تُشير إلى صورة فوتوغرافية محشورة في حاجب الشمس الذي يُسحب للأسفل في ناحيتها من الحاجب الزجاجي للسيارة. ثمة رجل أصلع والمرأة وفتاة صغيرة، وأذرعهم تطوّق بعضهم بعضاً. كانوا في ساحل في مكانٍ ما. الفتاة ترتدي بلوزة حمراء كبيرة جداً عليها. ماريسول أخذت الصورة الفوتوغرافية كي تتأملها عن كثب وبعدها مررتها إليّ. جفلت المرأة، إلّا أنها لم تقل أيّ شيء. تأملتُ أسنان الفتاة التي تتخللها الفجوات، وبسمة الرجل. أحسستُ بغيرة عميقة، قاتلة.

فتحت ماريسول صندوق القفازات في لوحة أجهزة القياس. راقبتُها وهي تفعل ذلك، راقبتُ مكائد أفكارها. أوراق المرأة. عنوانها، اسمها، تفاصيلها. راقبتُها وهي تستغرق في المعلومات، تضعها في ملف في مكانٍ ما. كانت المرأة ترتجف. كان باستطاعتي أن أستشعر ذلك في المكان الذي أجلسُ فيه، غير مرتاحة، في الخلف.

سوف تأخذيننا بالسيارة إلى المكان الذي نُريد الذهاب إليه، قالت ماريسول. لن تُخبري أيّ أحد أننا كنا في سيارتكِ. إذا ما فعلتِ هذا، سآتي إليكِ. سآتي إلى طفلتكِ مثلما أتيتِ إلى طفلي، مثلما أتيتِ إلى طفلها. هل تفهمين؟

نعم، قالت المرأة.

نحن نساء مستميتات، شرحت ماريسول. لم نكن دوماً على هذه الحال. بوسعكِ أن تفهمي ذلك.

ربما، قالت المرأة. التقت عيناها بعينيّ، مدةً وجيزة، في مرآة المنظر الخلفي.

أنا أُحبكِ، قالت ماريسول، وهي تمط رِجليها، وتُخرِج الخارطة من جيبها. دعيني أُريكِ أين تسوقين الآن.

الشاطئ

الفصل الأول

كان قد حلّ الظلام تقريباً في الوقت الذي أنزلتنا فيه من السيارة. وصلنا إلى خط الساحل، امتدادٌ طويل منه باهت ومسطح إزاء السماء. كانت هنالك بلدة صغيرة على طول حافته، الرمل يهبّ على طرقاته. أحسستُ أني أكثر أماناً في ستار الظلام. كانت معظم الحوانيت مُغلقة. في الضواحي وصلنا إلى مرأب، مصابيح النيون وردية وزرق، لا توجد سيارات عند المضخات. أردتُ أن أتذوق طعم البترول بلساني.

بصقت ماريسول في منديل ورقي ومسحت التراب من على جبيني، شدّت شعري للوراء بإحكام شديد بحيث إني جفلت. إنكِ تُريدين أن تبدي مقبولة، أليس كذلك؟ قالت بصرامة. انتظرت مع رُزمنا فيما مضيتُ إلى الداخل كي أشتري الحاجيات، وأنا أشعر أني نظيفة ووضاءة، على غرار داخل جمجمتي الذي كان فارغاً. كانت أفكاري جليّة كلّها ومرةً واحدة كانت نقية. كانت مركّزة على بطني. ربما القسوة مُناسبة للروح.

ليترٌ واحد من الحليب، أناناس في علبة تُفتح بسحب الحلقة. برتقالات شهية صغيرة للغاية في شبكة زرقاء. أرغفة من الخبز الأبيض اللين مقطعة بهيئة شرائح. قناني ماء، أرخص ما يملكون. اشتقتُ إلى البيرة، اشتقتُ إلى السجائر، لكن نظرياً فقط. أنا أعجوبة تمشي، وعلى قيد الحياة. رجلٌ بمريول خاكي مُلطّخ، ظلّ يعمل كلّ شيء على آلة تسجيل النقد في المتجر. أحسستُ كما لو أن في مقدوري أن أُحطمه بعينيّ، أكسر ذراعه إذا ما ارتاب في وجودي. كل شيء ممكن.

إذا ما احتجتُ إليك، هل ستفصلين طفلي عن جسمي؟ سألت ماريسول

فيما كنا نسير صوب البحر، نأكل الخبز من الكيس مباشرة. هل ستتأكدين من أنّ الطفل في أمان حتى إذا لم أكن كذلك؟

أجل، قلتُ لها، وأنا أفكر في تيريزا، عارفةً أني كنتُ سأفعل لو تعيّن عليّ ذلك، مع أن الدم جعلني أشعر بالغثيان، جعلني على الدوام أشعر بالغثيان، منذ أيام نشوئي.

سوف أفصل طفلكِ عنكِ، قالت ماريسول.

أعرف ذلك، قلت. ولهذا السبب لم أسألكِ.

في الكثبان الرملية نصبنا خيمة واحدة. من الأسهل أن نخبئها، قالت ماريسول، وتعين عليّ أن أوافق على أنّ خيمتي واضحة جداً للعيان، علمها الأحمر محشور عميقاً في حقيبة الظهر العائدة لي. كان القمر مُشعاً وكئيباً. جلستُ وجسمي في الداخل ورِجلاي في الخارج، مثنيتان، أراقب خط حنجرة ماريسول فيما كانت تقلبُ نصف ليتر الحليب لجهة السماء وتستهلكه. فمها وردي ورطب.

ذهبتُ في مسيرة راجلة بمفردي على طول الشاطئ، طالبةً من ماريسول أن تمكث في مكانها. نظراتها مصوّبة عليّ فيما كنتُ أشق طريقي عبر الكثبان الرملية، أكاد أسقط، ليس تماماً. أصبح شعري رخواً وتطاير على عينيّ، حُبيبات الرمل الخشنة على فمي وابتلعتُها، كأني أستقبل البحر. خارجاً على الخط الرمادي للبحر، كانت السماء كالخوخ تجتازها خطوطٌ من النور.

على طول خط الساحل، الرمل نديّ ومرصوص. لمّا خفضتُ بصري ناظرةً إلى قدميّ لم يكن بمقدوري أن أراهما وراء بطني، إلّا أنه كان بمقدوري رؤية طبعات قدميّ خلفي، كما لو أنها شيء مستقل، شبحٌ يقتفي أثري. شرعتُ أضحك على لا شيء، انحنيتُ إلى الأمام، يداي مبسوطتان على ركبتيّ. في جيوبي وضعتُ الطحلب البحري، صَدَفة، وقطعة من الخشب البالي الناعم كالعظم. وحين نظرتُ إلى الوراء كنتُ أبعد مما فطنت وأنّ ماريسول أصبحت ذرةً في الكثبان الرملية، بعيدةً جداً بحيث لم يكن باستطاعتي أن أرى أنها ترفع ذراعاً لي. الأفق ذهبي، والمكان الذي جلست فيه مظلم. كان باستطاعتي أن أدخل ماشيةً في البحر أو أن أواصل المشي

على ذلك الرمل لا غير، أمشي وأمشي متعقبةً خط الساحل حيث كان يسعى كالأفعى هنا وهناك، إلّا أنني بدلاً من ذلك بدأت بالرجوع. الرجوع مُمكن. جيوب سترتي مملوءة. كانت ترتطم بجسدي فيما أنا أمشي.

الفصل الثاني

بحلول الفجر، باتت الخيمة بلون اللبن بسبب التنفس، تفترشها قطعٌ من قشور البرتقال. حين استفاقت ماريسول، كانت عيناها منتفختين. قلبي، قالت، هل يبدو غريباً بالنسبة لك؟ أخذتُ نبضها ومن ثم ضغطتُ بيدي على الجانب الأيسر من صدرها. كان أسرع بعض الشيء مما ينبغي أن يكون عليه. أعرف كثيراً جداً عما يُمكن أن يحصل من مشاكل في الأبدان، قالت.

أكلنا مزيداً من البرتقال وشرائح الخبز المحفوظ في رزم، إلّا أننا بقينا جائعتين بعدها. كانت شهيتنا للطعام محتدمة، الطفلان يقولان لنا إنهما جاهزان تقريباً. نحن نتعفن، قالت ماريسول بنحو مشؤوم. حسناً، دعينا نذهب إلى البحر إذاً، أجبتُها، غير أنها هزت رأسها، وراحت تُعدّد المخاطر. تيارات المد المندفعة بعنف، أسماك (الطرخِين)[1]، قنديل البحر.

دفنا دليلنا، قشور الفاكهة والغلاف البلاستيكي للخبز المضغوط برخاوة في الرمل. كان البحر قد اقترب كثيراً منا. وفيما كنا نمشي على طول الشاطئ، بقينا قريبتين من الكثبان الرملية. خلعتُ سترتي. ضربت الشمس جلدي، دفأته.

ما الذي جرى لكِ؟ سألتُها.

لم ترد على سؤالي حالاً.

بعض الحيوانات تدفن أنفسها في الأرض حين تَلِد، قالت في النهاية. بعض الحيوانات تترك بيضاتها في الرمل. وبعضها الآخر تترك الطفل بمفرده كي يُعيل نفسه. أتعرفين أنّ الطفل البشري لا يستطيع أن يعتني بنفسه طوال الأعوام الخمسة الأولى من حياته؟

1- الطرخِين weever: سمك بحريّ صغير-م.

هذا زمن طويل، قلتُ لها.

هذا هو ما وقعتِ عليه، قالت. وباقي الأشياء كلّها.

سارت خلفي. أحسستُ بوخز في رقبتي. لا واحدة منا تحرّكت مشاعرها كي تلمس، كي تمسك بيد الأخرى.

بعض الأمهات يأكلن أولادهن الصغار، قالت. وأمهات أُخريات، الأمهات الحقيقيات، يستهلكهن أطفالهن الذين كانوا نتاجهن. العناكب تفعل هذا. إنهن يسمحن لذريتهن أن تحتشد بأعداد كبيرة. إنهن ينظرن إلى أنفسهن كما هنّ فعلاً، ألا وهو أنهن قوت. لحم.

سرنا مسافةً أطول على مدى برهة. لماذا يتعين عليكِ أن تكوني كئيبة إلى حدّ غير سوي، أردتُ أن أسألها. لماذا لا تستطيعين أن تكوني سعيدة كوننا وصلنا إلى هذا الموقع البعيد.

لمّا نصبنا الخيمة مرةً أخرى لم يكن باستطاعتي أن أخلد للنوم. كانت ماريسول تشخر شخيراً خفيفاً. كان شيئاً مُحبباً إلى القلب أن أُراقبها، على الرغم من كلّ شيء. أن أرى انثناء أصابع قدميها وهي تتحرّك (أيّ الأصابع) في أثناء أحلامها. إلّا أنني كنتُ متململة جداً كي أستقر، لذا زحفتُ إلى الخارج إلى حيث كانت حقيبة ظهري موضوعة بجانب حقيبة الظهر العائدة لها، وهو شيء مُتوقَّع. وجدتني ألتقطها، أرميها على كتفيّ. بدت ثقيلة أقل قليلاً مما كانت عليه من قبل، أو ربما تعوّدتُ فقط على الثقل. بدت الحركة مهمة، فجأة. قررتُ أن أمضي في مسيرة راجلة.

لم أكن قد ذهبتُ بعيداً جداً قبل أن أشعر بالارتخاء، بالخلع. في أسفل معدتي، ثمة شيء يسحب أو يُسحَب. حدّة تندفع بقوة وتتراجع، على غرار المدّ والجزر، وفي لحظة الوجع تلك يفتحني شيءٌ ما، يفتحني ويشقني. رِجلاي رطبتان. قالت لي ماريسول إنه لمّا يأتي الطفل، الماء الذي يسكن فيه يخرج أولاً. البحر الصغير الذي يسبح فيه الطفل. البحر الواسع ورائي. راقبتُ الرمل وهو يغدو رطباً من حول قدميّ.

حسناً، قلتُ، حسناً.

لم ألتفت للخلف.

الفصل الثالث

الرمل أفسح المجال لعددٍ من المنازل الصغيرة، المصبوغة بدهان أصفر. زهور وأصداف في الحدائق، المصاطب التي في مقدورك أن تجلس عليها وتستنشق هواء البحر. التذكرة البيضاء. النظر في الشبابيك شيءٌ لا يُقاوَم، النظر إلى الحياة التي وجدتُ أني غير جديرة بها. أن تحب، وأن تُحَب. هذا يجعل قلبي يضرب بسرعة، والمادة الصفراء تصعد إلى حنجرتي. أردتُ أن أنقل نفسي إلى مستقبل (ر)، إلى بيته، بيت التذكرة البيضاء وإلى طفله البدين في عربة الأطفال، وأدفع وجهي على نافذته الزجاجية، كي أؤذي نفسي بها. كان الألم مناسباً، أذهلني عن الألم الآخر الذي يتموّج عبر جسدي، بشكل دوري، يتعاظم جنباً إلى جنب مع خوفي. تذكرتُ المرأة في الفيلم السينمائي، فمها منبسط ومفتوح، الموسيقى الكلاسيكية تحجب الضوضاء التي تُحدِثها.

لم يكن هنالك شخص مستيقظ من نومه في المنزل الأول، المصابيح مُطفأة لمّا حاولتُ أن أنجز التفاصيل - الأثاث، الزخارف، لون الجدران. الشيء نفسه فعلتُه مع المنزل الثاني، الثالث. في المنزل الرابع فقط أصبحتُ ناجحة جداً. نافذة في الخلف ومصباح واحد مُضاء. إنه المطبخ، وفي داخله ثمة امرأة. ما من حاجة لرؤية علبتها المعدنية الصغيرة المُعلّقة في رقبتها. كانت تحمل طفلاً في ذراعيها، معرّضاً للخطر بوضوح من دون حماية عربة الأطفال. كان المَشهد قد حَبَس أنفاسي. هزّ الطفل يداً صغيرة تجاه وجهها، قبض على شفتها وجرّها إلى الأسفل. طبعت المرأة قبلةً على قمة رأس الطفل وفتحت الثلاجة الكهربائية، باحثةً عن شيء ما. ذرفتُ دموعاً قاسية قليلة، بصورة لا إرادية، كما لو أني تلقيتُ لكمة، وبعدها تمالكتُ نفسي.

كان من السهل أن أفتح القفل. ولما سمحت لنفسي بالدخول إلى البيت، تظاهرتُ على مدى ثانية أنه بيتي، وأني راجعة إلى ما كان بيتي شرعاً. انظري: الخشب الدافئ لألواح الأرضية، المنضدة التي يجلس عليها جهاز التليفون. تركتُ حقيبة ظهري بجانب رف المعاطف، وأجلستُها بصمت. كنتُ سأزخرف المكان بنحو مختلف، كنتُ سأزيل ورق الجدران وأطلي الأرضية بالدهان. كنتُ أستبد غضباً. هذا البيت كان ينبغي أن يكون ملكي. ماذا فعلتُ كي يُبعدوني؟ ما هو الخطأ الذي فيّ؟ إنه السؤال الذي تعوّدتُ أن أسأله طوال حياتي كلّها. توقفتُ، انحنيتُ إلى الأرض لمّا اجتاحني الألم من جديد، ألمٌ حار وغير مألوف. استنشقتُ، انتظرت، وقفت. مضيتُ صوب المطبخ. كانت المرأة قد أشاحت وجهها عني، تجلس وتضمّ الطفل إلى جسمها. وضعتُ يداً على فمها من ورائها، لففتُ ذراعي الأخرى حول خصرها، وتيبست هي إلّا أنها لم تكن قادرةً على أن تُعاركني، بما أنّ الطفل في ذراعيها. لو رآنا شخصٌ ما سنبدو كما لو أننا في عناق حميم.

لا تصرخي، لا تصرخي، همستُ لها، فمي عند أذنها. كان شعرها يعبق برائحة العسل والكتان الجديد. اهتزت تحت يديّ، وحاولت أن تمد جسمها كي ترى وبطني المنتفخ ضغط عليها أكثر. لا أريد أن أؤذيكِ، وعدتُها.

السكين لا تزال في يد الذراع التي تكبحها. انحنيتُ للأمام ووضعتُها على المنضدة، حيث يكون بوسعها أن تراها، وأحسست بأنها خائرة القوى.

لا أُريد أن أؤذيكِ، كررتُ قائلاً. إلّا أنني أُريدكِ أن تكوني هادئة. هل ستكونين هادئة؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب. انتظرتُ ثواني معدودات، ومن ثم جعلتُ يدي تنزل. هبت واقفة وفي الحال انتقلت إلى الجهة الأخرى من المنضدة. كانت بلوزتها مفتوحة. كان الطفل يتحرّك حركة ضئيلة عليها.

أرجوكِ لا تأخذي طفلي، قالت لي، صوتها منخفض وكئيب. أرجوكِ، سأُعطيكِ أيّ شيء، فقط لا تأخذي طفلي.

لا أُريد طفلكِ، قلتُ لها، وضغطتُ بيديّ على انتفاخ بطني كي تستطيع أن تراه كما ينبغي. أنا مثلكِ، خاطبتُها قائلة، مع أنه كان واضحاً أني لم أكن مثلها، ووضوح هذه المسألة ملأني بعارٍ جارح.

لماذا أنتِ هنا؟ سألت الأم. بدأ الطفل يقلق، مُستشعراً التوتر. يا حبيبي، يا جميلي، حدّثت الطفل، لغة حديثها الرقيقة كانت مجهولة تقريباً بالنسبة لي، ودفعتني للبكاء من جديد. مسحتُ دموعي بغضب، والتقطتُ السكين.

أُريد أن أعرف ماذا يتعين عليّ أن أفعل، قلتُ لها. شيءٌ ما يحدث لي.

كانت تنظر إلى الطفل، وليس إليّ. لا أعرف ماذا أقول لكِ، قالت. لا أعرف من أين أبدأ.

أرجوكِ، قلتُ لها. سهم جديد من الوجع. أغمضتُ عينيّ، تنفستُ من خلال أسناني، ولمّا فتحتُ عينيّ وجدتها تنظر إليّ، إلى الرقعة المبللة من فستاني، إلى صدري المهتز.

آه، قالت.

قعدتُ على كرسيّ وأشرتُ بالسكين لها كي تحذو حذوي، مع أنه كان بيتها. كانت جالسة في الطرف الآخر من المنضدة، بحزن.

باشري من البداية، قلتُ لها. باشري بالأشياء الأساسية.

كانت عيناها واسعتين. أنتِ في حالة مخاض، حدّثتني قائلة. الألم سوف يزداد سوءاً شيئاً فشيئاً. ومن ثم. تلعثمت.

ومن ثم ماذا؟ سألتُها. بسرعة، من فضلكِ.

حسناً، ومن ثم تدفعين الطفل إلى الخارج. أومأت بنحو مُبهم. الطفل سيخرج في حبل، ويتعين عليكِ أن تقصي الحبل، إنما ليس في وقت مبكر جداً. عليكِ أن تنتظري إلى أن تخرج المشيمة، وهي الشيء الأحمر في الحافة، لن تُخطئيها حين تخرج.

بدا كما لو أنها تتحدّث بلغة أخرى. بدأ الطفل يتحرّك على بلوزتها وأعرضت عني قليلاً فيما كانت تفعل شيئاً ما، أعطت الطفل مَدخلاً إلى جسمها. أدارت جسمها وأدركتُ أنّ الطفل كان مُتمسكاً بحلمة ثديها، فمه مُقفل على لحمها. فكرتُ في ثقل ثديَيّ، كانا صلبين وأزرقين حين خلعتُ فستاني، وأورثني هذا شعوراً جديداً مروِّعاً.

كانت عيناها مُظللتين تحت ضوء المصباح الذي فوق رأسينا.

سوف تراقبين الطفل في كلّ ثانية من ثواني اليوم. ستكونين مقتنعة أنه يحتضر. سوف تضمينه إلى جسمكِ. وفي بعض الأحيان تفكرين بأن تقتليه أنتِ بنفسكِ.

وضعتُ السكين جانباً.

لستِ امرأة ببطاقة بيضاء، قالت لي. لم يكن ذلك سؤالاً. لا أحسب أنكِ تفهمين فعلاً ما فعلتِه. ما نوع المشكلة التي تعانين منها.

بمقدوري أن أتغلّب على المشكلة، أجبتُها.

لا أعني الشرطة السريين، مع أنهم يقيناً سوف يجدونكِ، قالت. أعني المشكلة الأخرى، مشكلة الأمومة. المشكلة التي لن تُغادركِ.

لمست رأس طفلها برفق شديد. تعالي معي، قالت لي. دعينا نضعه في الفراش كي ينام.

تبعتُها فيما هي تصعد درجات السلّم، السكين في جيبي. همست في أُذن طفلها، اللغة الرقيقة ذاتها. معاً دخلنا الحجرة التي كانت مُضاءة بنور كهرماني خافت. قِفي في الزاوية، قالت لي، وقد تعاظمت شجاعتها. قِفي ويداكِ مرئيتان.

آثرتُ أن أثق بها. راحتا يديّ، المعروضتان بوضوح لها، كانتا صلبتين ولامعتين من جراء العَرَق. خط الحياة، خط القلب، خط الشمس. السحر القديم الآتي من الريف، الفتيات الأخريات يقبضن على يديّ في أيديهن، يتوقعن الأشياء.

بهذه الطريقة تضعين الطفل في الفراش، قالت لي. ببطء شديد وضعت الطفل على ظهره. لا تضعي الطفل على جنبه، قالت لي، بحماسة مُفاجئة. الطفل من المحتمل أن يُفارق الحياة إذا ما تُرِكَ على جنبه. هذا الشيء من الضروري أن تتذكريه. ما من أحد سيُخبركِ بهذا إلّا أنني أُخبركِ به الآن.

وضعَ الطفلُ إحدى قدميه في فمه؛ بصورة رياضية.

بهذه الطريقة تلفّين الطفل، قالت لي، وهي تسحب بطانية فوقه، كي تتأكد من أنّ ذراعيه طليقتان. بهذه الطريقة تتأكدين من أنّ الطفل لن يحس بدفء

شديد. الأطفال الصغار لا يستطيعون أن يتحكموا بدرجات حرارتهم. ليس بوسعهم أن يضبطوا عواطفهم. إنهم يعتمدون عليكِ كلياً. إنهم مُرعبون، وحتى باستطاعتي أن أعترف بذلك.

لَمَست رأس الطفل الأصلع ثانيةً وبعدها تَرَكت الظلال المُتحرّكة، الدائرة بسرعة، ترقص على الحائط.

ماذا لو أنكِ لم تُريديه؟ سألتُها، فيما كنتُ أراقب الطفل وهو يُحرر قدمه من البطانية ويلويها. ماذا لو أنكِ لم تستطيعي أن تفعلي؟

لقد أردتُه. لا أعرف عن أيّ امرأة أخرى. لا أُريد أن أعرف.

تلعثمتُ. أتعرفين ماذا يحدث لأمهات التذكرة الزرقاء اللائي قُبض عليهن؟

لا، قالت. كيف يتسنى لي أن أعرف؟

غادرنا حجرة الطفل وانتقلنا بهدوء إلى أخرى، حجرة نوم حيث كان زوجها نائماً. راقبتُه من فتحة الباب. لم يكن يُحدِث ضجة، ولم يكن حتى يتنفس. بدا ميتاً. تمنيتُ لو أنه في عِداد الأموات. تمنيتُ أن يكون هنالك شَرْخ في حياتهما السعيدة. فتحت المرأة خزانة الملابس العائدة لها ووجدت بعض الثياب، سلّمتني إياها باليد من دون أن تتفوّه بكلمة واحدة. رفعت إصبعاً إلى شفتيها. تقلّب الزوج في الفراش غير أنه لم يستيقظ من النوم.

لم أنم ليلةً كاملة على مدى شهور، حكت لي المرأة، في الردهة. أتحرّق شوقاً لأن أنام نوم الآباء.

ساعديني، طلبتُ منها. أرجوكِ ساعديني.

هزّت رأسها.

لا، لا، قالت لي. كتفاها ارتفعتا إلى أُذنيها. يتعين عليكِ فعلاً أن تذهبي الآن. عملتُ كثيراً جداً. أكثر مما تستحقين.

غادرتُ المنزل، وفي الخارج رفعتُ ما أعطتني إياه إلى ضوء مصباح الشارع. بطانية زرقاء، وفستان ذو أزهار وردية اللون. نظرتُ إلى الخلف

مرةً أخرى في اتجاه المنزل. في بركتها من الضوء الذهبي، الضوء المصون، شاهدتُها ترفع التليفون وتضغط على الأرقام واحداً بعد الآخر. تَطلّعَت إلى خارج الشباك ونَظَرت في عينيّ، ومن ثم انصرفت عني.

الوجع في كلّ مكان. بدأتُ أمشي، وبعدها بدأتُ أركض. بات الوضع أصعب حين وصلتُ إلى الرمل، إلّا أنني عرفتُ أنّ بمقدوري أن أفعل ذلك. لا يوجد خيارٌ آخر.

الفصل الرابع

أنا وحدي ثانية وبدا هذا مُناسباً. خطرت ببالي كلمة (التخلّي)، صورة وجه ماريسول حين اكتشفت أني رحلت، إلّا أنني لم أستطع أن أفكر فعلاً في المسألة، إذ كنتُ مشغولة مع الوجع، بالحركة إلى الأمام. شيءٌ ما بات على حين غرة واضحاً ومفهوماً. الشعور يقودني إلى مكان ما، على الشاطئ، يطوف حول حافة الكثبان الرملية، باحثاً عن الأمان.

فوقي، وراء اتجاه رؤيتي مباشرةً، يوجد سلّم، صندوق صغير من الضوء. تعوّدوا أن يسلخوا جلد الشهداء. قالت لي ذلك امرأةٌ في البار ذات ليلة، حين تعتعها السُكر ولمّا بدأ الكون يكشف الأشياء. دأبوا على القول إنّ التفوّق هو شيء أكثر من التفوق الجسدي. إذا كنتَ مُتمسكاً بجسدك لا يسعكَ أن تصل إلى أيّ نتيجة.

مَن هم الذين قالوا ذلك؟ سألتُها في حينها. مَن هم هؤلاء؟ وماذا يعرفون عن جسدي؟

وفي الحال، صباحٌ أزرق، السماء غسلها النور. أحسستُ بالبرد. خفضتُ بصري ناظرةً إلى بطني، وهو ذا، لا ريب فيه. تجمع الرمل حول قدميّ كالثلج.

لم تعد هنالك منازل، لم يعد هنالك أمهات وآباء. ثمة صوت مؤقت يعود لسيارة مُدوّية في طريق موازٍ، بعيد جداً.

فيما كنتُ أسير، تساءلتُ في سرّي عن ڤاليري المتكتمة وعينها السوداء. تساءلتُ في سرّي عن المرأة العجوز في السرير والفطور، والمرأة التي رأيتُها في حوض السباحة، مرتاحة البال لكونها لم تنجب الأطفال وهي الطريقة

التي في مقدوركِ أن تكوني فيها مرتاحة البال في أمومتكِ. كنّ جوقة، يسألنني، من أجل ماذا تُريدين ذلك؟

لا أعرف، قلتُ لهن. وصلتُ إلى هذا الشوط البعيد ولا أزال لا أعرف. إلّا أنني أعتقد أني أجد الطمأنينة في ذلك، على الرغم من كلّ شيء.

على قطعة كبيرة من الخشب المجروف جلستُ على مدى ثانية. صقلتُ أفكاري. نبات الأشنة وحيوانات البرنقيل[1] كانت تستوطن هذا الشيء الذي كان شجرةً على مدى سنوات طويلة. كان البحر قد استوعبها ومن ثم لفظها خارجاً، جدّدها. خطر في ذهني أنني لم أتأخر كثيراً جداً كي أدخل وأسبح برهةً ليس إلا.

رفس الطفل في داخلي. لا تكوني مروَّعة، إنه يقول لي. على كلّ حال، لقد أفنيتِ حياتكِ أصلاً. إن أردتِ أن تنظري إلى الأمر بتلك الطريقة.

كي نُمرّض الرغبة ونحوّلها إلى إكراه صريح هذا من شأنه أن يُقلل من إمكاناتها. وهذا لا يعني أني لم أحس بالإكراه قط. لكنني ربما تعلّمتُ الاختلاف، أخيراً، بين الإكراه وبين الاقتناع. بين شيء مُشرَّع باسم القنوط، وشيء مُشرَّع باسم الفضول. باسم الجمال. باسم نوع من الحب.

سمّي ذلك غريزة أمومية. سمّي ذلك تقبّل مؤقتية الأشياء كلّها. سمّي ذلك لطفاً، أخيراً، وان أكون واضحةً تجاه نفسي.

حسناً، قلتُ لطفلي. لجسدي. فقط جزءٌ آخر من الحوار الذي دار بيننا طوال حياتي كلّها. جسدي الذي هو ملكي، وينتمي إليّ، وكان ينتمي إليّ على الدوام.

طفلي، ينتظرني بصبر لا حدودَ له. إنه لا يعرف الشخص الذي كنتُه. الشخص الوحيد الذي بوسعي أن أكونه.

وقفتُ على قدميّ.

1- البرنقيل barnacle: حيوان بحري قشري يلتصق عادة بجوانب السفن وبالصخور والأسماك الكبيرة-م.

الفصل الخامس

هنالك فقط شوط بعيد جداً بوسعي المضي إليه. أبعاد جسمي وما يُمكن أن تفعله تضيق كي تغدو نقطةً حادة. ولجتُ الكثبان الرملية من جديد، وسحبتُ الخيمة الحمراء. ما من أحد يراها هنا. ما من خيار لو كان باستطاعتهم أن يروها.

لم يعد هنالك وضع مُناسب لجسمي، لا توجد طريقة مناسبة لأن أضعه في مكانه. في النهاية أصبحتُ على أطرافي الأربعة كلّها وسمحتُ لبطني أن يتدلّى إلى الأرض. أسندتُ وجهي إلى الرمل والتصق الأخير بخدّيّ النديين. سمحتُ لنفسي بأن أُثير الضجة التي لم يكن بوسعي أن أُثيرها بطريقة أخرى.

اعتصرني الألم، وحوّلني إلى كائن صغير جداً وضعيف. ومن ثم فتحني عند الأضلاع، الحوض، كما لو كنتُ أُفكّك على خشبة الجزار. وبعدها أضحى حصاناً يهرب مني فجأة. كان من المستحيل الإمساك به.

جسمٌ ليّن يتعلّم أن يكون صلباً في الطرقات الريفية. حصى؛ هواء رطب، أشبه بالبخار في منخريّ. جسمٌ من الإسفلت وحجرات الفندق وأحواض السباحة والحمّامات والعيادات الطبية، جسمٌ من جُزر ممزقة ومقطّعة وشهية وممارسة الجنس مع أشخاص محبوبين وغير محبوبين، جسمٌ يصفح عن كلّ شيء سيئ بوسعي أن أفعله بحقه. جسمٌ يذهب على الدوام إلى مكانٍ ما. يحملني إلى الأمام. جسمٌ لا يخذلني على الإطلاق، لم يخذلني حتى الآن.

فكرتُ في الحدود بوصفها خطاً واضحاً بين الحياة القديمة والجديدة. فكرت فيها (أيّ الحدود) باعتبارها علامةً مُضاءَة على الأرض. بوسعكَ

أن تقفز فوقها وتعود من جديد. بمستطاعك أن تكون في مكانين في الوقت نفسه.

حسناً، حدّثتُ نفسي. خلعتُ فستاني، ملابسي الداخلية، هذه كلّها دمرتني على أية حال. العَرَق جعل جسمي أملس. يداي ترتجفان. جثوتُ كما لو أنني أؤدي الصلاة، تشجعتُ. صعدتُ سلّم الألم، درجةً درجة، إلى أن قطعتُ شوطاً طويلاً فوق الأرض. إلى أن قطعتُ شوطاً طويلاً فوق نفسي.

في ذهني ثمة طريق أبيض مُشع ولا توجد هنالك سيارات مقتربة، واستلقيتُ عليه، ولم يكن حصى، إنه رخامٌ صقيل، وانتظرتُ كلّ ما من شأنه أن يجتاحني. انتظرتُ كلّ ما من شأنه أن يرفع معنوياتي من جديد.

أعطِ نفسكِ له، حدّثتُ نفسي، الطريقة التي حدّثتُ بها نفسي قبلاً في حياتي القديمة، المرة تلو المرة، بسبب كلّ قرار سيئ، بسبب كلّ شعور سيئ، ربما كنتُ أتدرّب طوال تلك الأعوام كلّها، ربما كنتُ أُهيئ نفسي من دون معرفة مني. «استسلمي».

عبر كلّ الأشياء رأيتُ الرغبة بشكل خافت في البُعد مثل طبقة رقيقة من المطر، وكانت لا نهائية، ومنعكسة بطرائق عديدة. كنتُ مندهشة ومُستثارة حيال الإمكانات التي تحملها. كيف تسنى لها أن تأتي بي إلى هنا.

ضغطٌ عميق. دفعتُ، ويبدو أنه لم يحصل شيء، غير أنّ حافز الدفع لم يتوقف ولا أنا توقفتُ، إنه الشيء الوحيد الذي يقدر عليه جسمي. أنفاسي مُرهَقة، تنشج. وضعتُ يدي بين رِجليّ ولمستُ شيئاً صلباً.

طفلة. غريبة ومفعمة بالحياة. خرجت بطريقة حارة، مُتدحرجة. قبضتُ عليها بيديّ. كانت زرقاء ومن ثم شرعت تصرخ – ضجةٌ مُصاحبة لضجتي أنا، أدركتُ، جزءان في الأوركسترا ذاتها، تعزفان من ورقة واحدة[1]. جسمي لا يزال يفعل الأشياء. كنتُ أنزف وبعدها رحتُ أدفع شيئاً آخر إلى الخارج.

1- المقصود هنا (ورقة الموسيقى) (بالإنجليزية Sheet Music): وهي كل مُدَوَّنَة للنغمات الموسيقية ورقية بخط اليد أو مطبوعة، باستعمال الكتابة الموسيقية الحديثة، والتي تترجم خصائص الأصوات الموسيقية، كالحدة (أو الدرجة الصوتية) والإيقاع والمدة والجرس، إلخ.-م.

شيء أشبه بالرئة على حبل، هزة الألم اللاحقة تُجهِد جسمي. «استسلمي».
الطفلة لا تزال تصرخ غير أنّ جلدها تغير من اللون الأرجواني إلى الأحمر. كائن بحري غريب. «استسلمي». لم أكن أعرف ما إذا كنت أحببتُها من الثانية الأولى، كنتُ خائفة جداً من اتخاذ تلك الأنواع من الأحكام التي تُقيّم بها الأشياء، إلّا أنني عرفتُ أني أُحبها حباً جماً، وهذا شيء أهم. «استسلمي».
حملتُ ابنتي. ضغطتُ جلدها على جلدي.

الفصل السادس

كانت الشمس في كبد السماء. راقبت كلّ واحدة منا الأخرى بشيء من الخوف، لكني أستطيع القول إني كنتُ خائفة أكثر منها حتى. أمسكتُ بيدها الصغيرة جداً بين إبهامي وسبابتي، بحذر شديد. راحة يدها أكبر قليلاً من بصمة الإصبع. كانت لا تزال رخامية من جراء الدهن والدم، لامعة، مثل شريحة لحم بقر فُتحت تواً من الورقة التي كانت ملفوفة بها. قليلٌ من الرمل ملتصق بالطفلة. الحقائق عادت إليّ: الماء في قنينتي البلاستيكية، فاتر. الحبل السرّي، الذي يجب أن يُقص، كما أخبرتني المرأة. لم تكن لديّ أدنى فكرة كيف يُمكن أن أفعل ذلك، إذ كنتُ خائفة من استعمال سكيني الوسخ، لذا في النهاية دسستُ الكيس الغريب، اللحمي في داخل البطانية إلى جانبها. تعوّدتُ بسرعة على الدم في الأمكنة كلّها.

نوڤا هو الاسم الذي اخترتُه في الغابة، الاسم الذي نهبتُه من النفايات، من الأشياء التي كُتبت واستُذكرت وأُدرِجت في قائمة. اخترته ولم أُخبر أحداً. السرّ انكشف. أخبرتُ ابنتي باسمها. نوڤا هو شيء متجعد، مُرقّش، مُريّش في الأعلى بشعر داكن. كانت غريبة بنحو لا يُصدّق. لم أكن أرغب بأن أكون منفصلةً عنها من جديد.

لمّا بدأت تبكي وضعتُها على صدري، مُقلّدةً ما رأيتُه. هيا، قلتُ لها. كُلي شيئاً ما. فمها فُتِح وغُلِق. كنتُ أعتقد أنها من المحتمل أن أخذت عضّات قليلة من لحمي، مُخلّفةً جروحاً صغيرة للغاية، وسأرحّب بهذا الشيء، سأخبرها بأن تأخذ كلّ ما تحتاج إليه. كنتُ بحاجة إلى أن أغتسل إلّا أنه لم تكن لديّ فكرة كيف من المفترض أن أفعل ذلك فيما أنا أحملها. في النهاية

سحبتُ فقط الفستان الذي أعطتني إياه المرأة فوق جسمي الملوّث بالدم، مُعتقدةً أنه أفضل من لا شيء.

نمنا نوماً متقطعاً. جسمي كلّه يؤلمني. لم أكن أعرف كيف يسعني أن أتخلّص من الألم. في بعض الأحيان أُخرج رأسي من الخيمة كي أقيس التقدّم من الضوء إلى الظلام وإلى الضوء ثانية. بيديّ وعينيّ استعرضتُ الضرر. كنتُ سعيدة الحظ، على ما يبدو، كي أفلت من الكوارث الجسدية التي حذّرتنا منها ڤاليري، مع أنه من المحتمل أنها لم تأتِ بعد، أو ربما عقلي كان رخواً في جمجمتي حتى حين فحصتُ نفسي، وفي القريب العاجل سوف ندخل البحر معاً. في الدقيقة التي فكرت في هذا الموضوع قلتُ لنفسي أن أتوقف، إلّا أن القيام بذلك جعل الأمر مستحيلاً. وكي أُلهي نفسي، راقبتُ نوڤا وهي نائمة، ومن ثم أنا نفسي نمت.

لمّا استيقظتُ من النوم، كان الضوء يترشح عبر قماش الكنفا، محوّلاً كلّ شيء إلى أحمر اللون. توهّج وجه نو ڤا. بقيتُ مُستلقية بلا حراك وأصغيتُ، أضمّ طفلتي إليّ بإحكام. شش، همستُ لها.

كانت هنالك حركة؛ شخصٌ ما مرّ بالخيمة، ومن ثم مرّ شخصٌ آخر. الأصوات هادئة جداً بحيث لا يُمكن اكتشاف ماذا كانا يقولان. سحّاب الخيمة بدأ يتحرّك إلى الأسفل. راقبتُه، مددتُ يدي إلى السكين.

وجه امرأة لم أكن أعرفها. كانت شاحبة وهادئة كالقمر. انتهى الأمر، قالت لي. اخرجي.

صرختُ بوجهها -كلّ غضبي، كلّ خوفي، مجموع كلّ شيء اختزنتُه على مدى الأيام والشهور والأعوام الفائتة- إلّا أنه لم يصدر منها أيّ رد فعل. طرفت عيناها طرفةً طويلة، هادئة. وبعدها سُحبتُ من الخيمة بواسطة أيد حاسمة، جسدي يعترض، فهو لا يزال يتألم. ذهب عقلي إلى السكين إلّا أنني في حالة الارتباك كنتُ أخشى أن أُؤذي نو ڤا، لذا جعلتُها (أيّ السكين) تسقط وركزت انتباهي على جعل يديّ كالكوبين من حولها بدلاً من ذلك. الطفلة أتت أصلاً؟ سمعتُ أحدهم يهتف. شخص ما يفحص الطفلة! امتدت يداي إلى نوڤا إلّا أنني صرختُ من جديد وانصرفوا عن جسمها

اللين، وعادوا إلى جسمي. صراخ نوڤا اتحد بصراخي، صفارة صوتها تجعل فؤادي يصطخب. رجال ونساء يلبسون ثياباً زرقاء داكنة. لم يتكلّموا معي، فقط اقتادونا نحن الاثنتين إلى الداخل عبر الكثبان الرملية إلى أن وصلنا إلى سياراتهم اللامعة التي كانت قد توقفت على الطريق ما وراء الساحل.

بجوار السيارات ثمة رجل بمعطف أبيض طويل. كان الطبيب أ. لوّح بيده من مسافة بعيدة. طاب صباحكِ، قال لي حين اقتربنا بما يكفي كي أسمعه. لقد أحسنتِ صنيعاً إلى حدٍّ ما. رفع حاجبيه لدى رؤية نوڤا بين ذراعيّ. أتمنى أن يستحق الأمر هذا المجهود الكبير، قال لي.

تخيّلتُ نفسي جاثيةً على الأرض والطبيب أ بوصفه جلاداً، يأتي إليّ معتمراً خوذة. بدت رؤيته خارج العيادة الطبية شيئاً غير مناسب. بدا مسترخياً، وحتى مبتهجاً. أردتُه أن يطوّقني بذراعيه ويقول لي إنّ ذلك كلّه كان غلطة.

فتح باب السيارة الحمراء اللامعة ذات الداخل الأبيض. كانت تضوع برائحة أشبه برائحة المادة المُبيّضة والجلد. جلستُ في الخلف ونوڤا على ذراعيّ. أقفال السيارة طقطقت حالاً خلفنا. ثمة مُعطّر هواء شكله مثل وردة مفتوحة مُعلّقة على مرآة المنظر الخلفي. كيس من أقراص النعناع المخططة في الصينية الواقعة خلف ذراع مُبدّل السرعة. هل تُريدين قرصاً؟ سألني الطبيب أ. ولمّا هززتُ رأسي علامة النفي وضع قرصاً واحداً في فمه وأدار مُحرّك السيارة.

كلّ واحد منا نظر إلى الآخر في المرآة. بدا أصغر سناً، في عمري تقريباً. تمهّل قليلاً كي يُشعل سيجارة، لم يُدوّر النافذة إلى الأسفل لم يسبق لي أن شاهدتُه يُدخّن من قبل. بشكلٍ من الأشكال غيّر التدخين كلّ شيء.

إذاً، نفث الدخان. ها نحن هنا مرةً أخرى.

الحدود



الفصل الأول

قاد السيارة مسافةً قصيرة متجهاً إلى مبنى عالٍ، مُسطح، من القرميد، يُشبه مركز اليانصيب في تلك الأعوام الفائتة كلّها. ربما ينتهي بي المطاف دوماً في الأمكنة ذاتها، بصرف النظر عن المسافة التي قطعتُها في أثناء هَرَبي. كان الشرطة السريون قد تعقبونا في سياراتهم، وتوقفوا واحداً بعد الآخر وخرجوا من سياراتهم بنشاط، فيما كنا جالسين في صمت، ننتظر شيئاً ما على ما يبدو.

كان لدّي اهتمام خاص، قال، كما لو أن في مقدوره أن يقرأ أفكاري، وهو شيء من المحتمل أنه استطاع فعله. أنتِ فقط لا تظهر عليك علامات الأم على الإطلاق، وهذا، مهنياً، شيءٌ غير نظامي بكلّ معنى الكلمة.

استدار، ومدّ يداً رطبة بعض الشيء إلى ساعدي العاري. أصابعه تطوّق معصمي. زيادةً على ذلك، اختبرنا تجارب كثيرة صعبة معاً.

خارج السيارة، قادني إلى الداخل بمفردي، عبر ممرات بيض خالية إلى حجرة ضئيلة الأثاث ذات نوافذ تطلّ على البحر، سرير وحيد ذو ملاءات وردية وستارة من المُخرّمات. جلس على السرير وأومأ لي أن أحذو حذوه.

أتذكر كيف كان شكل ابني وهو في هذا العمر. النظر إلى طفل حديث الولادة يجعلني أستذكره على الدوام. هل يُمكنني؟

كان أصلاً قد مدّ يده إليها، انتزعها من ذراعيّ. تعامل معها مثل شخص تعوّد على الأطفال الصغار. إنه أبٌ على أية حال وله امرأةٌ ببطاقة بيضاء في البيت. شرعت نوڤا تبكي.

آ، لم أكن أعني أن أجعلها تغضب، قال. إنهم أطفال صغار، كما تعرفين. حسناً، في الواقع، أعتقد أنكِ لا تعرفين.

قهقه قليلاً. لكزتُ ركبتي بركبته، كما لو أنني في حالة مزاح.

كنتُ في غاية الإعياء. أردتُ أن أقتله. سأزهِق روحه وآكل من لحمه. سوف أُلطخ نوڤا بدمه. كرهتُ أن أراقبها وهي في يديه الكبيرتين، الجميلتين. كرهتُ التفكير فيه بوصفه أباً. كرهتُ التفكير فيه وهو يرمي الكرات في الحديقة أو وهو يضع الأطفال في الفراش كي يناموا.

نوڤا لا تزال تبكي وفستاني مُبلل بالحليب. كان شيئاً مُروِّعاً. أنا أيضاً بكيتُ، من جراء الإذلال. أن أكون حيواناً أمامه. لقد تغيّرتُ كلياً وما من شيء باستطاعته أن يُعيدني إلى الوضع الذي كنتُ فيه، سأكون رطبة وغريبة طوال الوقت، مسلوخة الجلد.

إنه شيءٌ مُثير للاهتمام بالنسبة لي أن أراكِ في هذه الحال، قال لي.

أردتُ أن أخبئ وجهي، إلّا أنه بدلاً من ذلك جعلتُ نفسي أنظر إليه من جديد.

أردتُ أن أفحصكما معاً، قال، وهو يضع نوڤا في السرير.

فتح طقمه - الطوق البرتقالي القابل للنفخ، القوارير الصغيرة (الڤيالات) من أجل دمي، مقياس التنفس. بعد مدة طويلة جداً تخلو من الفحص البدني العام هنالك إشارة للسرّ الغامض الذي تمتاز به هذه الأشياء. استسلمتُ، واعيةً بالمتغيرات التي طرأت على جسمي. زفرتُ بأقصى ما أستطيع لمّا أوعزَ إليّ، استلقيتُ على السرير ورِجلاي منفرجتان، سمحتُ لعلامات جسمي أن تُترجَم. كان فخذاي مُلطّخين بالدم، لا يزالان، نزولاً حتى الركبتين. ربّت على جلدي بالشاش، بالمُطهِّر، بالماء، ومن ثم لمّا أصبحتُ نظيفةً تماماً دفع يديه بالقفازين المطاطيين في داخلي. مجرّد درزتين، قال لي من بين رِجلي. لقد مُزقتِ قليلاً. أحسستُ به وهو يُجمع جلدي بعضه مع بعض، ألمٌ شديد، وبعدها شيءٌ مختلف. لا تتحرّكي، قال لي. ثمة شيء يحتك في داخلي، جهاز منع الحَمْل الصغير(اللولب). توتر جسدي، لا، لا، قلتُ.

تُريدين أن تتحرّكي، في مقدوري أن أجزم، قال لي، لكنكِ إذا تحركتِ سوف تُسبّبين لنفسكِ ضرراً حقيقياً.

لذا بقيتُ راقدة بلا حراك. ولمّا انتهى من عمله سلّمني منديلاً ورقياً وأدركتُ أني كنتُ أنشج. مدّ يده إلى محفظته الجلدية المسطحة وسحب (سرنجة).

مضادات حيوية، قال لي. خشية أن تكوني التقطتِ شيئاً مؤذياً على الطريق. إنكِ تُريدين أن تظلّي بخير من أجل طفلتكِ، أليس كذلك؟ مُدّي ذراعكِ للخارج، من فضلك.

لا، قلتُ، وأنا أُصارع لإبعادها عنه. لا أُريد ذلك.

بأمانة، كالا. إنكِ لا تملكين خياراً. أخذ يدي ورفعها ثانيةً. أغمضتُ عينيّ. أوردتي صغيرة، غير أنّ الإبرة انزلقت بيسر. في الحال تقريباً أحسستُ بأني مرتبكة، وبكوني أثقل. ورحتُ أراقب بحماقة، فيما كان يحمل نوڤا من جديد. ضعها في السرير، ضعها في السرير، خاطبتُه قائلة. حاولتُ أن أقف إلّا أن ذلك كان صعباً عليّ؛ انحرفتُ جانبياً ورجعتُ إلى السرير.

نامي، قال لي، وهو يستدير والطفلة في ذراعيه. حين تنعمين بالراحة بوسعكِ أن تأخذي دشاً حاراً لطيفاً، اغسلي كلّ تلك الأوساخ من على جسمكِ كما يجب.

تعاظم الرعب في داخلي. لم يكن يضعها في السرير، سار خارج الباب، إلّا أنني كنتُ قد سقطتُ، الأدرينالين في جسمي تضاءل تدريجياً وانتهى تماماً.

في الليل استفقتُ بمفردي. ضربتُ الباب بشدّة وصحتُ مُطالبةً بها، إلّا أن أحداً لم يأت. حاولتُ مع النوافذ، سحبتُ كلّ شيء من على السرير وتحققتُ في ما يوجد تحته، ومن ثم دفنتُ وجهي في الوسادة وأخذتُ أنتحب. بطني، وهو لا يزال منتفخاً، كان الدليل الوحيد على أنها لا تزال موجودة. الوجع لا يزال ماثلاً في جسدي.

كان للغرفة حمام مُلحَقٌ بها وفي النهاية ترنّحتُ وأنا أدخل إليها. آلمني التبوّل، قدماي مالتا على الآجرات الصُفر. قرنفلات ميتة في نسق من الزهور بجوار المرآة. كنتُ مُتعبة من الثياب البهية التي ارتداها الموت والقبح وما إلى ذلك. حسبتُ أني قادرة على سماع بكاء طفلة من مكانٍ ما، بكاء ضعيف

جداً، إلّا أنه من المحتمل أن يكون ذلك طنين بصلة المصباح في تجويفها الكهربائي، وربما هو صوت مُكيّف الهواء. عَرِف جسدي أنها لم تكن نو ڤا. تعين عليّ أن أصدّق ذلك، أن أصدّق أنّ جسدي وهو يُخبرني أنّ ذلك ليس بكاء طفلتي في غرفةٍ مُغلَقة من دوني. لم يكن بوسعي أن أسمح لنفسي أن أتداعى. يتعين عليّ أن أكون سكيناً. يتعين عليّ أن أجد سبيلاً إلى الخارج ومن ثم أعود إليها.

في اليوم التالي رجع الطبيب أ. تمنيتُ ألا أفرح عند رؤيته. أخذني إلى غرفة أخرى. كان هنالك كرسيان مُبطنان بالڤنيل[1] الأحمر، منضدة صغيرة مربعة الشكل، كاونتر مع طبق ساخن وغلاية للقهوة، مع قطع بسكويت مبسوطة بعناية بهيئة صفوف. الحجرة طويلة والأثاث لا يشغل سوى ثلثها الأول، وثمة فراغ يتثاءب خلفنا، كما لو أنه مُهيأ لجمهور ما. كان بوسعي أن أتخيّل مزيداً من الكراسي المصفوفة، ومؤتمراً حول السوء الذي يحدث لي، وقد حُسِم مصيري.

حزني جرّني إلى ما تحت الماء مرةً أخرى. نو ڤا.

أين هي؟ سألتُ الطبيب أ، إلّا أنه تصرّف كما أنه لم يسمعني. شغل الكرسي الأبعد، رِجلاه منفرجتان كثيراً، فيما جلستُ قبالته. وفيما هو مائل للأمام، سحب المنضدة إلى أحد الجوانب، كي لا يكون ثمة شيء بيننا. بدا أنّ ذلك لم يتطلّب منه أيّ جهد على الإطلاق وهذا الأمر أقلقني. كنتُ أستقي المعلومات من الأشياء المحيطة بي، أيّ شيء من شأنه أن يكون ذا فائدة. صباح جميل، قال لي، وهو ينظر إلى الخارج.

على المنضدة شعرةٌ سوداء، طويلة. نظرتُ إليها، مُتسائلة مع نفسي إلى مَن تعود تلك الشعرة. راقبني الطبيب أ باهتمام مُخلخَل. تساءلتُ ما إذا كان لا يزال قادراً على التنبؤ بسلوكي، وما إذا كان نمط النساء اللائي مثلي يتكرر. تساءلتُ كم عدد النسوة اللواتي جلسن إلى هذه المنضدة معه.

من دون الوزن المنخفض لنوڤا الملتصقة بي، أحسستُ أني مائلة إلى

1- الڤنيل vinyl: بلاستك قوي قابل للثني، يُستعمل لعمل أغطية الأرضيات، قطع الأثاث، الأسطوانات إلخ.-م.

أحد الجوانب أصلاً. بهذه الطريقة حدثت المسألة، لمّا ينفلق منكِ شيءٌ من جسمكِ. بكيتُ علانيةً إنما بصمت. ماذا يستطيع جسمي أن يفعل باستثناء ذلك – سكب الماء، صدمة الانفصال.

أُريد طفلتي. أُريد التذكرة البيضاء وكلّ ما تُمثله في يدي. أُريد أن أكون حزمة من الشعر والقماش في مؤخرة سيارة طوال الوقت، أن أُعالج الموقف الصعبِ وأَصِل إلى برّ الأمان. أُريد أن تُشرق مني غريزة الأم، معصومةً من الخطأ، لا يُمكن نكرانها، كالنور. كان ينبغي لي أن أفعل ما لا يُمكن وصفه من أجلها. أليس هذا دليلاً على شيء ما؟ بوسعي أن أرى بالطريقة التي راقبني فيها الطبيب أ أنه شيء غير لائق أن أرى شخصاً ما من مثلي لديه أحاسيس كهذه، مثل مراقبة كلب علّموه أن يتحدّث.

افهمي نفسكِ جيداً، قال لي، باشمئزاز ضعيف.

سار إلى حيث كانت القهوة تغلي ورجع ومعه كوبان مملوءان وإبريق من الكرِيم على صينية.

باستطاعتكِ أن تشربي هذا الآن، قال لي، وهو يُسلّمني أحد الكوبين باليد. إنه شيءٌ آمن بالنسبة لك ثانية.

لم ألمسه. هنالك حشو تسرب إلى الخارج من مقعدي وراحت أصابعي تتشابك في داخله. كان هنالك البحر الأزرق، لا يزال، في اتجاه رؤيتي، خارج النافذة.

أين هي؟ سألتُه ثانية.

أنزل الطبيب أ كوبه. ربما تكونين مهتمة بمعرفة أنّ امرأةً أخرى تسكن في بيتكِ الآن. لقد دخلت المدينة وإلى تلك الحياة. إنها مُمتنة للحرية التي تُتيحها، بطريقةٍ لم تكوني فيها كذلك. إنها تذهب إلى طبيبها مثلما أتيتِ إليّ. إنها تلبس علبتها المعدنية الصغيرة المُعلّقة في رقبتها وتؤمن بها.

في حياةٍ أخرى، فيما كان مستمراً في الشرح لي، تفاقم سأمي من (ر). واصلتُ عملي. قابلتُ شخصاً اهتممتُ به، وهذا الشخص كان يهتم بي أيضاً، وأنشأنا بيتاً. ليس بيت تذكرة بيضاء، بل بيتاً.

أو لم أقابل أيّ فرد أحببتُه بما يكفي كي أستقر معه، إلّا أني تنعّمت في

هذه الحال. أنشأتُ بيتاً من نوع مختلف. سافرتُ، وكانت لي علاقات غرامية مُثيرة. فارقتُ الحياة وحيدةً ومُسنة وسعيدة في سريري.

كان بمستطاعكِ أن تكوني سعيدة في ذلك اليوم، قال الطبيب أ.

إنما كان ينبغي لي أن أعيش بشعور كئيب يومياً، قلتُ، صوتي خشن، لا تأنس له الأذن. شعورٌ ثقيل في بطني. أفكرُ فيه على الدوام.

نعم، وافقني الطبيب أ الرأي. قد يظل يُلازمكِ طوال الأوقات كلّها. قد يذوب في يوم من الأيام. قد تنسينه.

لكنني لن أنساه.

حسناً، قال لي. ما من ضمانة.

لقد بات الوضع أسوأ، قلتُ. لقد خَنَق كلّ شيء.

ربما، قال لي. ربما بات الوضع أسوأ.

لم يعد يهمّ. كلّ ما يهمّ هو نو ڤا. وقفتُ على قدميّ، غير أنه لوّح لي بيده بأن أجلس من جديد. لا تُجهِدي نفسك أكثر من اللازم، قال لي.

واصل حديثه عن أشياء تافهة، عن (ر) في شقته العالية، النظيفة - كيف أنه غالباً في وقت المساء يصبّ الويسكي في كأسٍ سميكة ويمشي هنا وهناك بعد ثلاث من هذه الكؤوس أو نحو ذلك، من دون أن يُفضي ذلك إلى أيّ نتيجة. كانت هنالك امرأة بتذكرة بيضاء، كنتُ على حق. لعلها كانت غلطتي أن تكون هنالك امرأة بتذكرة بيضاء. ربما أنا الذي وضعتُ الفكرة في باله.

سوف تكون الطفلة بحوزته وسوف يدفعها في عربة أطفال كبيرة، قال الطبيب أ. إنها فقط لن تكون طفلتكِ.

ليس ثمة قسوة في نبرة كلامه. ما من حاجة لأن تكون هنالك قسوة. كان يروي حقيقةً ليس إلا.

ماذا سيحصل لنو ڤا؟ هل هي بخير؟ سألتُه. لا يوجد شيءٌ آخر في مقدوري أن أفكر فيه.

أطلق تنهيدة. ينبغي لكِ أن تُدركي أنّ نوڤا لم تعد حاضرة بيننا. لن تريها من جديد. سوف تُعطى إلى شخص مناسب، إلى أسرة حقيقية، إلى

أُم حقيقية. وفي يوم من الأيام سوف تختار تذكرتها الخاصة في اليانصيب. من المبكر جداً أن نذكر أيّ لون ستكون تذكرتها، بالطبع. لا أعرف هذا حتى الآن. ولا أنتِ تعرفين.

ضحكتُ وبدا ضحكي أشبه بصوت اختناق. يبدو أنه لم يكن ممكناً أننا لم نكن نعرف أحدنا الآخر، لمّا كنا أصلاً متلاحمتين بما يكفي بحيث كان وجعها وجعي، وأنّ صرخاتها استدعت حليبي، جعلتني شديدة الاهتياج بسبب حاجتها. أغمضتُ عينيّ، وفتحتهما من جديد، وأنا أحاول أن أُعيد المَشهد، أن أزيله تماماً.

هبّ الطبيب أ واقفاً بنحو مفاجئ، سار إلى الطرف الآخر من الغرفة. دعني أُعطيكِ دقيقة، قال لي. وضع يديه على حافة النافذة، وجعل ينظر إلى الخارج.

لقد رحلت. مُنيتُ بالفشل. فكرتُ بما يُحتمل أن أفعله بصورة مختلفة. في أن أُبقي نفسي وحيدة، وألا أتحدّث مع أحد، لا فنادق، لا رجال في تلك الفنادق، لا ماريسول، لا نساء ميتات على الأرض. فكرتُ في صرّة البقاء التي سلّموني إياها، الخيمة الحمراء والخارطة التي كانت خاطئة والمسدس الثقيل جداً على يديّ. تلك الأشياء القاسية تُخاطبني قائلةً: تابعي إذاً. برهني إلى أيّ مدى تُريدين ذلك، إن كنتِ تُريدينه فعلاً إلى حدّ كبير. مُزحة صغيرة. شفقة صغيرة. ما الغاية من ذلك كلّه، إن لم يكن من أجل تعليمنا ماذا يعني أن ننجو، ماذا يعني أن ندفع، ماذا يعني أن نقع في الحب؟

ماذا بشأن اكتساب الحب؟ قلتُ بصوت عال. قلتَ إنه بوسعي أن أُبرهن أني بخير بما يكفي.

نظر الطبيب أ إليّ من جانب إلى آخر. لا، كالا، قال لي. لم يُخبركِ أحدٌ بذلك.

عاد وجلس ثانية على الكرسي عينه. مال للأمام مقترباً مني.

ليس مطلوباً منكِ أن تُحبي مرضاكِ، إلّا أنكِ في بعض الأحيان لا يُمكنكِ أن تمنعي نفسكِ من ذلك، قال لي. إنكِ تنقلينهم عبر كلّ أزمة من الأزمات. إنكِ تعرفين حياتهم بنحو أفضل مما تعرفين حياتكِ. إنكِ تحملين وجعهم، تُعلّمينهم أن يُغيّروا شكله. أحياناً يكون الوجع شديداً للغاية.

سُحقاً لك، قلتُ له.

أتمني لو كان بوسعي أن أقدّم لكِ يد العون، قال لي.

يُمكنكَ أن تقدّم لي العون الآن، قلتُ له.

لا، لا أستطيع.

سُحقاً لك، قلتُ له ثانيةً.

ذلك لن يُساعد أحداً، أليس كذلك، قال لي. أخبريني أنكِ تفهمين ماذا سيحدث. أنكِ تقبلين به، وأنكِ تكرّسين نفسكِ له.

قلتُ له بدلاً من ذلك أنّ لديّ وكالة على الأشياء التي فعلتُها طوال حياتي كلّها، حتى ولو ليس على كلّ الأشياء التي فُعلت بي. قلتُ له إني لستُ غصناً يُكسر في أثناء جريانه في جدول، يجرفه الماء إلى أن ينكسر فجأةً. قلتُ له إنه يتعين عليه أن يُعيد إليّ طفلتي. قلتُ له إنّ بعض الأشياء لا يُمكن رؤيتها في شخصٍ ما، وإنّ الأخطاء يُمكن أن تُرتكب، وإنّ قياس حجم شيء ما لا يصنع أُمّاً حقيقية. قلتُ له إنه ينبغي له أن يُعيد طفلتي إليّ. قلتُ له إني رأيتُ السوء، إني عرفتُ السوء وحتى في بعض الأحيان كنتُ أنا السوء، أحسستُ فقط أني مُرغَمة أكثر على أن أُبعد طفلتي عنه. قلتُ له إنه ليس في مقدوري أن أفعل أيّ شيء حيال أيّ نوع من النقص الحاسم في داخلي –حيال أيّ نوع من الأشياء التي شوهدت أو تم إقرارها، أو شُمَّت من جسمي أو عقلي أو روحي– إلّا أنه في مستطاعي أن أفعل هذا.

أعِد إليّ طفلتي، قلتُ ثانية.

مال إلى الأمام، أخذ يديّ الملتويتين في يديه، وتوتر جسمي بأكمله.

سأُخبركِ بالحقيقة، لأني أحترمكِ، قال لي. إنكِ لم تُمنحي تذكرة زرقاء بسبب شيء فعلتِه أو بسبب شيء في كيانكِ وشخصيتك. إنه شيء عشوائي. هذا الشيء كان من الممكن أن يحصل لأيّ واحدة منكن. لا يوجد استحقاق. لا يوجد نظام – في الأقل لا يوجد نظام واحد يحكم اليانصيب. لا يوجد نعم ولا، وهذا هو كلّ ما في الأمر. ومع ذلك انظري كيف تحقق ذلك، انظري كيف حققتِ قدركِ، كيف أنكِ حتى استمتعتِ بالتذكرة الزرقاء، في أول الأمر؟ لا تُقاطعيني. أعرف أنكِ كنتِ سعيدة على مدى زمن معين إلى

حدّ بعيد. إلّا أنه لم يكن بمقدوركِ أن تقبلي بذلك؛ كنتِ تعتقدين أنكِ أفضل من الشيء الذي أعطوكِ إياه.

إذاً ربما كنتُ ذات تذكرة بيضاء طوال الوقت، قلتُ له.

وربما ما كان بوسعكِ أن تكوني سعيدة بتلك التذكرة أيضاً، قال. كنتِ تُريدين المزيد على الدوام.

لم يكن في مقدوري أن أتجادل في ذلك الموضوع. لم أكن أملك المقدرة على المحاولة حتى. ما الذي سيفعلونه بي؟ سألتُه بدلاً من ذلك.

ابتسم. هو أيضاً بدا مُتعباً، فجأةً. انتهى الأمر، كالا، قال لي. هم لن يفعلوا أيّ شيء. حاولي أن تسترخي.

لا أفهم.

ألا تتذكرين كيف كانت الحال لمّا أحسستِ بالبرد، وبأنكِ وحيدة، وفي خطر؟ سألني. ألا تشعرين أنكِ عوقبتِ بما يكفي؟ لكن لا بأس. سوف يأخذونكِ إلى مدينة جديدة ويُعطونكِ فرصةً أخرى كي تصنعي حياتكِ الخاصة. حاولي أن تُقدّريها هذه المرة.

فكرتُ في الأسابيع التي قضيتها على الطريق، مُعتقدةً أنّ نوفا وأنا باستطاعتنا أن نفعل ما نُريد، وأنّ الحياة التي نُريدها هي هناك أمامنا. الخضرة الهادئة للشهور التي أمضيناها في المقصورة، ابنتي تنمو في داخلي، حيّة في كلّ يوم من الأيام. عقوبتي. وجه الطبيب أيرفرف قبالتي، غافلاً. كيف لم يكن باستطاعته أن يعرف أنّ العقوبة كانت أفضلَ جزءٍ من حياتي وأكثرها واقعية؟ من المحتمل أني لم أكن فرداً من النوع الذي يجب أن يكون أُمّاً، إلّا أنني سمعتُ ما كانت تصرَخ به غريزة الأمومة عبر جسدي وقد اخترتُ وطأتها. اخترتُ الحرية، مع أنها بدت بالنسبة لبعض الأشخاص أشبه بالنقيض.

أفلَتَ يديّ، نقل كرسيه قليلاً من مكان إلى آخر كي يُصبح أقرب إليّ. أحببتُ دوماً التحدّث إليكِ، قال لي. إنه العار بعينه. حسبتُ أنّ لديكِ طاقةً كامنة. في بعض الأحيان دوّنتُ ملحوظات مُثيرة للإعجاب.

بدا هذا شيئاً مُضحِكاً للغاية بحيث إنني بدأتُ أقهقه، وهذه القهقهة تحوّلت إلى نحيب من جديد. أردتُ أن أستلقي. كنتُ ضجرة أيما ضجر.

هل لديكِ أيّ طلبات نهائية، طالما نحن هنا؟ سألني. توقف عن الكلام، بطريقة ذات معنى. لم تسألي عن الفتاة التي كُنتِ معها.

ماريسول، قلت. فمي جاف، الاسم غير مألوف. عيناي متقرّحتان. لم أشأ أن أعرف كيف عَرِف ما يتعلّق بها.

إنها طبيبة، كما تعرفين، قال الطبيب أ. أو أنها كانت طبيبة. وكانت طبيبة لها خدمة وظيفية، كما شاءت المصادفات. وقد أبرمت الصفقة معنا. حدّق فيّ بنحو متوقَّع.

أيّ ضرب من الصفقات؟ سألتُه. كرهتُ مسألة كوني مُرغمة على طرح السؤال، أن أتوسّل طلباً للمعلومات. هل أقنعتهم بأن يدعوها وشأنها؟

أعرف أنّ هذا السؤال يصعب سماعه، قال لي.

إنه ليس كذلك، كذبتُ بنحو انعكاسي. رفع حاجبيه.

حسناً. كانت تؤدي عملاً جيداً قبل أن تُصبح حبلى، وقد قررت بنحو حساس أن تواصل القيام بذلك العمل. كانت تجد نساء هاربات على الطريق وتُسلّمهن إلينا – وكنا نكسب ثقتهن ونقودهن إلى أمكنة حيث يكون بالمستطاع أن يُعتقلن. كانت مناسبة للغاية في أداء هذا الدور، مثلما عرفنا أنها ستكون كذلك. بعد خدمة شهور قلائل لا غير. وبالمقابل، بوسعها أن تُحافظ على طفلها هي، وكلاهما في مقدورهما أن يُغادرا البلاد.

فكرتُ في أول امرأة رأيتُها معها، رأساهما مضغوطان ومتقاربان، وهما ترسمان خطةً ما. فكرتُ في ماريسول وهي تأخذها بالسيارة إلى مكان مُظلم حيث كان ينتظر الشرطة السرّيون ومن ثم تواصل القيادة مجدداً، في سيارة جديدة، وتُترَك المرأة.

أوقعَتني هي في فخ، قلتُ له.

هي لم تفعل ذلك تقريباً، قال. ظلت من دون الخدمات العمومية[1] على مدى زمن طويل بعد لقائها بكِ. كنا فضوليين فيما يتصل بمسألة ما إذا كنت

1- الخدمات العمومية the grid: المقصود هنا خدمات الكهرباء، والماء، والغاز، إلخ.–م.

فعلتِ شيئاً أحمق. شيئاً في غير محلّه، بالنسبة لها. إلّا أنه في النهاية رجعت إلينا، مثلما كنا نعرف أنها ستفعل ذلك. وضعت طفلها أولاً.

مدّ يديه إلى يديّ من جديد وأمسك بهما بنحو أضيق من قبل، بإحكام أشد بحيث غيّرت عظامي مواضعها.

في النهاية، لقد سهّلتِ عليها الأمر كي تخونكِ. هذا هو دوماً نوع الشخص الذي كُنتِه. حتى من دون تذكرتكِ، هذا الشيء واضح فيكِ من البداية.

أن أحس بيديّ في يديه هو أسوأ شيء. كنتُ بالأحرى أفضّل أن أحس بيديه حول عنقي. مسبحة من الكدمات، علامات تُشبه نصف القمر ناجمة عن أظافره. كانت الشفقة أسوأ من القسوة. في عينيه حنانٌ أصيل. ربما سينخرط في البكاء. ظللتُ أراقب. أفلتَ يديّ. لم ينتحب.

الفصل الثاني

قادني شرطي سرّي ثانيةً إلى الحجرة ذات السرير. كانت هي صغيرة الحجم، شقراء، تمضغ العلكة لمّا اعتقدت أني لم أكن أنظر إليها. تخيّلتُ أني أنتصر عليها، أقبض على مسدسها وأنزل عُقبه وأضعه على وجهها. غير أنّ ثدييّ كانا يسرّبان الحليب، الجلد مشدود كالطبل ومُوجِع. يتعين عليّ أن أذهب حالاً إلى الحمّام وأدلّكهما، وأراقب بنوعٍ من الرعب الأخرس فيما يسقط الحليب مني في حوض المرحاض، مُخففاً شيئاً من الضغط. وبعدها جلستُ على السرير في دائرة من ضوء المصباح وانتظرتُ شيئاً ما. عددتُ حتى الرقم مئة ومن ثم إلى الرقم ألف، ومن ثم رحتُ أعدّ إلى الوراء، مُفرّغةً أفكاري، وأدع الحالة الساكنة لتلك الرتابة تملأ الهواء، إلّا أن ذلك لم ينجح. عرفتُ أنه لا بد أن يكون هنالك نوعٌ من الراحة في أن أعرف، أخيراً، أنه لا يوجد شيءٌ مفقود فيّ –ما من شيء مرئي أو محكوم عليه، كما تظاهرتُ بذلك طوال حياتي كلّها– إلّا أن الراحة هي شيء مُبهَم، بارد، بعيد المنال.

مكثتُ في الغرفة وقتاً طويلاً قبل أن تأتي ضربةٌ عنيفة على الباب. ضغطتُ عيني بلهفة على عدسة كاميرا صغيرة جداً تُظهر منطقة واسعة للغاية ولها حافات مقوّسة إلّا أنها لم تكن نو ڤا. كانت ماريسول. لم تكن ترد على نظراتي بل تنظر إلى الأرض، تنظر في اتجاه المجاز. تراجعت عن الباب، مشمئزة، فيما كانت هي تسمح لنفسها بالدخول. كانت ترتدي المعطف الأبيض الخاص بالأطباء والطبيبات. بدت بالضبط بالصورة التي تَخيّلتُها: شعرها مسحوب للوراء، وناعم. لم تكن معها طفلة، لا طفلتها ولا طفلتي. كانت تحمل صينية عليها طبق مُغطى برقيقة معدنية، كأسان مملوءتان بالماء، وعلبة سجائر.

مرحباً، قالت لي.

أتعرفين أين هي؟ قلتُ ذلك بصياح تقريباً.

إنه لشيءٌ مُناسب أن أراكِ أيضاً، قالت لي. جرعت كأس الماء العائد لها، لكنني لم آخذ كأسي حين قدّمتها لي.

أخبريني، قلت.

جلست على طرف السرير. لا يوجد مكانٌ آخر كي تجلس عليه. جثمت بنحو محتشم، بتيبس، رِجلاها متقاطعتان عند الكاحلين، ووضعت الصينية على الأرض أمامها.

هل تمانعين إذا ما دخنتُ سيجارة؟ سألتني.

أجل، قلتُ لها، إلّا أنها أشعلت سيجارة على أية حال.

راقبتُها عن كثب، وأنا أجرب أن أرى ميزة الأمومة فيها. بدت بعيدة جداً، مع أنني عرفتُ بنحو موضوعي أني لامستُها، وأني اعتنيتُ بها. أردتُ أن أضع يديّ حول عنقها إلى أن تُعطيني الأجوبة. تجاهلني صدى الحب، صدى الغضب، ومن ثم غادر.

أين طفلتي؟ سألتُها ثانية. أين طفلتكِ؟

نفثت الدخان، وهي تُميل رأسها بعيداً عني. نائمتان. في حجرة أخرى.

فتحت الغطاء المطوي عن الطبق كي تكشف شطائر من دون قشرة خارجية، وأطفأت عُقب السيجارة في الرقيقة المعدنية المجعدة.

أتريدين واحدة؟ قالت، وهي تُعطيني إياها.

ماذا جرى لك بحق الجحيم؟ سألتُها.

أنا جائعة، ردّت عليّ. إنكِ تعرفين ما شكل هذا الشعور، أعرف أنكِ تعرفينه. إنكِ أكثر شخص يتضور جوعاً قابلتُه في حياتي كلّها.

أنزلت الصينية، لم تأخذ شطيرة هي نفسها على كلّ حال.

ماريسول. لماذا أنتِ هنا؟

إنكِ تُريدين أن تري ابنتكِ، أليس كذلك؟ قالت لي. تعالي معي. سوف أقدّم لك المساعدة.

مشينا في المجاز معاً. لا يوجد شخصٌ آخر هناك الآن. ماريسول بدت مرتاحة ومسترخية في هذا المكان حيث ينبغي ألا يكون هنالك شيء مرتاح

ومسترخ. تحركت بحزم، برشاقة. كرهتُها. توقفت قليلاً عند باب خشبي كبير، أخذت مفتاحاً من جيبها، وضعته في القفل وأدارته.

كانت الحجرة مطلية بدهان أصفر، على غرار جدران المنزل المصبوغة جزئياً طوال تلك الأعوام الفائتة كلّها. كان الموصلين يتدلّى متغضناً من النوافذ وعلى الأسرة الخشبية الخفيفة النقّالة المصطفة على الجدار البعيد. كانت هنالك خمسة أسرّة خفيفة نقّالة، وطفلة واحدة. عرفتُها في الحال، مع أنها كانت ملفوفة بقماش أبيض جديد. كانت ملفوفة بطريقة مُعقدة، إلّا أن ذراعيها طليقتان. رفعتها إليّ فيما تخلّفت ماريسول عني، وتركتني وحدي.

المرضعة تتمتع بإجازتها، قالت لي، وهي تنظر إلى الحائط.

نوڤا في ذراعيّ دافئة ولذيذة مثل رغيف الخبز. هرمون السعادة الدوپامين اندفع مسرعاً إلى رأسي، جعلني متبلّدة الحس، نعَّمَ حوافي. في رؤيتي المحيطية، نقبت ماريسول بصعوبة، تخطو إلى النصف متجهةً إلينا ومن ثم جعلت تنظر وراءها إلى الباب.

أين طفلتكِ؟ سألتُها.

ليست هنا. ابتسمت ماريسول. دعينا نجلس دقيقةً واحدة.

ماذا؟ لا. علينا أن نأخذها من هنا، الآن، قبل أن يأتي شخصٌ ما.

هزت ماريسول رأسها. الأمان لم يحلّ بعدُ. علينا أن ننتظر.

جلسنا معاً على الأرض، بين سريرين من الأسرّة الخفيفة النقّالة. الضوء الوحيد أتى من مصباح ليلي في شكل أرنب مُوصَل بنقطة الكهرباء في الجدار، مُلقياً احمراراً ذهبياً. بسطت نوڤا ذراعيها وقدميها على صدري كالضفدع. بدا أنّ إيقاع تنفسي قد هدأها.

أتتذكرين أول مرة كلّ واحدة منا رأت الأخرى؟ سألتني ماريسول.

أجل، أجبتُ. كنتُ خائفة منك.

ربما كان من الأفضل ألا نلتقي، قالت لي.

الأفضل شيء نسبي، قلت لها. سيكون الأمر مختلفاً.

حضرتُ رحلةً أخرى، الرحلة التي كنتُ فيها وحيدة إلى حدّ بعيد، الرحلة التي انتهت في وقت أبكر، قبل أن تكون لي فرصةٌ في مقابلة نو ڤا.

انتهت الرحلة في جانب الطريق، أو في الفندق مع الرجل الذي ضربني، أو أكون نائمة في حوض استحمام، أو أكون مسحوبةً من لدن السلطات. كما حضرتُ رحلةً أكملتُ فيها مهمتي، حيث كنتُ مرةً أخرى الفتاة ذات الركبتين المخدوشتين، عديمة الشفقة، شيئاً من الظلام. في ذلك المكان حفرتُ نفقاً في الأرض وسبحتُ وسُرِقتُ وآذيتُ طريقي إلى الحرية.

كنتُ خائفة منكِ أيضاً، قالت لي. كنتُ خائفة من الجميع.

حسناً، لم تكوني تبدين كذلك، أجبتُها.

لا يُمكنكِ أن تجعلي الجميع يُدركون أنكِ هكذا، أو أنه سوف ينتهي كلّ شيء، قالت. ما عليكِ سوى أن تتظاهري. إلّا أنني لا أزال خائفة. أنا خائفة أكثر من أيّ وقت مضى. في مقدوري أن أخبركِ الآن، لأنه لا يهُم.

لا يهم، وأنا لستُ خائفة، قلتُ لها، إلّا أنني لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً. ربما بوسعي أن أكون المرأة الشجاعة، مرةً واحدة لا غير. عرفتُ أنّ الشعور الكئيب لم يعد يبدو كئيباً، وأنه يتوهج، وأني شاهدتُ وحتى لمستُ الاحمرار الساخن الرطب للكون، إلّا أنني لم أشأ أن أتكلّم عن ذلك الموضوع مع ماريسول، مع أنها أمّ هي أيضاً الآن.

أحسنتِ صنيعاً، قالت لي. هل يُمكنني أن أحملها؟

لا، أجبتُها. لا يُمكنني أن أصفح عنكِ، كما تعرفين. حتى وأنتِ تعيدينها لي. لقد خُنتِنا.

فقط في النهاية، قالت. فقط لمّا تعيّن علي أن أفعل ذلك. لقد خدعتُ أشخاصاً آخرين، هذا صحيح. قمتُ بأشياء مُروِّعة كي أُحافظ على ابنتي. لكن الغابة، ونحن، كان ذلك صحيحاً. عدّلت وضعها، أشاحت بصرها. لكنكِ غادرتِ، وطفلي لم يكن يتحرك في أحشائي، وتعين عليّ أن أرجع إليهم. كنتُ بحاجة إلى العون، فهي حالةٌ طارئة، وكنتِ قد هجرتِني. بطبيعة الحال، ما إن وصلتُ إليهم حتى تعين عليّ أن أُخبرهم بشأنكِ. بالطبع، فعلتُ ذلك. كان ينبغي لي أن أكتم غايتي من الصفقة. نظرت إلى الأعلى وكانت عيناها قاسيتين ونديتين. لا أُبالي في مسألة ما إذا كنت تفهمين أم لا. أعرف أنكِ كنتِ ستفعلين الشيء نفسه.

نَزَلت نظرتها إلى وجه نو ڤا، ومدّت يدها كي تلمس وجنتها بإصبع واحدة. قرّبتُ ابنتي إلى جسمي، ومن ثم أبعدتُها.

إلا أنه شيء غير حسن على أية حال، قالت. ليس لديّ طفل.

أشحتُ بصري عن نوڤا وحدّقتُ في عينيْ ماريسول، كما يجب، أول مرة منذ أن دخلنا الحجرة، والهواء بارد من حولي.

كان صبياً، قالت. لم يكن يتحرك على مدى برهة من الزمن. كنتُ على حق، إلّا أنني لم أشأ أن أصدّق ذلك. وُلد من دون ضربات قلب. حملتُه في ذراعيّ إلّا أنني عرفتُ في الحال، وكيف لا أعرف؟ لذا لم يعد لديّ طفل.

أطلقت ضحكةً حادة، أشبه بالنشيج. كانت تهمّ بأن تأخذ نو ڤا، إلّا أنني أبقيتُ ذراعَيّ مُحكَمَتين حولها.

ليس لدي طفل، لكن بوسعي أن أغادر هذه البلاد، بوسعي أن أفعل هذا بأمانة، بمقدوري أن أصنع حياة، قالت لي. لقد كسبتُها. إنهم لا يُبالون بمسألة لمَن ينتمي الطفل الذي آخذه.

لا، قلتُ لها. لا تطلبي مني. لا تقولي هذا.

كشفت ماريسول عن أسنانها. لم يسبق لي أن رأيتُها بهذا الشكل من قبل. كانت تبكي جهاراً.

أعطني طفلتكِ، قالت لي. أعطني طفلتكِ وأعدكِ أني سأعتني بها كما لو أنها طفلتي. أعدكِ بأنها ستكون سعيدة ومحبوبة طوال بقية حياتها.

لكنكِ قلتِ إنكِ سوف تُساعدينني. عليكِ أن تُساعديني على الهَرَب، قلتُ. بمستطاعنا أن نهرب معاً.

لا يُمكننا، قالت. لا يوجد طريق عبر الحدود. لا يوجد مَهرب. بحوزتي تأشيرة دخول[1]. كالا. يجب أن أكون أنا مَن تأخذ الطفل.

خُذي طفلاً آخر إذاً. جِدي طفلَ امرأةٍ أخرى. وليس طفلتي، قلتُ لها. أرجوكِ.

1- لديّ تأشيرة دخول I have a visa: سألنا الكاتبة عن هذه الجملة فأجابتنا في رسالتها الإلكترونية المؤرخة في 12 أيلول/ سبتمبر 2022 قائلةً إنّ ماريسول هي التي تمتلك ڤيزا وبناءً على ذلك مسموحٌ لها بالمغادرة، ولهذا هي التي يجب أن تأخذ الطفلة-م.

بسطت ذراعيها، متوسّلة. ليس لدينا متسع من الوقت.

انقضّت معدتي، فمي امتلأ بمادة الصفراء. لم يعد باستطاعتي أن أنظر إلى ماريسول. أحتاج إلى أن أختلي بها، قلت. أومأت ماريسول برأسها علامة الإيجاب، رفعت نفسها من الأرض بسرعة بحركة أشبه بحركة العتلة، متلهّفة إلى حدّ كبير، متيقنة إلى حدّ كبير. فتحت الباب وغادرت الغرفة. سأنتظر هنا، قالت من الجانب الآخر.

صوت جسمها وهو ينزل على الأرض. جسم امرأة لا أولاد لها، لا يزال متغيراً. فكرتُ فيها بوصفها مخلوقة خرافية[1]، فكرتُ في الخلايا في مجرى الدم العائد لها. وفكرتُ في نفسي بوصفي مخلوقة خرافية أيضاً. نصف حيوان، نصف أنا نفسي. لقد تغيّرتُ بشكل نهائي. كنتُ أُريد ذلك. رغبتي لم تَعُد ذات أهمية. رغبتي بوسعها أن تشطرني الآن ومع ذلك من شأنها أن تكون غير متصلة بالموضوع. فكرتُ في امرأة غريبة تأخذ ابنتي إلى بيتها. فكرتُ في ماريسول وهي تهمس في أذن الطبيب أ.

كنتُ أعرف أنّ الحدود قريبة. ولهذا السبب أتت بنا ماريسول إلى هنا أولاً. توجد نافذة باستطاعتي أن أحاول كسرها بغية الدخول. أو يوجد باب مفتوح ورائي، مجاز بمقدوري أن أنزله مُسرعةً. بوسعي أن أتغلّب على ماريسول، أن أجعلها غير قادرة على التنفس، لكن بعدها سيكون هنالك مزيد من الأشخاص كي أتغلّب عليهم، أشخاص مزوّدون بالأسلحة، بأبواب مُغلقة، سرنجات، ولم أكن أعرف ما إذا كان لديّ القوة أو البراعة كي ننجو بأنفسنا ونكون سالمين. كنتُ لا أزال أنزف، وببطء، الدرزات تنسحب مع كلّ خطوة أخطوها. بكيتُ متمنيةً أن أُقبّل جميع أجزاء طفلتي. فكرتُ في النغمة الوحيدة لغريزتي، كيف تمكنت من أن تأتي بنا إلى هذا المكان البعيد، وما إذا كان الموعد كي أقاومها قد أزف، وما إذا كان هذا هو معنى أن أكون أُماً صالحة على أية حال. كي تقوم بالشيء الصحيح حين تشعر بالخطأ في كلّ عظم من عظام جسمك.

1- مخلوقة خرافية: وردت في النص الإنكليزي الأصل كلمة chimera: في الميثولوجيا الإغريقية، هي مخلوقة شاذة، غريبة الشكل، تنفث النار، لها رأس أسد وجسم معزاة وذنب أفعى-م.

لا، قلتُ من جديد، إنما بقناعة أقل. أملتُ رأسي على الحائط. استنشقتُ رائحة جسم نوڤا الجديد. شرعت تبكي، إنها جائعة، وفتحتُ أزرار فستاني بحركات غريزية. رجعت ماريسول ودخلت ولأول مرة انتبهتُ إلى البقع الرطبة على قميصها القطني لما فُتح معطفها الأبيض. رأتني أنظر إليها. جسمكِ لا ينسى بسرعة كما ترغبين، قالت. البكاء هو الذي يُحفز إنتاج الحليب لدى الأمهات.

ركعت أمامي. إن لم تعطيني إياها، سوف يأخذونها في أية حال. أعطني إياها ولن تعرف أياً من هذه الأشياء.

تخيّلتُ ابنتي وقد كبرت، وثمة علبة معدنية صغيرة حول رقبتها، إلّا أنها لغرض الزينة ليس إلا. إنها فارغة فقط. لا شيء في الداخل كي يُخبِر العالَم بمستقبلها، أو من أين أتت هي. لا توجد برّيّة كي تتنقل فيها. تخيّلتُها وسط الأشجار، وسط الهواء النقي. تخيّلتُها تركض بسرعة شديدة، إنما ليس بعيداً عن أيّ شيء.

أرجوكِ، قالت ماريسول.

أومأتُ برأسي مرة واحدة، على مهل. سلّمتُها ابنتي باليد.

فتحت نوڤا فمها وانتحبت. كانت رئتاها رائعتين إلى حدّ استثنائي. صوت أداة إنذار يخترق الهواء، مُعلناً أنها على قيد الحياة. هذا مناسب، قلتُ لها. إنك تُحدثين هذه الضجة وأنتِ لا تكفين عن إحداثها طوال حياتكِ كلّها. هذا صوتكِ. هذا هو أفضل شيء تملكينه.

حَمَلتها ماريسول بطريقة غير بارعة، بدت مندهشة من مسألة كم هو صعبٌ حملُها. تعيّن عليّ أن أُريها. هذه هي الطريقة، قلتُ لها وأنا أضع نوڤا على صدرها. لم أهوِ على الأرض. لم أنهَر.

جِدينا إن كان باستطاعتكِ، قالت لي، غير أنني عرفتُ من خلال وجهها أنها تعتقد أني لن أجدهما، وأنها تقوم بالأشياء بصورة روتينية ومن دون حماسة. قامت بحركة ربما كانت تعني أنها تُقبّلني، إلّا أنها فكرت أنها ليست فكرة جيدة. بدلاً من ذلك رفعت يداً في إيماءة صغيرة، وقورة. فهمتُها باعتبارها شكراً لكِ. فهمتُها باعتبارها تعني أننا اختبرنا على مدى زمن طويل

تجارب صعبة معاً، وأنه أخيراً هي ذي النهاية. راقبتُ ابنتي تختفي، وهي لا تزال تبكي. كلّ ما هو مرئي منها هو قمة رأسها، الكتلة الكثيفة من الشعر الداكن، حافة البطانية حيث انثنت حول وجهها، وجعلتها ملفوفة ومتراصة. ربما لن تنتبه لانصرافي إلى أن تجتازا الحدود. ربما لن تنتبه لانصرافي قط، لأنها صغيرة السن إلى حدّ كبير، جديدة إلى حدّ كبير، مرميةٌ في العالَم من دون مراسم، وربما تلك الطريقة هي الأفضل، مهما أحسستُ، مهما أردتُ.

الفصل الثالث

انتظرتُ في بيت الحضانة الخالي الجديد كي يحدث شيءٌ ما، إلّا أنه لم يأتِ إليّ أحد. وفي النهاية رجعتُ إلى غرفتي. جلستُ على السرير الوردي وتساءلتُ ما إذا كان ذلك حقيقياً. لم يمضِ حتى عام منذ تلك الليلة الأخرى في غرفة أخرى لمّا سحبتُ سلكاً من جسدي. لم يكن يبدو ذلك ممكناً على نحو كامل، إلّا أنها الحقيقة. دفنتُ وجهي في يديّ، وتمالكتُ نفسي. في مكانٍ ما ماريسول تحمل طفلتي في الخلف من سيارة ما، متعوّدةً على ثقلها، عابرةً الخط المتوهّج على الأرض. أمسى جسمها استراحة ابنتي. لم يُترَكْ لي شيء باستثناء جسمي، الوجع ينسكب مثل الحليب الذي يتخذ شكل قطرات على جلدي لمّا تمس ذراعاي حلمتيّ مَساً عابراً بالمصادفة.

لم أرَ الطبيب أ ثانية. صباحاً طرقت شرطية سرّية بابي. كانت وقورة، ومحترمة. أصبحتُ منسية. أو أنني لم أعد شخصاً مثيراً للاهتمام. وجدتُ أني لم أعد أكترث على الإطلاق. أعطتني طقماً جديداً من الثياب كي أستبدل بها ثيابي التي ألبسها حالياً، حقيبة ظهر. في الحمّام أخذتُ دشاً وغيّرت ملابسي وتفحصتُ الأشياء التي أعطتني إياها المرأة. حقيبة الظهر لم تكن تحتوي على خيمة أو خارطة أو أسلحة، بل مجرد قطعة صابون صغيرة، منشفة، ولوحاً من الحبوب وقنينة ماء، ومبلغاً من المال في محفظة نقود سوداء بسيطة من الكنفا. في الخارج هنالك حافلة ركاب تنتظرني، مُخططة بألوان باستيل على طول جانبها. فُتحت الأبواب بحفيف منخفض. أنا وحدي؛ أجلس في الخلف، ثانيةً ركبتاي على المقعد الكائن أمامي، وكتبت كلمة «نو ڤا» بإصبعي على الشباك، كي يظهر اسمها حين يغسل التكاثف الزجاج، ورحت أنتظر. سوف يجلس شخصٌ آخر في هذا المقعد وسوف يُشاهد

اسمها وسوف يعرفه. عضضتُ على أظافري وصولاً إلى الجلد، متمنيةً أن تكون أسناني حادةً أكثر.

اجتازت الحافلة البلاد التي عبرتُها ببطء شديد. كنا نتوقف بشكل دوري كي تركب نساءٌ أُخريات، نساء بحوزتهن نفس حقيبة الظهر التي لديّ. لم نتكلّم بعضنا مع بعض. كنا نضع رؤوسنا على النوافذ ونراقب الطريق الواقع تحتنا. لا تصدر موسيقى من السماعات. دخل المطر من شريحة النافذة المفتوحة بالقرب من السقف.

انقضت ساعات قليلة ووصلنا إلى محطة خدمة السيارات. توخّى السائق الحيطة والحذر حين ترجّلنا من الحافلة، إلّا أنه في واقع الأمر لم يكن هنالك أحدٌ يُراقبنا. سُمِح لنا أن نذهب ونستعمل الحمام ونشتري الحاجيات. اشتريتُ لنفسي أطعمة مقلية ومزيج الحليب[1] وتركتهما على الطاولة، الآيس كريم تجمد على السطح.

في مخزن الهدايا اشتريتُ علبة سجائر، علامتي التجارية القديمة، شكلها مُسلٍّ في يدي. مضيتُ إلى الخارج كي أدخنها. ما وراء موقِف السيارات كانت هنالك رقعة صغيرة من غابة ليست شجرية تماماً، أشجار خفيضة تلوّثت بسبب العدد الهائل من السيارات، العدد الهائل من الحافلات، والناس الذين يتحركون جيئةً وذهاباً. أحسستُ أنّ سائر خيوط هذه الحيوات تتشابك في خيط حياتي. راقبتُ امرأةً ذات شفتين حمراوين وسيارة حمراء تغلق بابها وراءها، بالقرب مني. نظرت إليّ وأشاحت بعينيها. ضوء أول المساء بدا ساطعاً خلف محطة الخدمة، وراح يشع برفق إلى الخارج. الطبقة السطحية الرقيقة من البترول على الإسفلت لم تعد تُحدِث فيّ أي شيء، حواسي لم تعد تُصبح قوية، لم يعد هنالك رغبات مُلحّة مُبهمة، لا يوجد رادار. حقيبة الظهر العائدة لي على ظهري. لم يرجع أحدٌ إلى الحافلة حتى الآن. حاولت أن أفتح باب السيارة الحمراء، غير أنها لم تُفتح. استدرتُ وسرتُ بعيداً عن موقف السيارات، قطعتُ مسافة قصيرة إلى داخل الأشجار.

1- مزيج الحليب أو الحليب المخفوق: شراب من الحليب يُخفق مع الآيس كريم أو الفاكهة أو الشوكولاتة-م.

كانت الأرض مفروشة بالعلب، قطع صغيرة من البلاستك اللامع، وأعقاب السجائر. ما وراء الأشجار كان هنالك طريق. وما وراء الطريق كانت هنالك أرض معشوشبة.

أنا آتية، قلتُ إلى لا أحد. السيارات أقرب إليّ، الطريق تُفضي إلى مكانٍ ما. التوهج لا يزال يملأني، يُذكرني بالمكان الذي يتعين عليّ أن أمضي إليه، مهما بَعُدت المسافة. بدني لا يزال هو الذي يُذكرني. هو لا يتوقّف عن تذكيري. سأراكِ في القريب العاجل، قلتُ.

الخاتمة

في بعض الأحيان لا أزال أفكر في ماريسول وهي تنزلق من السيارة التي تقودها وتسبح في البحيرة؛ جسدها بدأ يظهر تواً إلّا أنه خفيف الحركة في الماء، شكلها في صورة ظلّية على السطح فيما كانت تسبح، صارمة وواقعية. لم يسبق لي أن رأيتُها بهذه الصورة، إلّا أني أشعر أني أحببتُ لو أني رأيتُها هكذا من قبل.

رأيتُها في حلمي مرةً ثانية. تارةً في الحلم تكون هي أمي، لا أعرف وجهها. وطوراً في الحلم تكون ميتة وغالباً أنا أيضاً أكون في عِداد الأموات.

في الحلم الذي يتكرر كثيراً أجلسُ قبالتها إلى طاولة في مطعم على جانب الطريق. هي تبتسم. ثمة حَزّ صغير على وجهها، بالقرب من فمها، تقريباً في نهاية الشفاه، إلّا أن عينيها مشعتان.

لديّ شخصٌ ما أُريدكِ أن تقابليه، تقول.

ترفع نوفا إلى ما فوق الطاولة من أجلي، كما لو أنها هدية، وآخذها من دون أن أطرح سؤالاً. إنه الاعتذار الوحيد الذي أحتاجه أو الذي سأحتاجه دائماً.

إنها تتحرّك كما لو أنها شيء آتٍ من الأرض. إنها تتحرّك بطريقة الأشياء القديمة والخالدة. أُقبّل رأسها. أسند رقبتها، بطريقة غريزية، حتى في الحلم.

انظروا، أقول لجميع الحاضرين. انظروا مَن هي هذه.

شكر وعرفان

جزءٌ كبير من مسوّدة متأخرة من هذا الكتاب كُتِب في أثناء زمني في (غلادستونز لايبرري)[1] في محل إقامتي ككاتبة – ما كان لهذا الكتاب أن يكون لولا الزمن، الدعم، الموارد والبحث التي جعلها الشهر الذي أمضيتُه هناك مُمكنة، وأنا مُمتنة أبد الدهر لكم جميعاً.

شكراً لوكيلتي في (المملكة المتحدة)، صديقتي والبطلة باستمرار، هارييت مور، لإيمانها بهذا الكتاب من الجُمل الأولى، ولبقية أعضاء الفريق في (دي ڤيد هيغام) – كلّكم نجوم بارزون.

شكراً لوكيلتي في (الولايات المتحدة الأميركية)، غرينيا، وجميع العاملين في مكتبة (فليتشر آند كومبني) لعنايتهم بكتابي إلى حدّ كبير في الناحية الثانية من البركة.

1- غلادستونز لايبرري Gladstone's Library: مكتبة رئيس الوزراء الوحيدة في بريطانيا، أسسها ويليام إيوارت غلادستون (1809–1898) في العام 1894. وغلادستون رجل دولة وسياسي ليبرالي، امتدت مهنته أكثر من 60 عاماً، شغل خلالها منصب رئيس وزراء المملكة المتحدة لمدة 12 عاماً، موزعة على أربع فترات، تبدأ في العام 1868 وتنتهي في العام 1894. وقد شغل منصب وزير الخزانة أربع مرات، كان حريصاً على مشاركة مكتبته الشخصية مع الآخرين، وخاصة أولئك الذين واجهوا قيوداً مالية. كان سيسمح للأطفال والشباب الأذكياء في قرية هواردن باستخدام مجموعته. قالت ابنته ماري جلادستون إن رغبته كانت «الجمع بين الكتب التي ليس لها قراء مع قراء ليس لديهم كتب». وهي موطن لمجموعة من أكثر من 250000 مادة مطبوعة، بما في ذلك المواد اللاهوتية والتاريخية والثقافية والسياسية. وتقع هذه المكتبة السكنية في قرية هواردن، فلينتشاير، ويلز، في (المملكة المتحدة)—م.

شكراً لمحرريّ اللامعي الذكاء، هرمايني، مارغو وديبورا، الذين رأوا الكتاب بالصورة التي يجب أن يكون عليها وجعلوا كلّ شيء ممكناً. أنا ممتنة غاية الامتنان لجميع العاملين في دور النشر(هامش هاملتون) و(بنجوين جنرال)، (دبلدي) و(هامش هاملتون كندا).

شكراً لكلّ الذين قرأوا (العلاج بالمياه)، وللأجانب بكلّ صنوفهم الذين قابلتُهم منذ طباعة هذه الرواية ونشرها.

شكري الجزيل لجميع الأصدقاء والصديقات ولأفراد الأسرة الذين قدّموا لي التشجيع، الدعم، الإلهام، الجمال، التمائم الزرق وما إلى ذلك. إنكم تعرفون مَن أنتم.

وافر شكري لجميع الأشخاص الذين تحدّثوا بأمانة معي عن الأمومة والأطفال الحديثي الولادة إبان الأعوام القليلة الفائتة - كلّ أولئك الأشخاص الذين تقاسموا حيثياتهم وأحاسيسهم، منحوني الأمل، كنتُ خائفة فطمأنوني، سمحوا لي أن أحمل أطفالهم.

وافر شكري لكريستوفر، على كلّ شيء.

المترجم

ولد علي عبد الأمير صالح في مدينة الكوت-واسط سنة 1955. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والنقد والترجمة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين.

نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة 2000، وفي الإبداع الروائي سنة 2009، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة 2009، وجائزة الإبداع العراقي / وزارة الثقافة والسياحة والآثار لعام 2017، في حقل الترجمة.

ترجم ونشر 48 كتاباً حتى الآن. من ترجماته المنشورة: عروس أمريكية في كابول (بيروت-بغداد 2022)؛ العلاج بالمياه (بيروت-بغداد 2022)؛ دليل إلى الحياة الكريمة: الفن القديم للسعادة الرواقية (بيروت 2022)؛ فيلسوف القلب: الحياة القلِقة لسورين كيركغارد (بيروت 2022)؛ ذلك العالَم الآخر: نابوكوف ولغز المنفى (بيروت 2022)؛ عيون العدو وقصص أخرى (البصرة، 2022)؛ الطيور الحُمر (بيروت-بغداد 2021)؛ طقوس فارسية-سووشون (بيروت-بغداد 2021)؛ الآثم المقدس (بيروت-بغداد 2021)؛ في ضوء ما نعرفه (بيروت 2021)؛ حوارات مع التاريخ والسلطة (بيروت-بغداد 2021)؛ هرمان هيسه: في صنعة الرواية (بغداد 2021) أمس واليوم وغداً: حياتي، مذكرات صوفيا لورين (بيروت-بغداد 2020)؛ نادني الأمريكي، مذكرات عبدي نور إفتين (بيروت-بغداد 2020)؛ قبل أن نزور الإلهة (الكويت 2019)؛ فريدا: سيرة حياة فريدا كاهلو (بيروت-بغداد 2019)؛ المطيرچي (بيروت 2019)؛ طقوس (بيروت 2019)؛ العمى

(بيروت 2018)؛ لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً (بيروت-بغداد 2018).

من أعماله المنشورة: الهولندي الطائر (قصص، دمشق 2000)؛ يمامة الرسام (قصص، بيروت 2010)؛ خميلة الأجنة (رواية، بيروت 2008)؛ أرابيسك (رواية، عمّان 2009)؛ ثقافة واسط: الماضي والحاضر (جزءان) (دمشق 2017)؛ العوالم الثلاثة: تجربتي في الكتابة والترجمة والنقد (دمشق 2018).



المحتويات

(التذكرة الزرقاء)، للكاتبة البريطانية الشابة صوفي ماكنتوش، رواية ديستوبية تسبر غور مجتمع يكون فيه قرار إنجاب الأطفال شيئاً ليس بأيدي النساء. كالا، بطلة الرواية، تنشأ في عالم يختلف عن عالمنا. في عالمها، حين تختبر النساء دورتهن الشهرية الأولى، يؤدين طقساً يصطحبهن خلاله آباؤهن حيث يتعين عليهن أن يخترن تذكرة صغيرة من جهاز اليانصيب، والتذاكر إما تكون زرقاء أو بيضاء. التذكرة الزرقاء يعني أنه سوف يُدخَل جهاز تحديد النسل بشكل قسري في جسمكِ طوال ما بقي من حياتكِ، هو بشكل رئيس جهازٌ دائم يُوضع في داخل رحم المرأة كي يحول دون الإنجاب. أما التذكرة البيضاء فتعني أنكِ سوف تنجبين الأطفال. ومن خلال أحداث الرواية نفهم أنه لا توجد فرصة أخرى بشأن اليانصيب، والنساء لا يستطعن أن يغيّرن تذكرتهن إلى الأبد. ومن غير الواضح كيف ولماذا يحصل الدور التالي.

المُخبرون السريون يتعقبون نساء التذكرة الزرقاء اللائي يحملن الأطفال في أحشائهن، يتعقبونهن بسياراتهم اللامعة، مع أنهن يقطعن مسافات طويلة في أثناء هَربهن من السلطات التي حظرت عليهن الحَمْل والإنجاب، ويتجهن في النهاية نحو الحدود.

كالا تسحب تذكرة زرقاء، وبعد أن تصل بنجاح إلى مدينة ما وتعمل في مختبر على مدى أعوام، تُدركُ أنها باتت ضجرةً من حياةٍ كهذه، وترغب في حقيقة الأمر بإنجاب طفل على الرغم من لون تذكرتها. وتسمي هذه الرغبة المتنامية بسرعة «الإحساس الكئيب».

تقول كالا: «أريد أن تُشرق مني غريزة الأم، معصومةً من الخطأ، لا يُمكن نكرانها، كالنور. كان ينبغي لي أن أفعل ما لا يُمكن وصفه من أجلها. أليس هذا دليلاً على شيء ما؟» وهذه ليست أمنيتها هي وحدها، بل أمنية سائر النسوة اللائي تقرر مصيرهن سلفاً، وتعيَّن عليهن أن يخضعن لعملية وضع جهاز منع الحمل في رحم كلّ واحدة منهن بعد حيضها الأول، وهي فتاة في سن المراهقة.

رواية صوفي ماكنتوش هذه تشكل إضافةً جديدة لتقليد الرواية الديستوبية الذي وضعه الكاتب الأيرلندي جورج أورويل في روايته (1984)، والكاتبة الكندية مارغريت أتوود في روايتها (حكاية الجارية)، وما سطره الكاتب الروسي يفغيني زمياتين في عمله الروائي (نحن).

(التذكرة الزرقاء)، هو العمل الروائي الثاني الذي أنتجته صوفي ماكنتوش وصدر في العام 2020 بعد عملها الأول (العلاج بالمياه) الذي أُدرج ضمن القائمة الطويلة لجائزة (المان بوكر) العالمية لسنة 2018. وهو، أيضاً، لقي إطراءً بالغاً من قبل القرّاء والنقّاد على السواء.

